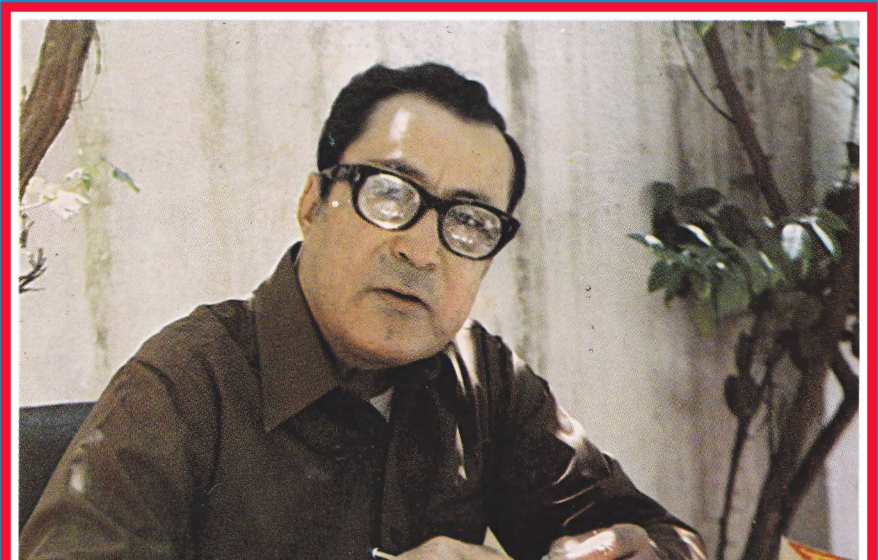
غائب طعمة فرمان

المرتجى والمؤجل



منشورات بابل

المرتجى والمؤجل

غائب طعمة فرمان

المرتجى والمؤجل

منشورات بابل
١٩٨٦
الفارابي

إذا ماالكدح أعياني هرعت إلى سريري. تجد فيه أعضائي المنهكة بترحالها راحتها العزيزة، ولكن رحلة تبدأ، عندها، داخل رأسي تشغل الذهن بعد أن قضى الجسم شغله.

شكسبير

(السوناته الثالثة)

ــــ أحدثك ياحسان ، عن اناس من بلادك ، رحلوا طلباً للعلم أو للرزق أو هروباً من ظروف قاسية ، وقالوا ماهي إلا أعوام ، ونعود موفوري الصحة والعلم . ولكن الغربة استطالت فراحوا ينسجون على منوالها قصصاً لهم وحكايات ، واقعين بين حبائل الانتظار . وسأحكي لك عن قصة اخرجها مخرج هزلي يسمى قدر غاشم ومثلها شلة من هؤلاء الذين ظلوا ينتظرون القطار طويلاً . والعمر يفوت .

كان يحيى سليم ، وهو واحد منهم ، جعله المخرج كلما فتح عينيه في صباح ، واستيقظت حواسه ومداركه ، استعاذ بالله من يوم آخر لايأتي بشيء جديد ، يقضيه في عمل رتيب ... ولكنه كان يفرك عينيه ، يمد ذراعه اليسرى الى جهاز راديو صغير ، ويدير مفتاحه ليسمع أخبار العالم . فلعل معجزة قد وقعت . ولكنه كان يصاب بالسأم ، حين لايبلغ سمعه غير أخبار سورات صغيرة ، لاتغير من الأمر شيئاً ، مع الكثير من ضجيج الأثير وحشرجاته .

ويبدأ الفيلم حين يستيقظ يحيى سليم ويستعيذ بالله ، بيده الراديو الصغير ، فلا تقع يده على شيء . كان مغمض العينين فيتذكر أنه ترك الراديو البارحة في المطبخ . ولم يجد بداً من النهوض . كان الصباح الذهبي يملأ حجرته الوحيدة ، ويعطي الكتب والمنضدة والكرسيين الواهما الحقيقية ، مع ابتسامة نور مرحة ، وغمزات ظلال خفيفة تتراكض على الجدار هدية من شجر حور عالية ، كانت تحرس بيته ، وتصل ذراها الى حجرته في الطابق السادس . استبشر خيراً . نهض ليستقبل بسمات نهار جديد ببسمة ودية متفائلة بلعل وعسى ... أزاح الغطاء عن جسده ، وبخطوات قليلة وصل الى النافذة العريضة الخالية من الستارة . كان يكره الستائر بكل أنواعها لأنها تحجب النور عنه . أطل من النافذة ، ورأى الناس يسيرون مستعجلين الى أعمالهم . ود لو يكون مثلهم ! ذهب الى الحمام ، وحلق ، واغتسل ، ودخل المطبخ ليعد له فطوره . أخرج بيضتين متبقيتين في الثلاجة ، ووضع الزبدة في المقلاة ، ووقف ينتظر ذوبانها . ثم اشتاق الى أن يسمع أغنية من بلاده . ذهب الى الراديو المسجل الموضوع على افريز النافذة ، ووضع كاسيتة فيه ، واستمع الى الأغنية . ربما تذكرها ! « لاخبر ، لاجفية ، لاحامض حلو ، لاشربت » . أنت تعرفها بالتأكيد ، كم غنيناها سوية ! ستتذكر حتماً . وعاد صاحبنا الى الموقد فرحاً ، فرأى احدى البيضتين لحقت أن تتدحرج من على سطح الموقد ، وتسقط ... رأى صفارها على مشمع المطبخ

المصنوع من مربعات بيض وزرق. اشمأز. تشاءم. ولم يعجبه حتى أن يكسر البيضة المتبقية. ولكن الجوع قتال، ياولدي، والزبدة ماعت وفاحت رائحتها الشذية. كسر البيضة بحافة السكين، وتركها تسقط على وسط المقلاة، وراقب الزلال يتجمد ويبيض. ثم قعد يأكل. أفكار سوداء طافت في رأسه كالخفافيش... لأن فاضل عواد كان ينوح بصوته المتهدج الحنون... « والتمت الحلوات، عيني، ألتمت ». وكان يحيى وحيداً في بيته، حتى تصور نفسه عصفوراً دخل من الكوة المفتوحة في أعلى النافذة، جاء طائراً من غصن عال في شجرة الحور هناك، فوقع من حيث لايدري، حبيس هذا المطبخ الضيق العبوس. أكل يحيى بيضته الوحيدة، وعاد الى حجرته، فرأى الأوراق، والكتاب المفتوح، والقواميس، فعبس وبرطم... ولكنه عاد فجلس الى المنضدة، لأن عليه أن يعمل... وعمل أربع ساعات حتى زهقت روحه، ونهض.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة. وخلال ذلك كان صالح جميل، وهو من شلة الممثلين نفسها، قد استيقظ من النوم لتوه، مثقل الجفنين، محلول المفاصل، لزج اللسان وكأنه أكل « شريساً ». تلمض، وتمطى، ودفع عنه رجليه ويديه، ووتر رقبته مبعداً عنه رأسه الثقيل، وكأنما يريد أن يتخلص منه ومن رقبته ومن نفسه كلها. وأحس بذلك العطش الصباحي الملعون. فاشتهى أن يشرب ليزيل تفكك جسده، ويعيد تركيب أطرافه المحلولة. واشتاق الى جعة. أزاح البطانية في ضيق وعجالة ونظر الى الساعة الموضوعة على المنضدة مع قدح من الماء تعود أن يشربه بعد منتصف الليل ليعيد الخدر والنعاس الى رأسه. كانت الساعة الثانية عشرة والنصف. ذهب الى التواليت لقضاء حاجته الصباحية، ثم الى المغسلة، فبلل أطراف اصابعه، ومسح بها عينيه اللزجتين بهذا الشكل (مرر الرجل سبابته على عينيه بشكل جعل الطفل الراقد على السرير يبتسم ابتسامة شاحبة) ثم حلق بيد لم تكن تطاوعه كثيراً، فكانت الموسى ترتطم بشاربه الأشيب، ثم ترتد الى أنفه أو ذقنه معوّجة، حتى فرغ من حلاقة مستعجلة بمقدار جيد من نجوم الدم الأحمر على بشرة وجهه الرقيقة. مسح بقية الصابون بالفوطة، وتهيأ ليصنع له طعاماً خفيفاً، تناوله بلقم متباعدة ظل يلوكها طويلاً عسى أن يستدر اللعاب من فمه. ولكن الشريس قد جف، وصار يحتاج الى ترطيب بسوائل غير الماء الذي كان لايروي عطش صباحاته، بل ولايرطبها. عند ذاك أمسك بسماعة التلفون، وأخذ يتلفن الى أصدقائه الذين لاأعرف لماذا كان يسميهم « الخرفان » هم بقية ممثلي الفيلم... أما لأنهم أخرفوا أو خرفوا من طول المقام في مكان واحد. قال أحدهم، وهو الذي كان يعمل وسط القواميس. « لم أكمل بعد حصتي اليومية من العمل » وقال آخر، وهو طالب الدراسات العليا من نفس الجماعة، قال حين استدعوه للتلفون من المكتبة التي يدرس فيها « والقرامطة لمن اتركهم؟ سآتيك بعد ساعتين ». وقال الثالث وكان يقوم بدور الرسام: « ستصيبني بعمى الألوان، وكيف سأرسم بعد؟ أنا لاأحب الشرب في الظهر... » فعاد وتلفن الى يحيى سليم، فقال له: أنت وين، وآني وين. راح تضيع

مني المشيتين ، تعصت على جملة لأعرف كيف أترجمها . قال ستعرفها هناك . وكان يقصد بـ « هناك » الطابق الثاني من مكان في وسط المدينة ، مخصص لبيع المشروبات الروحية . أرى في عينيك تساؤلاً ، ياولدي . ستعرف هذه الكلمة فيما بعد ، حين تتعافى ، وتكبر ، وتدخل معترك الحياة ، وتتذوق ، وتصادق ، وتجرب مافي الدنيا من طعوم ونكهات . ولنعد الآن الى صالح جميل ، الممثل المغرم بالمشروبات الروحية يتجاوز أحيانا حده ، فتصير ضده . غادر البيت عجولا ، ملتهب الجوف ، يابس الفم . وذهب الى المقهى الذي في الطابق الثاني ، وطلب قدحاً من شراب روحي يسمونه شمبانيا . وجلس وراءه ينتظر الممثلين « الخرفان » ، لأنه ، هو الآخر ، يخاف الوحدة ، ولايطيق الجلوس الى مائدة لاتنادمه فيها كأس أو صديق ، والأحسن كلاهما . وهكذا جلس يشرب ، وينتظر . وخلال ذلك كان صاحبة يحيى سليم قد عثر على ترجمة لجملته المستعصية ، وأخريات مستعصيات أكثر . تمطى ضاغطاً بجسمه على ظهر الكرسي ، ومحركاً كفيه الى الوراء ، ولاوياً رقبته يميناً وشمالاً ، متحسساً عضلات ذراعيه . كانت مفاصله كلها توجعه من جلوسه الطويل في وضع واحد ، طوال ساعات ، فارغ الذهن إلا من الكلمات التي كانت تتقافز أمام عينيه كالضفادع . فلا تتصور أنك وحدك مضطر الى أن تظل على وضع واحد ساعات . تلك حالات الاضطرار ياولدي ، ولا يمكن أن تدوم الى الأبد . رنّ التلفون فجأة في غرفته الصغيرة ، فنط كالزنبرك . كان كل رنين جرس ، بعد انتهاء العمل ، يفرحه مثل رسالة جاءته من الوطن . أخبروه من العمل أن برقية وصلت باسمه ، وعليه أن يأتي ليتسلمها . ومن شدة اضطرابه لم يسأل من أين . وفي الطريق قلب في ذهنه كل الاحتمالات . وكلها لاتسره . فإن أي برقية تعني أخباراً بشيء عاجل مفاجيء ، وأي شيء عاجل مفاجيء في حياته الراكدة ، إن لم يكن نعياً لشخص عزيز توفى أو تحذيراً أو طلباً لنجدة من شخص يحسبه مختار ذاك الصوب . ولم يدر كيف وصل من كثرة انشغاله بالهواجس والظنون . وتسلم البرقية بأصابع مرتعشة وانزوى جانباً ، وفتحها بأصابع أكثر ارتعاشاً . وقرأ سطرها الوحيد ، وأحس بجيوش النمل تغزو رقبته وظهره ... لاتبحلق هكذا ، ياولدي ، لم يمت أحد ، ولم يطلب منه شخص شيئاً فوق طاقته ، مجرد أن زوجته ... أقصد زوجته السابقة . يعني المطلقة أبرقت له تطلب أن يستقبلها وابنها في محطة القطار . وكان هذا الرجل الذي جعله مخرج الفيلم تعيساً قد طلق زوجته منذ سنوات ، وافترق عنها لأن كليهما توصل أن العيش في بيت واحد صار مستحيلاً عليهما . وشعر يحيى سليم بأنه محاصر ، وبأنه وحيد ، واحتاج الى مايكاشفه في هذه اللحظة الدقيقة في حياته ، فتذكر صديقه صاحب المشروبات الروحية ، وعرف أين يجده . كان صالح جميل قد فرغ من قدحه الأولى ، وبدأ بالثاني . لمحه يحيى من بعيد كتلة حمراء متوهجة ، وراء منضدة زرقاء مستديرة ، يتوسطها قدح لؤلؤي عالي الساق ، متلألىء بما فيه كالدرة . تلقاه صالح ببشاشة ، وسلم عليه بمرح . وقال له : ماذا تشرب ؟ قال : أي شيء . أعصابي انقلبت الى بهلوانات سرك تحت جلدي .

قال له: يعني الجملة مازالت مستعصية عليك؟

قال: لا، بل جوبهت بأصعب منها. قال: ماهي؟ سكت يحيى سليم، وارتبك، ولم يعرف كيف يفتح الموضوع. كيف ينبش قبر الماضي... فان ذلك حرام، ياولدي، حرام أن ينبش قبر، أو يشق جرح مندمل، أو يكسر جناح طائر كان قد كسر من قبل. ولكن عقدة لسانه، أقصد لسان يحيى قد انفكت حين رطب حنجرته بسائل محبب، وباح لصديقه بما عليه أن يجابهه. سأله صالح:

ــ كم مضى على فراقكم؟

ــ أكثر من أربع سنوات، لم اتسلم فيها قصاصة ورق، ولامعايدة... وأراد أن يقول: «لاخبر، لاجفيه، لاحامض حلو...» لأن الأغنية التي استمع اليها في الصباح ظلت تطن في طبلة أذنه حتى الآن. قال له صالح: اذهب. ألا تحن لابنك؟ وكيف لا يحنّ اب لأبنه؟ جفت حنجرته، فشرب من السائل المحبب. قال له صديقه: اذهب واستقبلها وابنك، ولكن لماذا جاءت؟ قال له يحيى: لاأدري، هذا الذي يحيرني. هل جاءت لتصالحني، وهي التي نستتني تماماً؟ حطمت كل الجسور، كما يقولون في الكتب. والماضي الآن، أقصد حياتنا الماضية، راقد هنا، في الصدر، بعد أن صرت أهيل عليه التراب أربع سنوات. فلماذا تنبش الماضي؟ ظل الصديقان يجرعان الشراب جرعة جرعة. ومع كل جرعة كان يرطبان قشرة التراب المتكلسة، حتى أوشك الماضي أن يفوح من خياشيمهما، كرائحة جرة عتيقة. لأن صالح جميل، ذلك الرجل القصير، الشبيه بضابط تركي متقاعد، ولكن بحجم مصغر كان شاهد عرسهما. وكان قد شرب كثيراً، في حفلة العرس، على عادته. وخطب خطبة سياسية عصماء شتم كل من يستحق الشتم ومن لايستحقه، حتى حدث هرج ومرج، وصياح وعياط، وانقلبت كراس، واريق دم العنب على الخوان والجيران والجدران. وهربت العروس الى المطبخ، وراحت تبكي وهكذا، يابني، نحن العراقيين نقلب الأعراس مآتم، والمآتم أعراساً. ولكن السيد صالح جميل، ذلك الضابط المتقاعد، نسي كل ذلك. وقال: اذهب واستقبلها، وستعرف الخبر اليقين. ولكن اياك أن تأخذ زهوراً زوجية، مثلما فعل أصحابك حين جاءوا بباقتين، كل باقة بثلاثة زهور، حتى يظهروا كرمهم الحاتمي، فصار العرس مناحة. قال يحيى سليم: سأخذ لها وردة واحدة، حمراء قانية، مثل قلبي. فقال له صديقه: وخذ شوكولاته مثل لسانك الحول الذي يجلب لك البلاء. وأخذا يتحدثان على هذا المنوال حتى أطل عليهما صديقهم الثالث، الذي يمثل دور الطالب في الدراسات العليا، ويحسب نفسه علامة فهامة. قال ذات مرة أن كتبه ستملأ سوق السراي. جاء مرفوع القامة متمشياً وكأنه يريد أن يلقي محاضرة هكذا جعله مخرج الفيلم. ولكنه بدلاً من أن يكون متأبطاً بعض الكتب الصفراء كما هو منتظر من رجل يدرس القرامطة، كان يتأبط ذراع فتاة، قال انها زميلته في المعهد، والعهدة على الراوي، تساعدة في تعلم اللغة

تعابيرها الدارجة .

وخشي يحيى سليم الذي ستأتي زوجته السابقة اليوم ، ان يرطب بلعومه أكثر من اللازم ، فاعتذر عن البقاء أكثر ، وانصرف لاتكاد الأرض تحمله من الفرح ، تساعده في ذلك الغازات الأثيرية التي تطايرت الى يافوخه . وبعد أن عمر ثلاجته بما لذ وطاب للقادمين في قطار المساء ، تعطر وتزين ، واشترى وردة وشوكولاته وذهب الى المحطة وإذا به يراها ، أقصد المحطة ، وكأنها في يوم الحشر ، غاصة بالناس ، وكأنهم جاءوا جميعاً لاستقبال زوجاتهم المطلقات ، أو ازواجهن المطلقين . واستغرب أن يرى ، وهو الذي نادراً مايذهب الى محطات القطار ، فرقة موسيقية كاملة مصطفة على أحد الأرصفة تعزف نشيداً حماسياً جميلاً مثل نشيدنا ... « نحن الشباب لنا الغد » وكانما ترحب به ، وتبارك مجيئه . وشاهد عشرات من الناس يحملون مثله زهوراً ملونة ، وبالونات هوائية (تمنى لو كان قد اشترى واحداً منها لابنه ، لو لم يستح من شاربه) ، وكان الناس يتحركون حركات الانتظار اللاهفة . وقف ، وانتظر مع المنتظرين حتى يعلنوا اسم الرصيف الذي سيتوقف عليه قطار نادية وفريد(هذا اسم زوجته واسم ابنه كما في الفيلم) وبعد دقائق يئس من سماع الاعلان ، وسط هدير الموسيقى الحماسي المتصاعد ، فابتعد عن زحمة الناس ، وسأل عن القطار جمهرة من الحمالين كانت تقف بعرباتها الفارغة بترقب . أشاروا له الى الرصيف . كانت القطارات تروح وتجيىء مبتلعة أو قاذفة عدداً هائلاً من الناس حتى خشي أن ينقصف ساق وردته . قلبه الذي يحمله ، وشق به صفوف الناس الى الأرصفة الفارغة ووقف هناك ينتظر قدوم القطار . كان رأسه خالياً من كل فكرة . ربما تعب ، واستسلم الى الوشوشة والى قدر يوشك أن يقع . وخلال ذلك لحقت السماء أن تتغير ، فتلبدت ، واكفهرّ وجهها . (لقطة سينمائية احب المخرج أن يظهرها على الشاشة) وسرت ريح محملة برائحة عفونة واحتراق وسخام ، وصدأ حديد وزنخ النفايات ، وأنفاس ناس كثيرين كانوا ينتظرون مثله ، أو نزلوا من قطارات قادمة حاملين معهم روائح رحلة طويلة ، ومناطق بعيدة ترصع الظلام بدوائر فسفورية من النور ، حين أضيئت الأنوار ، وشعر يحيى سليم بفرح مقلق ، وقرب الوردة من أنفه ، وشم فتات رائحتها الضائعة بين آلاف الروائح . وبدأ الناس يفدون على الرصيف الفارغ ، وقرقعت عجلات الحمالين على الرصيف الصلب . وسرى تيار خفيف من الرعشة في أوصاله . تصور تقاطيع غامضة موزعة بين آلاف الذكريات والنظرات الى وجهها . لون شعرها الحنائي الفاتح برز في مخيلته يؤطر وجهها الأبيض اللهوف ، وعيناها الخضراوان ، وأصابعها الطويلة المرتبكة ، حين كانت تزاول أعمال المطبخ في غير رضى ولاقناعة . ومن يدري ، يابني ، فلربما شم رائحة آسرة أليفة رفّت حوله من بين عشرات الروائح ، مثلما تشم أنت رائحة شخص عزيز عليك ، أمك أو جدتك أو حتى أبيك . تلك هي رائحة جسدها الفتي المعافى . وامتزجت تلك الرائحة بأريج الوردة القريبة من أنفه . وظهر في الفيلم ضوء من بعيد ، وظهر بوز القطار من منحنى الطريق العريض المشرط

بعشرات الخطوط الحديدية، اللامعة منها والمسودة. وتعالى لغط الناس يتصاعد من حوله يحيى سليم حتى غرق في أحاديثهم الخرافية، التي ومحت كل صورة في ذهنه... وصار واحداً منهم، ينتظر مثلما ينتظرون، ويستعجل مرور اللحظات. أقبل القطار ببطئه اللامبالي، وكأنه يغيض المنتظرين، دمدم المحرك الكهربائي، ماراً به، وتهادت العربات أمامه، وفي منافذهم المفتوحة الى النصف تطل عشرات الرؤوس الملونة الغريبة السحنات، المتعبة القلقة، الضاحكة والجامدة التقاطيع، المترقبة الحانية، وراح يبحث بقلق وافاق عن وجهها من بين كل هذه الوجوه. وبعد لحظات بدأت الهتافات تتردد على الرصيف، ومن النوافذ المفتوحة، حين أخذ القادمون والمستقبلون يتعرف بعضهم على بعض، كل أليف يتعرف على أليفه، وبرزت عشرات الأكف تلوح للمنتظرين. وضاع هو بين ثنايا تلك الكتلة المضطربة الرجراجة، الزاعقة المتهللة، وفي لحظة الضياع تلك يئس من أن يتعرف على زوجته السابقة في أمواج هذا البحر البشري. ومثلما هو، في كل الأحيان، استسلم للحظة الحظ، وما تخبئه المصادفة، وارهف سمعه لعل اسمه يتردد ضائعاً في ثنايا النداءات العارضة المتشابكة. وعندما وقفت العربات تماماً، ولم ير أو يسمع شيئاً، تحرك الى الأمام... ولكن يداً مست كوعه، والتفت فرآها...

طافت نظراته الهائمة في وجهها المتعب الباسم، المؤطر بمنديل أبيض بورود حمر، وارتبك ارتباكاً شديداً، وكأنه يلتقي امرأة غريبة عليه، لأول مرة، كانت هاشة باشة به. ولم يعرف ماذا يفعل. والناس لم يساعدوه على أن يستقبلها باللازم. كانوا يدفعونه من كل الجهات، أو ينسلون في المسافة القصيرة الفاصلة بينهما. قدم لها الوردة. وسألها والصغير؟ أشارت الى مخلوق يختفي وراء أذيالها. رفعه عن الأرض. وقبله بعمق وحدة سنوات الفراق الأربع، وأحس بأن الطفل يلتصق به. ربما تذكر أباه، أو ربما لأن الناس أرهبوه، فوجد منجاة في الذراعين الغريبتين المحتضنتين إياه بحنان فائق. قدم له الشيكولاته ليزيد من حرارة الحنان. وساروا باتجاه مبنى المحطة، وقلبه يدق قرب قلبه ابنه ولثمات جسد زوجته الحار على جسده البارد، حين كان الناس يحصرونهم في حيز ضيق. وكان ذلك مثل طوق نجاة خلصه من الكلام... والسلام... ولربما من العقاب أيضاً.

في سيارة التاكسي، حين أعطى يحيى للسائق عنوانه رأى وجه زوجته السابقة يستدير نحوه بالتفاته اندهاش سريعة وعرف ماتعني هذه الالتفاتة الحادة المتسائلة والبريق الخاطف من عينيها الحائرتين. تمتم يحيى: « غيرت شقتي القديمة »، وضاعت هذه الجملة في صمت محرج، فأمسك بيد الطفل الصغيرة، ومال نحوه، وسأله سؤالاً ليس في مكانه: « هل كنت هنا من قبل؟ ورن السؤال منحوساً في الصمت الموحش. ردت نادية، وهي تحني رأسها نحو الطفل: « كان ! ولكنه ! ووخزته جملتها كابرة مسمومة . تلت ذلك فترة صمت، كان لسانها فيها مشلولا بجيشان العاطفة.

... وانقطع كلام المتحدث ، حين صدر من خلفه صوت ناعم حاد النبرة :
ــ انتهت المقابلة . اتعبت المريض من الكلام . فنهض الرجل وقال لابنه :
ــ سآتيك غداً ، ياولدي ...

لم يبد على الطفل غير شرود وانقطاع عن الدنيا ، ولم يظهر أي تأثر على وجهه الشاحب الهزيل . وقبله الرجل من خده وتمنى له ليلة سعيدة ، وانصرف . وعند الباب ، في أقصى الردهة ، رأى عينيه السوداوين مصوبتين إليه ، ولكن ببكم حزين .

— ٢ —

في اليوم التالي جاء الرجل، فرأى ابنه من بعيد ينتقل بصعوبة من الكرسي المتحرك الى الفراش. توقف الرجل عند باب الردهة شاعراً بوخزة في فؤاده، بينما جاء منشرح الصدر. فقد كان الربيع في الخارج يقيم للبشر الطلقاء الأصحاء مهرجاناً مترعاً بالألوان الزاهية. وكانت الشمس تغمر الناس والأشياء بظلها الذهبي الثر، وتهدهد الأعصاب بدفئها الناعم الحميم. وكانت البراعم قد بدأت تتفتق في الأعواد الكثيرة العارية المكتسية حمرة أوائل الصبا، وخضرة الزيتون، على جوانب الأرصفة التي سلكها حاملاً معه كيساً ورقياً معبأ بالكرز القادم من الجنوب، وبعض الخيار الفض الفواح برائحة صيف مقبل، وإجاصاً مجففاً كان الأطباء قد أوصوا عليه، لأبنه، لتليين أمعائه المكتظة من طول الاستلقاء على السرير، تريث في الباب حتى يستقر ابنه، وتهدأ أنفاسه. وجاء اليه باسماً بكل فمه العريض، وأدى له التحية العسكرية مزاحاً، وسط أنظار المرضى الآخرين، وقال:

— هاقد جئت اليك بهدايا الربيع، ياحسان، وتركته واقعاً عند باب البناية بانتظارك.

ولمعت عينا الرجل ببريق عجائبي، وكأنه تذكر واحداً من لداته السابقين، وقرب الرجل الأكياس منه ليرى مافيها، ثم مسح براحة يده ثمرة كرز ريانة، وأدناها من شفتيه، فتلقفتها الشفتان الرقيقتان، وتندتا بعصيرها. وبعد أن جرّب الصبي كل الفاكهة، ماعدا الاجاص المجفف، استرخى على المخدة، وحرك رأسه حتى اتخذ وضعاً أروح. كان الرجل مايزال يبتسم، والصبي ينظر إليه، وكأنه لايعرفه ولكنه يستأنس به، أو أنه يفكر في شيء آخر بعيد عن عالم الرجل. قال له:

— إيه، حسان، كيف الأحوال؟

هز الصبي رأسه، وقال:

— زين، وتصالحوا؟

— من؟

— في الفيلم...

— ها!... يحيى وزوجته السابقة؟

وضحك الرجل ضحكة خافتة اطالها ليستجمع أفكاره من هذه المباغتة، وتحير لحظة

لايعرف ماذا يقول ، ثم قال :

ــ لا ، ياحسان ... لاأدري بالضبط ... فقد نسيت تفاصيل الفيلم . ولكن أنت يهمك الطفل ، تمام ؟

صمت الصبي صمتاً غامضاً ، ربما لأنه غير قادر على أن يهز رأسه .

ــ طيب ، سأحكي لك قصته ... أين وصلنا ؟

ــ أخذهم الى البيت .

ــ أها .. ــ واستقر الرجل في مقعده جيداً ، وقال ــ وصلوا الى البيت ، فسألته الزوجة عند دخول البيت على ماأذكر : شقة جديدة ؟ أجابها نعم ، وفي الضوء الساطع رأي عينيها الخضراوين ، لأول مرة ، نفس العينين المألوفتين له ، بلون الزمرد الفاتح ، بلون تلك الخرز التي تباع عندنا في شارع المستنصر . هل تذكر أيام كانت أمك تأخذك الى هناك (كان في عيني الصبي تساؤل حائر) فقال له الرجل إن كنت لاتتذكر الآن فلا تتعب نفسك ستتذكر فيما بعد . ولكن لاتقل لي أنك لاتتذكر أمك التي أرضعتك ، والمدينة والشارع والبيت الذي ولدت فيه . إذا نسى الانسان هذه الأشياء نسى كل شيء . فماذا سيتذكر في هذه الدنيا بعد ؟ دعنا نؤجل ذلك الى وقت آخر . أردت أن أقول أن بطل الرواية يحيى سليم رأى تلك العينين بلون الزمرد الفاتح، ولكن بحلقات متفاوتة في العمق ، ولم يجد صعوبة في أن يقول ، حين سألته : « لماذا غيرت الشقة ؟ » وماحاجتي الى شقة كبيرة . ولم يقل « فراقكم » . فقد كان يصعب عليه أن يقول ذلك . وكانت هي مشغولة في خلع معطفها وحذائها . وكانت هالة شعرها بلون الكستناء ، تلك الفاكهة التي كنت تفخرها وتأكلها في الشتاء ، كانت هالة شعرها الكستنائي تلمع في الضوء وهي تروح وتجيء في الغرفة الصغيرة . وكانت قد تركت ابنه فريد يسرح في الغرفة الصغيرة ، يمطي رجليه بعد تلك الرحلة الطويلة في القطار ، وانشغلت هي باخراج علبتين من مربى الكرز البيتية ، مثل تلك التي كانت تصنعها أمك من الكوجة والمشمش ، وقالت وهي تقدمها له : هذه من بلدتنا . ولأول مرة تقابلت نظراتهما ، في لحظة خاطفة زرعت الرجفة في أصابعه . قال بلسان جاف ، مثل لسان صاحب الممثل الهزلي صالح جميل حين يستيقظ في الصباح : سأهيىء العشاء . قالت : للطفل فقط . أنا بحاجة الى شاي فقط . وبدت له جملتها أليفة ودود ، فلت قيوداً وحلت عقداً من أعصابه المشدودة . وإن كان يود لو سمعها تقول : لابنك ، لاللطفل ، كما قالت ، والمخرج الشيطان تقصد أن تقول ذلك . ولم تقله . وراح يحيى سليم وجاء خفيفاً في المطبخ ، وأخرج كل مافي الثلاجة الصغيرة ، وزجاجة من تلك التي يحب صالح أن يحتسي شيئاً منها بعد فطوره بعد الساعة الثانية عشرة . ووضع الأشياء على المائدة ، وملأ سخان الشاي ، ووضعه على عين الغاز . ثم وضع المقلاة والزبدة فوقها ، وتحير أيبقى في المطبخ ، أم اليهما . مد رأسه من طرف الباب ، فرأى ابنه يلوك الشوكولاته . وحين رآه الطفل أقبل عليه . وشعرت المرأة بوجوده عند الباب .

مسّد الرجل على شعر الطفل، وقال له: « لا تأكل الشوكولاته الآن. في انتظارك دجاجة كاملة لتأكلها ». وكان يطوق الطفل بنظراته العطشانة، وينغمر في خيمة رائحته الممزوجة بعبق الشوكولاته. وجد الرجل الفرصة ليتمعن ابنه، باحثاً عن الشبه بينه وبين الطفل، مثلما يفعل كل الآباء والأمهات، وقد فعلت أنا ذلك من قبل معك، عندما كنت صغيراً، ولاأزال. (وضحك الرجل في حنان لايناسب سنه فوق الأربعينية) عيناه سوداوان تلمعان بنوع من الغربة وبما يشبه التيتم. وشعره كالقهوة المحمصة، كثيف، مبعثر على جبين ناصع البياض مثل وجهه. (نسيت أن أقول لك أن الفيلم كان ملوناً). وعندما استقر فمه على لوك الشوكولاته رأى يحيى الشبه صارخاً، او هذا مابدا من نظراته، إذ رأى في استدارة الذقن، وتكوين الشفتين، والبسمة المندهشة على الفم الصغير الملطخ بالشوكولاته، واطلالة الأنف القصير. وكل ذلك كان عزيزاً عليه وقريباً من قلبه أشعره بألفة وحنان، وشيء من الوحشة لسبب لايعرفه تماماً. ود لو يحمل الطفل بين يديه، ويلثم رقبته وصدره، وأذنيه، وأنفه، وعينيه، وجبينه، مثلما أود أنا الآن، أن أفعل معك، لولا وجود المرضى هنا. ويحيى أيضاً خشي أن يخاف الطفل الذي لم يألفه بعد، وان كان أباه. وسمع زوجته تناديه. خف الى المطبخ..

ــ ماذا تريد أن تفعل؟

ــ أغلي الماء، وأقلي الدجاجة.

ــ ولكن الموقد بارد.

ــ أوه، نسيت أن أفتح الغاز.

ــ آه، يحيى، يحيى...

وضحكت ضحكة حزينة، ... ومثلما تفعل أمك حين كانت تجدني متورطاً في تحضير شيء في المطبخ. اقترب منها، من زوجته... السابقة، وشم رائحة جسد فتى معافى، مضمخ بروائح برار وغابات عذراء. وهذا مابدا من انتفاخ منخره بالخدر يسري في شرايينه. وكاد يرتكب حماقة، إلا أنه أبعد رأسه عنها، في اللحظة التي سمعها تقول، وهي تمسح قعر المقلاة بالذهن الذي بدأ يذوب:

ــ غيرت بيتك القديم، إذن.

ــ ها أنت ترين.

ــ أجبروك أن تفعل، أم أنت الذي أردت؟

ــ الاثنان معاً.

ولم يقل أن كل شيء في البيت القديم كان يذكره بها وبابنه، تماماً كما يذكرنا بيتنا في حينا القديم بمولدك وضحكاتك، ولعبك، ومرحك. ولم يشر يحيى بشيء الى ذلك الاحساس بالخوف

الذي يلازم الناس جميعاً في الأشهر الأولى من غياب شخص عزيز عليهم. لم يقل لها غير تلك الجملة الحيادية التي لاتعني شيئاً، والتي تلقتها المرأة ببرود، ولم تعلق بشيء عليها. ظلت مشغولة بتقلية الدجاجة، ثم قالت أخيراً، تماماً كما كانت أمك تقول، حين تزهد من المطبخ.

ــ لم هذا كله؟

ــ هذا شيء اعتيادي.

ــ هل أنت جائع الى هذا الحد؟

ــ لا، أبداً... ولكن لك... للطفل.

ــ قلت لك: أنا لاأريد غير الشاي. والطفل يقنع بعصيدة، هل عندك حليب؟

وقدم لها زجاجة حليب. ولما تهيأ العشاء، جلس ثلاثتهم ليأكلوا ويشربوا الشاي.

وكان صاحبنا يحيى سليم قد «هرّب» الزجاجة التي كان يحب صالح جميل شربها، من المطبخ الى الحجرة، وحين هم بفتحها قالت له بشيء من الضيق: «افتحها بهدوء، حتى لايجفل الطفل». وحين فتحها بكل هدوء، رأى، وهو يسكبها في قدحه، ذلك العتاب الجارح من امرأة ضبطت زوجها يغازل امرأة أخرى، نفس ذلك العتاب القديم الذي كنت أراه في عيني أمك، حين كنت أرطب فمي، وأخذ بمداعبتك، وأضعك في أحضاني، وأنت طفل صغير، وأقبل وجنتيك بشفتين رطبتين. فتمسح أنت موضع قبلاتي بيدك. ولكن يحيى سليم أغمض عينيه حتى لايرى نظرتها، وشرب جرعة طويلة من ذلك السائل العجيب. وحين فتح عينيه، ونظر اليها للمرة الثانية، رأى على شفتيها الناعمتين ابتسامة باهتة مخملية اللون، وكأنما سمعته يعطس، ولم يقل لها عفواً. سألها للمجاملة كيف كانت رحلتها. قالت: متعبة ومسلية. متعبة لأن الطريق طويلة، والقطار مزدحم كان يتوقف في كل المحطات. ومسلية لأننا مررنا بمناطق الدنيا كلها تقريباً. كم هي شاسعة وخضراء ومتنوعة بلادنا هذه وماأغناها! ليس هناك أروع وأجمل من المناطق الطبيعية في بلادي! ليست رتيبة أو منبسطة، بل مجسمة غزيرة الألوان، مهيبة، راسخة، تجعلك تحس بصلابة الأرض تحت قدميك. ولم يلمها في اطالتها الوصف، وتغزلها بطبيعة بلادها. فإن كل حزب بما لديهم فرحون ياولدي. ونحن أيضاً، أبناء الصحراء، نتغزل في طبيعتها، ونرى حصاها خيراً من الشهب، وثراها أغلى من الذهب، تتمنى السماء لو لبست حلة من طرازها العجب، كما يقول الشاعر. ذلك حب الوطن، وهو عاطفة سامية في الانسان. والحب، بشكل عام جميل وآخاذ. وهو نوع من الايمان. والايمان لحمة الحياة وسداها، نشوة الأمل وشجاعة القلب. ثم سألته عن حياته. فقال: لاشيء جديد فيها. يعني: لاأمل؟ قال: الأمل موجود دائماً، وإلا فستكون الحياة ليلاً طويلاً بلا فجر. وكيف أهلك؟ قال: بخير. هل يرسلون لك الرسائل؟ نعم، ولكن على ظهر سلحفاة. ضحكت وقالت ماذا

يكتبون؟ قال: بعضهم تزوج، وبعضهم أنجب، وبعضهم قضى نحبه. ثم أضاف في سره: « ومابدلوا تبديلاً ». كانت الشمبانيا قد استخفته فترنم بها ترنيماً. ولابد أن زوجته السابقة تذكرت ترنيمه الجميل، عندما يغلق عليه باب الحمام، أيام زمان، حين كان ينشد كالطفل الصغير: « رأيت عشاً للعندليب، بناه فوق الغصن الرطيب » وضحكت نادية، وضحك الطفل بالتبعية. وبقى يحيى سليم معها الى أن فرغت الزجاجة مأسوفاً عليها. وحين أخذوا يتهيأون للنوم، قالت الزوجة السابقة، لأول مرة:

ــ سنثقل عليك.

ــ أرجوك.

ــ ماهي إلا أيام، ونرفع الزحمة...

وأصاب الممثل وجوم شديد، ولم يجب، تابعت تقول:

ــ المؤتمر سيستمر عشرة أيام، سنكون خلالها في ضيافتك.

قلت لنفسي: من عندنا غيرك هنا. فهل ستتحملنا؟

كانت في كلماتها هذه تدق مسامير في قلبه، فقد احمر وجهه على الشاشة. قال مغالباً مشاعره:

ــ أرجوك لاتتحدثي بهذا الشكل.

وناموا...

وحين استيقظ يحيى سليم في إطلالة الفجر، أحس هلعاً من تيار برد يتسرب من يمينه. ربما تصور أنه نائم في الشارع. نظر الى يمينه، فرأى الليل قد انقلب الى رمادي ونظر الى يساره، فرآها هناك نائمة مع فريد على سريره الوحيد محجوبة عنه بالغطاء يلتف حول جسمها. حاول أن ينصت إلى أنفاسها. لم يسمع شيئاً. كانت تغط في نوم عميق، مثل نوم الطفل الذي لايثقل على قلبه همّ. وفكر بمسامير كلماتها في المساء، وأحس بتوهجها في قلبه. وهمس مع نفسه: إذن، لم تأت للمصالحة، ولا لتجديد ماانقطع. وشعر الرجل بمغص في معدته. لأن الممثل وضع يده على بطنه، نهض، وانسل الى المطبخ، وغسل وجهه هناك. ووقف عند الشباك، حيث كان المسجل مايزال على الافريز، وفيه كاسيت فاضل عواد. ولكن لابد أنه بدا له قديماً، وقديماً جداً يخص مرحلة غابرة من حياته العاطفية. لأنه شعر بالاهابة وخيبة الأمل. وظل ينظر من الشباك الى الدنيا تحته، واللون الرمادي يذوب، ويمتصه ندى الصباح، فيكشف عن قامات الأشجار، وأضلاع البنايات، وهياكل السيارات، وخطوط الترام، وأعمدة المصابيح وأسلاك عربات الباص الكهربائية، لقطة سينمائية بارعة! والناس أيضاً، بدأوا يخرجون من بيوتهم، ويدبون بأرجل قصيرة الى أماكن عملهم. وهكذا، هي الحياة، يابني، تسير أبداً، لاتحفل بمأساة،

ولايموت أمل، وإلا لما سميت حياة. وهذا هو الفرق بينها وبين الموت. الحياة حركة، والموت توقف. ولهذا تكون الحياة عزيزة، وحلوة، ويجب أن يكافح الانسان من أجلها، من أجل حياته، ومن أجل حياة الآخرين، مثلما كافح البروفسور كوزين من أجل حياتك، ومنحها لك، ووضعها دينا في أعناقنا، لنردها اليك كاملة غير منقوصة، تستطيع أن تمارس فيها كل أنواع النشاط الممنوح لبني البشر، وحتى ذلك الذي نسب خطأ، أو نسبه الانسان خطأ الى الأرباب.

بينما كان ممثل بطل الفيلم يحيى سليم يفكر أحس بحركة وراءه. التفت، فرأى الطفل يحتضن قائمة الباب، في لباس النوم، ويخاف أن يدخل. ناداه:

ــ تعال، فريد، تعال.

امتنع الطفل لحظات، قبل أن يدخل متهيباً شاحطاً بقدميه. لم يكن للرجل مايسليه. لالعبة، ولاشوكولاته أخرى. فحمله من تحت أبطيه، ووضعه على افريز الشباك، الى جانب المسجل، وتركه يعبث بكل مفاتيحه، وينقر على زجاجه. ثم انتصب الطفل، واستند بكفيه المبسوطتين على زجاج النافذة، وقرب أنفه منه.

ــ عمو؟

جفل الرجل من هذه الكلمة الغريبة، ارتعد كالملدوغ، ولكنه تمالك نفسه، وقال بعد صمت ذاهل:

ــ نعم، ياابن الأخ؟

ــ الكشك هناك لبيع الدوندرمة؟

ــ نعم، وسأشتري لك اسكيمو، حين يفتح.

ــ وماذا هناك؟

ــ تلك القبة الفضية؟ سيرك جديد. أتحب مشاهدة السيرك؟

ــ نعم، عمو.

ــ لطيف، ولكن لماذا تسميني عمو؟

قالها الممثل في ضيق شديد، وتلفت خوفاً من أن تكون زوجته السابقة قد سمعته.

ــ لأن كل الرجال ماعدا أبي أعمام.

جاراه الرجل فقال:

ــ طيب، وأين أبوك؟

ــ بعيد، بعيد ...

ومد الطفل ذراعيه مرتين.

ـــ ألم تره؟
ـــ لا .
ـــ لاتحب أن تراه؟
ـــ لاأدري .

وأحس الممثل بجفاف في حلقه ، لأنه تلمض ، وقد يكون قد التهب . ولابد أنه شعر بأن يداً ظالمة تمتد لتنتزع ابنه منه . قرب يحيى سليم الطفل منه ، ولثم الثوب عند أعلى الصدر . وشم رائحة جسده الغض . ولم يبد على الطفل أنه خاف ولا أتى بحركة رافضة . وفي ضوء الصباح الباهر الذي كان يملأ الشاشة تأمل يحيى وجه ابنه . الجبين أملس ناصع تزيد من نصاعته خصلات شعر مشبع ، من الداخل ، بلون الحناء بدا افتح من الليلة البارحة ، حيث كان النور قليلاً ، وحتى العينان (التقط المخرج لقطة للوجه ملأت الشاشة كلها) حتى العينان بدتا افتح لوناً ، وأقرب الى أن تكونا رماديتين داكنتين ، ذاتي حلقتين فاتحتين ، تلمعان ببريق هادىء جرى . والأنف مكور قصير ، وعلى الخد الأيسر ، إلى الأسفل ، شامة بدت غريبة في وجه غض ، في مثل هذه السن . طوّق الطفل رقبة يحيى ، وتعلق به ، وانتشى يحيى نشوة لاتضارعها كل أملاك الدنيا ، وهم أن يرقص طرباً ، لولا أن سمع حركة في الرواق ولابد أنه شم رائحة أخرى أليفة تقبل عليه مثل طيف . التفت فرأى زوجته السابقة تدخل المطبخ في ثوبها البيتي المخطط بالأزرق الفاتح . ولابد من أن يحيى شعر ، وهي تقرئه تحية الصباح ، وتقبل الطفل ، بحضورها الجسدي والروحي قوياً صاعقاً ، وكأنما لم تفارقه تلك السنوات الممطوطة ، قالت الأم للطفل :

ـــ تعال نغتسل ، وعمو يحيى سيهيء لنا الفطور . إنه أحسن عم لك في الدنيا .

وغمرته بعينها . وقادت الطفل من يده . ومن خلال الذهول الذهني الذي ظهر على وجه الممثل من تلك الغمزة اللمزة ، من خلال تلك الطعنة الباردة التي وجهتها اليه زوجته السابقة في تلك اللحظة المضغوطة من الزمن والتي تعادل حياة تعيسة كاملة ، فأحس وكأنه واقف أمام هوة سحيقة تفصل بين عمرتين ، حياتين ، ولامجال الآن لعبورها أبداً . هذا ماتصورته حين شاهدت الفيلم ستدق عنقه ، ولايعبرها . وقال البطل لنفسه ، وهو يملأ سخان الشاي بلماء : « إذن ، هي التي قالت له أنه عمك وليس أباك؟ عن قصد وتصميم ... » وكزّ على أسنانه ، ولابد أنه قرر بكل مافيه من طاقة ، أن يسترده منها ، أن يعيد ماأفسد اصطناعياً . خرج يحيى سليم من حالة التمزق ، حين سمع المرأة تصرخ بالطفل ، ورن الصوت في الحمام ، وفي طبلة أذنه ، ربما . فتح البطل الثلاجة ، وأخرج كل مافيها من جبنة وبيض وزبدة ، وحمل سخان الماء ، وهم أن يضعه على عين الغاز ، إلا أنه تذكر نسيانه اشعال النار في مساء البارحة ، فابتسم ، وسرى ذلك عنه ، وبدا المرح على وجهه . أشعل عيني الغاز الاثنتين ، وطاف في المطبخ . وكان ولابد أنه تذكر

ذكريات حلوة قريبة الى قلبه، حين كان الصفاء يملأ حياته. لأن الابتسامة عرضت على الشاشة، ولكنه هز رأسه ربما ليطرد ذكريات الماضي، وعاد الى حاضره. ولما فرغ من إعداد الفطور، ذهب اليها فرآها واقفة أمام رفوف الكتب في كامل ملابسها.

ــ الفطور جاهز.

ــ ونحن جاهزان أيضاً.

ــ هل أجلبه الى هنا؟

ــ لاسنأكل في المطبخ. صحيح، فريد؟

وعلى الفطور سألته:

ــ كيف نمت؟

ــ لابأس.

ــ ألم تؤذ ضلوعك صلابة الأرض؟

ــ نمت، ولم أشعر بشيء. وأنت كيف نمت؟

ــ كالميتة. لم أشعر بفريد حين نهض. فتحت عيني، فرأيت نفسي في حجرة غريبة وسرير غريب. رفعت جسمي على كوعي، ورأيت فراشك على الأرض. مسكين، يحيى، ستتعبك.

ــ لاتقولي مثل هذه الأقوال.

ــ أنت طيب، يايحيى.

ونظر الى عينيها الشبيهتين بعيني قطة متوحشة، ولكنها أليفة جداً، وقريبة الى النفس. ود لو يداعبها رغم خشونة كلامها.

وعند انتهاء الفطور، سألته:

ــ كم الساعة الآن يايحيى.

ــ العاشرة.

ــ آه، علي أن أذهب. اسمع، يايحيى، هل ممكن أن اترك فريد معك، أثناء انعقاد المؤتمر؟

ــ بكل سرور.

صاح فريد:

ــ لا، ياماما، أنا أيضاً أريد أن أخرج الى الشارع.

ــ ستخرج مع عمو يحيى، أليس كذلك، يايحيى؟

وضع يحيى يده على يد الطفل، وقال:

ــ سآخذك الى المنتزه، الى ملعب اللوناريباك. ألا تريد؟

ـــ أريد ، أريد ، والسيرك ؟
ـــ في المساء سآخذك الى السيرك أيضاً ، قفز الطفل على مقعده . فأضاف يحيى سليم :
ـــ سآخذك الى كل مكان ، طوال المؤتمر ، وبعد المؤتمر إذا شئت .

ونظر الى زوجته نظرة ذات معنى ، فنكست رأسها . وبلع ريقه لأنه شعر بغصة مما قاله ، ومارأى . إذن ، جعلت من بيته نقطة توقف ... ثم سترحل مع ابنها ... مع السلامة ، يايحيى ... الطيب ! هكذا كان مخرج الفيلم يريد أن يقول .

وصمت الرجل ، والد الطفل الطريح الفراش ، صمت مبهوراً ، كمن من حالة الهذيان ، مأخوذاً بما جرى على لسانه ، وكأن شخصاً آخر كان يستخدمه . هل معقول أن يقص على ابنه مثل هذه الأشياء التي لاتقال حتى للكبار ؟ كان كمن يناجي نفسه ، أو كمن يقص حلماً كابوسياً . وأسف على مابدر منه . كان يحيى سليم صديقاً قديماً له . وكانت لهذا الصديق قصة مشابهة لقصة الفيلم الذي ابتكره . وكان الرجل يعي حالة صديقه ، ويعيشها ، ويتمثلها ، فبدا كالمحمول في لجة حالة شعورية فياضة تدفقت هذيانا على لسانه ، حتى نسي نفسه ، والردهة وابنه المريض ، وعاش زمناً آخر ، عاشه لنفسه ، وبأنانية وجشع ، حتى كاد يعتذر لابنه عما أفلت من لسانه . نظر إليه فرأى حدقتي عينيه تستديران الى اليمين ، وتشيع حركة في كل وجهه . التفت فرأى البروفسور كوزين بعرجة الخفيف ، ووجهه الممتلىء القوي الملامح ، وشعره الفضي الناعم ، يقبل عليهما مبتسماً ابتسامته العريضة الحفية ، محاطاً بطبيبين وثلاث ممرضات ، قال بالانجليزية قبل أن يصل اليه ، ويمد له يده الطويلة الأصابع ـــ طاب نهارك . ياثابت . منذ دقائق ، وأنا واقف في الزاوية هناك ، أنظر اليك ، وأنت تكلم الطفل ، وهو ملق اليك باله ، وعلى وجهه ملامح تركيز صعب ومجاهد في الوقت ذاته . ماذا كنت تحدثه ؟
تردد ثابت قبل أن يقول :
ـــ عن طفل يشتاق الى رعاية والده ... عن حياة عائلة .
ـــ عظيم ، رائع ... أبعث فيه الاهتمام بالدقائق والتفاصيل أعد له الشوق الى الحياة ، دعه يأمل ليتحرك فكره وذاكرته ليكونا مملوئين لابالكبائر فقط ، بل بالصغائر أيضاً .
ووضع يده على رأس حسان ، وقال بلغته :
ـــ كيف أنت ، ياحسان ؟
أجابه الطفل بنفس اللغة لاوياً شفتيه بها :
ـــ جيد .
ـــ ارفع يدك اليمنى ...

جاهد حسان ، ورفع يده اليمنى مقوسة ، مرتخية المشط الى الأسفل ، ولاحت على وجه

الطفل آثار جهد كبير، بينما لم ترتفع اليد إلا بمقدار نصف مسطرة.

ـــ لابأس ـــ قال البروفسور ـــ لابأس... ستتمرن.

وأخذ يخاطب المحيطين به بلغة طبية هامسة، وهو يمسك باليد المعوجة، ويفرد أصابعها، فتبدو كالميتة بين أصابعه الحية الحمراء.

ـ ٣ ـ

كان هذا الرجل، ثابت حسين، يقيم في فندق منذ وصوله لزيارة ابنه. كان يشغل غرفة تطل على النهر، مقابل مصنع ترسل مداخنه أبخرة ملونة بالرمادي الفاتح والبنفسجي والأسود القاتم. وقد جلس يراقب الأدخنة ترتفع غليظة الى أعماق السماء الواطئة التي ظلت مستنيرة الى مابعد الثامنة. وفي الأسفل كنيسة صغيرة بلون مزيج بين الأخضر والأبيض والرمادي الفاتح تبدو من بقايا عصور قديمة وسط المعمار الحديث، والحياة العصرية الصاخبة بمداخن مصانعها، وأرتال سياراتها، وقوافل صنادلها المحملة بجذوع الأشجار والفحم وقوالب الاسمنت. جلس يرقب الليل يهبط غير راغب في تناول العشاء، رغم أنه كان يشعر بالجوع ومغص في المعدة. يلويها ويبرمها مثل قطعة قماش مبللة. وكان يحس بالكآبة أيضاً تخيم مثل غيوم سوداء داخل نفسه وتحاصرها وتخنقها. وكان ذهنه مملوءاً بصورة ابنه ممدداً على سريره بلا حراك تقريباً، ينظر طويلاً، تلك اليد التي تدلت الى الأسفل كعصفور ميت، حين أمره البروفسور كوزين أن يرفعها. وستظل هذه اليد شاخصة أمام عينيه الى حين لايدري، إلى أن تتحرك ذاكرته، أو بعضها، حين يملأ الذاكرة بقصص الحياة، وأشواق الناس. كان الرجل قد وضع هذا الهدف له، منذ أن جاء لزيارته، قبل شهر، ورأى الضباب يكلكل على ذاكرة ابنه، ويخنقها، فلا يكاد يعرفه، ولايكاد يعرف الحادثة التي وقعت له في العراق، وكادت تؤدي بحياته. فظل الرجل يعيش يومه في فراغ، فدى للساعتين اللتين يقضيهما مع ابنه كل يوم الى جانب سريره، يقص له أخباراً يؤلفها بنفسه، أو يخرجها من صندوق ذكرياته مضيفاً لها توابل كان يظن أنها تحرك نبض الحياة في ذهن الصبي المضطرب الذاكرة.

بدأت الأنوار تلوح في أقصى النوافذ الزجاجية العريضة للمصنع الذي يقابله، وراحت الألوان تعتم وتعتم مع تلاشي الضوء، وانسحاب النهار الى أصقاع أخرى. والليل بكل قتامه لم يحل بعد. والظهر أنه لايحل إلا في تلك الساعات القليلة التي يقضيها الرجل في نوم بائس بعد الحادية عشرة، ويغيب فيه حتى يشكه ذلك المخرز اللعين فيستيقظ في أعماق الليل، في ساعة كان يحزرها دائماً بفرق ضئيل، دقائق معدودات. كان إذا شكه ذلك المخرز، وتكلم صوت عربيد مفاجىء في مخه يقول لنفسه: إنها الساعة الثانية والنصف أو الثالثة إلا ربعاً، ثم ينظر إلى طرة الساعة، وإذا بالفرق لايتجاوز تلك الدقائق المعدودات. فيحس برصاصية الجسم، وتفكك

مفاصله ، وثقل جفنيه ، ويبدأ ذلك الطائر الأعمى ، خفاش ليالي السهاد ، داخل جمجمته يحوم ، ويرتطم بأي جزء مما يغلف حياته من ذكريات ، ويبدأ برؤية دهاليز رمادية وشوارع قائمة الزوايا ، وظليلات مخازن ، وبيوت يعرفها أو لايعرفها وأناس بسحنات مزورة لاناس يعرفهم ، يقومون بأفعال معقولة وغير معقولة ، ويضيق بهذه الصور المحمومة الفالتة ، ويبدأ الضجر من هجران النوم يتسرب اليه ، ويستيقظ تماماً . عندئذ تبدأ ذكريات أكثر واقعية تطفو على سطح ذاكرته . تأتي لاعلى التعيين ، ويربطها خيط غير مرئي بتلك الصور المتنافرة التي رآها قبل دقائق ثم تستقيم الذكرى ، وتصير أكثر حياة ومعقولية ... عندئذ يبدأ باستعادة شريط حياته .

الليلة أيضاً ترك النهار يتلاشى خارج نافذته التي كان يخاف أن يسدل ستائرها ، مثل صديق طفولته يحيى سليم ، لأنه كان يخاف الظلام والليل وكل ما هو أسود ، وغفا تلك الاغفاء الخاطفة ، حتى أيقظه المخرز اللئيم في الساعة الثالثة وخمس دقائق ، وتململ الطائر السجين داخل جمجمته ، راح الخفاش الأعمى يهيم في أودية الذكرى . ولأنه قابل البروفسور كوزين ، وهو نادراً مايقابله ، خوفاً من إزعاجه ، راح شريط ذاكرته ينفك متراجعاً الى اللحظة التي قابله في بغداد . وكان ابنه طريح الفراش ، لايبارحه . وكانت عملية جراحية قد أجريت على رأسه ، وأدخل الدماغ الى مكانه ، بعد أن أخرجت منه شظايا الزجاج الدقيقة ، وخيط . ولكن الحركة لم تعد للأطراف . كان وقتاً قاسياً جداً ، وكانت المعركة تجري رهيبة بين جحافل الموت ، وأنصار الحياة ، وكان الرجل لايستطيع أن يغفو لحظة واحدة إلا قبيل الفجر ، حين تبدأ العصافير تزقزق في الخارج . ومن شدة أعيائه وسهره طوال الليل كان يغفو على زقزقتها تضرب كالمطارق الصغيرة في جمجمته السليمة — كان يود لو تكون جمجمته هو المفلوعة — وفي بارقة أمل جديدة تعرف على البروفسور كوزين في بغداد ، أثناء زيارته ضمن وفد طبي ، عن طريق صديق طبيب كان قد بذل جهده لاجراء العملية في مستشفى الجملة العصبية . وكان البروفسور كوزين في إحدى زيارته لمدينة الطب قد تعرف على حالة حسان ، واهتم بها ، وهذا مابدا من تلك النظرة الساهمة في عينيه الرماديتين ، قبل أن ينطق فيما بعد بشجاعة : « أعاهد فقط أن أحافظ على حياته ، ولاأعدك الآن بغير هذا » . وكان ثابت حسين لايرجو غير هذا ، أن يرى ابنه بين الأحياء . وتذكر الرجل كيف خرج من تلك البناية البنية ذات الطابقين ، المطلة على نهر دجلة ، في يوم شتائي مشمس من أيام بغداد الشتائية الدافئة ، حيث تلوح الأشياء في أبعادها الحقيقية ، مستضاءة من الداخل بلونها الخاص ، حادة الزوايا ، صلبة ، متماسكة ، والهواء الدافىء المضمخ برطوبة النهر ، وعبق فواكة الشتاء ، وزفر السمك الحي والتربة البنية الهشة ، ورأى الأشجار ترقص فرحة ، والسابلة مرحين ورصينين أكثر من اللازم ، والحانات والمقاهي وقورة ، وكأنها بيوت عبادة . وكان يحدق في وجه كل طفل يمر به ، من أولئك الذين تأخروا عن الدراسة لسبب ما ، مثل حسان ، ومن أولئك الذين لم يعرفوا المدرسة بعد . وكان يود لو يهتف لهم : ان لي طفلاً مثلكم ، وهو الآن

معلق بين الموت والحياة، ولكنه سينجو، وتكتب له الحياة، وفي المستقبل القريب أو البعيد، لست أدري، سيسير في الشوارع مثلكم، ويتنسم هواء النهر، ويأخذ باقة خس من تلك العربة الواقعة تحت شجرة عملاقة، ويقضم أوراقها الريانة، ويمارس كل شيء مباح للانسان الاعتيادي. وزفر الآن ـــ وهو مستلق على فراشه في الفندق ـــ وقال لنفسه: تحقق وعد البروفسور كوزين. جاء به مقعداً، بل ولايوازن نفسه إذا وقف، ولايذكر أي شيء تقريباً من حياته الماضية، وحتى أبوه الذي جاء به كان ينظر اليه نظرات متسائلة مستفسرة، وكأنه يعده من أولئك الغرباء الذين يعينونه في اخراجه من محنته. وقال له البروفسور: عد الى بلادك الآن، وغب ثلاثة أشهر واترك الصبي لنفسه، حتى يداري جروحه، وبعدها تعال، فقد تنفع مساعدتك له... وها قد جاء.

تقلب الرجل، ونظر الى ساعته في ضوء النافذة الثلاثية المكشوفة. الرابعة والنصف. يارب القدرة، أما أن تجعلني أنا، أو تجعل الصبح يأتي قبل الأوان. ولم تتحقق أية من المعجزتين... ظل النور الحليبي يشف ويشف حتى طلعت مداخن المصنع أمامه، وبنايته والرصيف الضيق أمام البناية، ومرسى الزوارق الصغير المهجور في الجانب الآخر من النهر، وانعطاف النهر نفسه الى يمينه، وبطن النهر الرمادي الكدر مثل سمكة توشك أن تتململ. نهض ثابت من فراشه ضجراً ويائساً من إقبال النوم عليه، وحاول، مثل صديقه القديم يحيى سليم أن يربط نفسه بنبض العالم عبر جهاز الراديو الصغير الذي حمله معه من العراق، ولم يعثر إلا على أصوات لايعرف بأية لغة كانت تتكلم. وبموسيقى متحمسة غريبة على حالته النفسية وحشرجات واشارات لاسلكي، وخشخشة. عاف الراديو في ضيق، واستلقى على الفراش ثانية. وطافت في ذهنه هذه المرة، صورة صديقه القديم يحيى سليم، الذي لايعرف لماذا عنّ له أن يقص طرفاً من أخباره على ابنه محرفاً ويجعله بطل فيلم سينمائي، وكيف تصور أن هذه القصة التافهة التي كثيراً ماتحصل للمغتربين يمكن أن توقظ أشواق الحياة في نفس ابنه الهامدة، كيف دارت على لسانه كلمات الكبار... الجعة والسائل المحبب، والتوق الى جسد امرأة لرجل كانت صولاته وجولاته تنتهي كلها بالفشل. ربما كان ذلك لأنه كان يعرف معاناة يحيى سليم في سبيل الحصول على امرأة دائمة الود له. فلا يجد إلا مشاريع فاشلة. وتذكر مشروع زواجه الفاشل في بغداد، وقصصاً وحكايات مضحكة ومفجعة، طردها من ذهنه، وهو مستلق على فراشه ينظر الى الثريا البيضاء فوقه، وينتظر حلول صباح الآخرين. نظر الى ساعته فوجدها تشير الى الخامسة والنصف. بدأت بعض الشاحنات في الشارع تحته ترسل ضوضاءها اليه من خلال الزجاج. وصورة يحيى سليم ماتزال تسد عليه أفق تفكيره، وتتقلب وتتغير على رسلها، مشوشة مضطرة، عائمة، حتى استقرت الى شيء ينتمي الى الطفولة. فابتسم ثابت حسين في سره، إما لأن الساعة في الراديو الداخلي الذي نسي أن يغلقه في الليل قد دقت السادسة معلنة حلول النهار الرسمي، وإما لأنه تذكر تلك الصورة المضحكة الرعناء، يوم أن تشاجر مع يحيى سليم... كانت

هذه الصورة راسخة في ذهنه ، كلما استعاد صفحات من طفولته الباهتة ، في ليالي سهاده ، صورة فتى نحيل متوسط القامة ، له عادة أحوال عينيه عند الغضب ، وفي الظروف الحرجة . يقارب بينهما الى حد الافزاع تلك صورة يحيى سليم في يفاعته . لم تكن هيئته توحي بأنه معارك : أحديداب خفيف في الظهر ، تقوس ملحوظ في الذراعين . وذلك الحول في ساعة الغضب والشدة .

ربما كان يحس بالاهانة من مجرد النظر اليه ، فكان يغضب ويتوعد ، ولكنه كان يسوف وعيده ضاغطاً على سورة كانت تنبع من أعماق قصوى في نفسه ، ربما لشعور في النقص . ولكن سورات الشعور بالنقيصة والغضب هذه سرعان ماكانت تتلاشى في تلافيف اهتمامات أخرى . وذات مرة ، وثابت يذكرها بالتفاصيل ، صار يحيى ينفر منه ، ويتوعد ، ويقول للطلبة سيتعارك معه . وفي هذه المرة فقط لم يسوف يحيى سليم وعيده . في اليوم التالي قيل له أن العراك سيبدأ اليوم ، بعد الدروس ، وكان اليوم يوم ثلاثاء ، ولا دوام بعد الظهر . يتذكر ثابت حسين أن الدرس الأخير كان درساً للأعمال اليدوية ، وكان من بين أدواته مقص صغير ، يعرف كيف يطويه ليصير « بوكس » . وان لم يكن يعرف كيف يستعمله في عراك ، لأنه لم يتعارك قط . ولكنه في هذه المرة كان مجبراً ، لامخيراً ، والطلبة يحبون المشاهد المثيرة والمضحكة . فخرجوا وراءهما ، وتحلقوا حولهما في رهط كثيف ينتظر معركة ذات نتائج مثيرة للجدل . طلع كل واحد منهما يتبعه نفر من أنصاره المتفرجين على معركة ستكون حامية الوطيس . خلفوا بناية المدرسة وراءهم ، ومسقى الماء ، وقبل أن يلجوا الى صف دكاكين الحدادين ومصلحي السيارات توقفوا . كان يحيى سليم يسير في جانب من الطريق وثابت حسين في الجانب الآخر . نزل الأول من الرصيف ، ونزل الثاني . تقدم هذا ، وتقدم ذاك . وعندما كانا على بعد خطوتين رأى ثابت عيني صاحبه تحولان ، فعرف أنه في غاية الغضب . كان ماسكاً المقص المطوي بين أصابعه . لم ينطق أحدهما بكلمة . كانا كمصارعين في حلبة مصارعة حية تضيق عليهما شيئاً فشيئاً ، ولاتترك لأحدهما مجالاً للفرار . رفع يحيى ذراعه المعوجة ليوجه بها ضربة ، فزاغت ، ومرت قرب اذن ثابت . كز على أسنانه ، وهجم على غريمه ، وحاول أن يصل الى أنفه المنتصب ، ولكن الأنف الطويل كان بعيداً عن مناله . ضربه على كتفه بالمقص ، تلقى ضربة على الترقوة . وجه ضربة الى صدره انغرزت في بطنه . وحصل ضرب طائش عجول غير موفق ، بعضه كالرقص في الهواء . ولم ينته الا بعد أن انهك الطرفان ، وتوقفا عن القتال من تلقاء أنفسهما ، يأسا من محاجزة الأنصار لهما . واسفرت المعركة عن خدوش وكدمات ، دون أن يشعر أحدهما أنه اشفى غليله من صاحبه .

والغريب أنهما صارا ، بعد هذا الحادث ، صديقين قريبين !

— ٤ —

في المرة التالية لم يكن ثابت حسين موفقاً في سرد الحكايات على ابنه. ظلت عينا الصبي ساهمتين مغلقتين على نفسيهما بلا دفء ولا توق. وكأن الطفل كان يسمع وشوشة آلة أمامه. حاول الرجل أن يبدأ بداية أخرى.

... وفي يوم جميل، هكذا اليوم الربيعي، خرج يحيى سليم مع ابنه الذي يسميه. أنت تعرفه؟ اسمه فريد، تتذكر؟ وكانت زوجته السابقة قد خرجت الى المؤتمر وتركته مع طفله العزيز، فلذة كبده. فخرج معه الى الشارع في غاية الفرح، مثلما ساخرج أنا معك ذات يوم ميمون. كانت الدنيا ترقص طرباً، مثل راقصة غجرية، أهازيج عصافيرها تملأ الرحاب، وألوان ثيابها الزاهية ترف مع الشمس رفيف الفراشات. قاده من يده الى الكشك الذي رآه مغلقاً في صباح مجيئه، واشترى له «اسكيمو»، وركب الترام، ذلك القطار الحديدي الذي يسير بين الشوارع ملوناً بالأحمر والأصفر، ثم ركب باصاً يسير على الكهرباء. وكان الطفل يجلس قرب الشباك يتفرج على الدنيا التي تموج حوله، ويأكل بقية الأسكيمو. كانت الشمس دافئة الى حد النعاس، مثل شمس بغداد في الشتاء تماماً. هل تذكر تلك الشمس الذهبية بلون النحاس المجلو في سوق الصفافير، كيف كانت تدفىء جسمك وكأنها أمك تحتضنك، حين تكون قد طلعت من مدرستك في حي دراغ، بعد انتهاء الدرس، وسرت في الخرابة العريضة عند الشطيطة التي يتطاير منها غبار دقيق الذرات، حلو المذاق، وأنت تسير في الفراغات بين البيوت والبنايات، وفي معدتك جوع يتشمم روائح الأطعمة اللذيذة التي طبختها أمك في الصباح. وأنت تتعجل العودة الى البيت، حين كنت ترمي حقيبتك المدرسية البنية في الرواق، وتخلع حذاءك دون أن تفك رباطه، وهي عادة لك كنت أنبهك عليها، ولكن لاتسمع. كنت تضع قدماً على رأس الحذاء، وتسحبها بالقوة حتى تفلت وتقذفه في ركن الرواق الفارغ تقريباً وثم تفعل ذلك بالقدم الأخرى، وتسير حافي القدمين الى المطبخ تتشمم الروائح، وتخطف تفاحة أو برتقالة، وتضعها في فمك وسط صياح أمك لاتأكل... لاتسد شهيتك. ولكنك كنت تطمئنها بأن لك شهية ليلى والذئب. وأنا، حين أكون هناك، لأوافق على رأيك لأنك سريع الأكل، سريع الشبع، سريع النهوض من المائدة. هل تتذكر ذلك طبعاً تتذكر، وتتذكر أشياء أخرى، تلك هي حياتك ولايمكن أن تنساها. وأبوك المسكين يحاول أن يذكرك بها، ويحمل اليك العالم في

ردهتك هذه، ويحاول بقصصه المضحكة المبكية، بذكرياته المعقولة وغير المعقولة أن يجعلك تعيش خارج هذه الردهة. ويحيى سليم الذي أقص عليك قصته لايختلف كثيراً عن أي صديق قديم مرّ في طريق حياتي. جلس ابنه كما في الفيلم، عند النافذة، مثلما كنت أنت تحب الجلوس في سيارتي الايطالية القديمة، وتقرب وجهك من النافذة. حتى كنت أخاف عليك أن تفتح الباب وتقع ــ سكت الرجل دقيقة عاضاً على لسانه، ولكنه بلع ريقه، وتابع كلامه ــ ومن أجلك اشتريت باباً جديداً للسيارة، وأصلحت القفل حتى... حتى...

وبلع الرجل ريقه مرة أخرى. ان الكلام لايستقيم له اليوم. ظل يحدق في الفراغ بذهول وقتاً طويلاً، حتى زاغت عيناه، والتقت بحدقتي ابنه المصوبتين نحوه. وقرأ على وجهه استفساراً لجوجاً، قنوطاً أو نفاد صبر. فأسرع الرجل يقول:

ــ نعم، نعم... سارت السيارة بهما الى آخر الجادة العريضة، ونزلا بالقرب من المنتزه، وعبرا الجادة متلازمين. وكان مدخل المنتزه الخلفي أمامهما. وقرب المدخل عربتان لبيع الدوندرمة. نظر الطفل اليهما متلمضاً. قال له أبوه.، أو عمه كما سماه في الأول: لاتستعجل، سترى في داخل المنتزه عربات دوندرمة في كل زاوية. انحدرا على تربة هشة ناعمة، رويت حتى الشبع من ثلوج الشتاء الماضي. وأنت تعرف، يابني، قصة الثلج هنا، يهبط طوال الشتاء كالمن من السماء ولعلك تتذكر حين راحت الطائرة تهبط بنا قبل شهور، كيف اتكأت على نافذتها المدورة، ورحت تنظر الى الأرض المكسوة بقماش أبيض، ولاتبدو إلا مستطيلات ومربعات الغابات الداكنة يتناثر عليها الثلج كالطحين أو الملح، والسيارات تبدو كالنمل تدب على طرق مستقيمة. أنت تذكر كل هذا بالتأكيد، لأنني كنت أنبهك على كل شيء، حتى نبهتك الى بناية كانت تبدو كزرافة ترفع عنقها الى السماء، وقلت لك: هذه هي الجامعة... تتذكر... تتذكر...

وانتزع الرجل من ابنه هزة خفيفة من رأسه.

ــ تتذكر، بالتأكيد. طيب، مشيا على تلك التربة الهشة، وكأنهما يمشيان على مطاط. ورأيا الناس صفوفاً جالسين على مساطب، وراء حاجز خفيف. هذه دار للسينما، مقابلها مدرسة لتعليم الرقص. ثم انحدرا على منحدر خفيف محاط بأشجار عملاقة.. الاشجار هناك كالمظلات الخضراء مبثوثة في كل مكان، من مختلف الأحجام. وبعد جولة قصيرة ركبا دولاب الهواء الكبير. والظاهر ان ذلك بطل الفيلم، أقصد يحيى سليم، لم يكن شجاعاً جداً، فحينما كان دولاب الهواء يقف في أعلى نقطة، كان الطفل يرقص على المقعد، ويخفق قلب يحيى سليم رهبة كالشهقة. ومن يدري؟ ربما هذا الرجل لم يتعود على هذه الألعاب الضخمة في الطفولة. وحين كان الدولاب ينحدر كان قلب البطل يغوص في صدره في حين كان الطفل يطبطب على أرض

المقعد فرحاً ونشوة. وكانا يريان رؤوس الأشجار تقبل عليهما، وتحرك أغصانها وسائد لهما، والأرض الوديعة تقترب باتزان، مثل أم هادئة الأعصاب تستقبل بنيها في الأحضان. وطافا في كل الملاعب، وكلما اشتدت فرحة الطفل وهياجه كان يحيى يتناسى غوصات قلبه الخافق، ويستمد الشجاعة من جرأة الطفولة. وانجرف الأب مع أفراح ابنه حتى النهاية. وأخذ شيئاً فشيئاً يشعر بأنه يطير مع ابنه كما يطير الناس في الأحلام. وحين هبطا من دولاب الهواء سالمين قال الطفل:

ــ عمو، كنت تشعر بالبرد في الدولاب؟

ــ لا، باابن الأخ، كنت أشعر بالخوف.

ضحك الطفل من عم خائف لاينفع لشيء، وقال:

ــ كأنك لم تركب دولاباً عندما كنت طفلاً.

قال له يحيى:

ــ كانت لنا دواليب. ولكن ليس بهذا الحجم.

قال الطفل وهما يسيران في رصيف منسق بأزاهير من مختلف الألوان:

ــ وماذا كنت تلعب، عندما كنت صغيراً؟

ــ ماذا كنت ألعب. كنت ألعب الكعاب.

ــ كعاب؟ ماهي الكعاب؟

وصعب على الرجل أن يشرح له ماهي الكعاب، ولكنه راح يمثل كيف كان يلعب الكعاب، حين كان صغيراً. احنى ركبته اليمنى، ودفع رجله اليسرى الى الوراء، ودور شيئاً وهمياً بين سبابته وابهامه، تماماً كما كان يفعل وهو صغير، دون أن يخجل من الناس الذين بدأوا ينظرون اليه بغرابة وحب الاستطلاع، وقذف «الكعب» الخيالي بكل قوة حتى أن يده اصطدمت بأنفه. وضحك الطفل ضحكة رنانة، والآخرون أيضاً ضحكوا مجاناً. ولم يزعل يحيى، فتلك فرحة كبيرة أن يسلي ابنه.

استأنس الطفل، فقال:

ــ طيب، وماذا كنتم تلعبون أيضاً:

ــ كنا نلعب الدعبل.

ــ الدعبل؟ ماالدعبل؟

ــ كرات صغيرة ملونة، ومزركشة، ينيشن عليها الأطفال لتصيب أحداها الأخرى.

فرح الطفل، وقال:

ــ لطيف... وبعد؟

ونسي يحيى ماذا بعد، ولكنه تذكر في اللحظة الأخيرة، فقال مسروراً، وكأنه اكتشف

عملاً بطولياً كان يقوم به في الطفولة :

ــ **وكنا نطير طيارات الورق بذيول تتلوى في الهواء كالأفاعي .**

وهكذا ظلا يتطارحان لعب الطفولة ، وقد رأى الرجل وجه الطفل يتألق ألقاً نورانياً ، وكأنه تصور نفسه يلعب لعب أبيه أو عمه . ووصلا الى مطعم على ضفة البركة ، فرأيا البط أو الوز يعوم حول خنين من الخشب وسط البركة . وقال له : ماذا تحب أن تأكل؟ قال الولد : دوندرمة . قال له : الدوندرمة فيما بعد . يجب أن تأكل أولاً لتسند معدتك هذه . وطبطب على بطنه . واختار له ألذ مايتصوره من الطعام ، وأكثره تنوعاً . ولم ينس المشهيات . وجلسا ينتظران الطعام . قال الطفل فجأة : أريد أن العب دعبل . قال له : سأشتري لك حفنة منه ، سأشتري من بغداد ، إذا كان مايزال موجوداً هناك . ولكن واياك أن تحسبه حلوى فتضعه في فمك ، كما فعلت أنا مرة ، وكدت أختنق بدعبلة وقال :

ــ **وأستطيع أن أصنع لك طيارة ورق،** فيما اذا قبلت أن تبقى معي ، وأطيرها لك في العرصة خلف البيت ، وأضعها في يدك . قال الطفل : كيف ستطير بها . قال : لا أطير بها ، بل أطيرها في الهواء . امسكها بيدي من خيطها ، واركض بها على عكس الريح ، وازيد طول الخيط شيئاً فشيئاً فتزداد ارتفاعاً في الهواء حتى تصل الى نقطة تستقر فيها تقريباً . وعند ذلك أعطيك الخيط . اتفقنا . وجاء الأكل ، وانغمسا فيه .

وسمعا صوتا وراءهما ينادي باسم حسان . التفت الرجل فرأى ممرضة مقبلة عليهما من الباب المفتوح . جاءت مشرقة الوجة بابتسامة ، صبوح ، فتاة في عمر الزهور ، منورة البشرة بياضاً يشف عن حمرة الصبا ، لامعة العينين . وبعد سلام خاطف تناولت يد حسان ، وقالت مخاطبة الرجل :

ــ سآخذ حسان الآن للنزهة . مارأيك ، ياحسان؟ سنتنزه الآن في ردهة التمارين الرياضية الطبية ، وبعد ذلك سنخرج في نزهة في حديقة المستشفى ، وبعد ذلك في الشارع .

قال الرجل :

ــ خذيه في نزهة في منتزه ... انه يعرف الآن كيف يتجول في ارجائه ... سيدلك بنفسه على الدروب والألعاب . صحيح ، حسان؟

وبرقت عينا حسان ببريق حبيس . وعندما خرج الرجل الى الشارع رأى ، في أفق خياله ، حسان بقامته الطويلة يسير بين الناس متأبطاً ذراع الممرضة الحسناء .

ـ ٥ ـ

هذه المدينة الحجرية جادة أكثر من اللازم، ومستقيمة أكثر من اللازم. صممت لاناس يكون البيت مأواهم الأول والأخير، بعد عمل يوم طويل. ولأنه شرقي تعود أن يقضي شطراً من استراحته خارج البيت، تعود الرفاق والمقهى والحانة والسير في الدروب الضيقة وحلزونيات الحياة العلنية والسرية، فقد كان يحس بشيء يفتقده في هذه المدينة المغلقة المكشوفة، ولاسيما وانه في حالته العاطفية الراهنة، والمختصرة الى تلك السويعات التي يقضيها الى جانب سرير ابنه. كان يحتاج الى مايستند اليه، ويبدد قتام وحدته. الشوارع عريضة، والبيوت عالية، مكعبات ومستطيلات من الحجارة والاسمنت والزجاج، والفراغات هائلة، والمسافات جبارة يتيه فيها الانسان الوحيد، إذا لم يكن له دور في هذا الزحام الهائل العجول الراكض الى غايات شتى. يحس بالضآلة وانعدام الوزن. فالناس هنا لهم افراحهم الجماعية، ومتعهم الجماعية، واحزانهم الجماعية. ولأن له مشكلته الخاصة غير المرتبطة بأي سبب بمشاكل الآخرين وقضاياهم، فقد كان يحس بالانفصام، مثل قشة محمولة في تيار من المياه غير المرئية التي تحرك الناس في الشوارع، وتجعلهم يتحركون بهذه السرعة، أو يتجمهرون على أبواب المخازن والمقاهي والمطاعم التي هي نفسها، من حيث المساحة والزحام، جزء من هذه المدينة المغلقة الماردة الأبعاد. كان وهو يسير في شوارعها، يحس وكأنه نملة تدب على ظهر فيل راكض. ولكنه وجد سلوى في جمع شتات صورة قديمة عنها، يوم جاء اليها وعاش فيها لستة أشهر متدرباً في أحد معاهدها، قبل سنين عديدة. ذهب الى تلك البناية الحمراء الجهماء التي تعلم فيها تهجي الكلمات، وبحث عن المطعم الطلابي الذي كان يأكل فيه. جدد من الداخل، واستبدلت المناضد والكراسي بأخرى لامعة من البلاستيك. بحث عن المخازن التي كان يشتري منها طعامه، وأطل على مخزن بيع السمك الذي كانت تعمل فيه بائعة رائعة الجمال. لم يجدها. وضحك من نفسه، وكأنه، بعد هذه السنين الطويلة، سيجدها كما خلفها بوجهها الغض، وعينيها الغمازتين. وركب الترام بمقاعده الشبيهة بمقاعد مقهى متنقل في الهواء الطلق. رأى أجزاء كثيرة من العالم القديم تمتد أمامه ممزوجة بأشياء جديدة. وقف أمام بناية سامقة تزين بناية الشارع الرئيسي وحاول أن يتذكر هل كانت هذه البناية من قبل. ولم يتذكر، وقال لنفسه: ربما هي في مكان تلك البناية العجوز القوية التي رأى كرات الهدم تعمل فيها. وكان يمر بها صباح مساء، ويعرف كل حوانيتها، وفي أحد الأيام رآها خاوية، أفرغت، وجردت من لافتاتها ونزعت أطر الشبابيك وبعد ذلك رأى

كرات حديدية ضخمة تضربها ضرباً مقصوداً، وتحيلها الى قطع من الحجارة الصلدة. وقف يتفرج على تلك الآلة الجهنمية الهائلة تقبل من بعيد، وترتطم بالجدار لتقلع جزءاً صغيراً منه. كانت البناية ماتزال قوية، ولاتريد أن تستسلم للهدم. كانت تريد أن تعيش. كانت تصارع وتتشبث بالحياة مثل انسان حي. ولماذا لاتكون حية وقد تشبعت جدرانها بأنفاس انسانية طوال قرن من الزمن، ربما، شهدت أناساً يولدون وأناساً ينقلون الى مثواهم الأخير. ولربما رأت مشاهد حلوة، وأسراراً من الحياة الانسانية تعز عن الوصف، وتريد أن تحتفظ بكل ماشهدته. تذكر ثابت حسين انه وقف آنذاك يرى تلك العملية المخيفة، الجريئة، عملية الهدم، ويقول لنفسه: آه، ماأقساها! والآن، وهو يشهد هذه البناية السابقة يقول لنفسه: ليس المهم أن تعرف كيف تهدم وبأي شيء تهدم، ولكن المهم أن تعرف كيف تبني وماذا ستبني في مكانه. وابتسم ثابت حسين لنفسه، ومد بصره في امتداد الشارع أمامه، وتحول ابتسامه الى دغدغة فرح مقبور. ربما تذكر تلك الصبوات، الشبيهة بصبوات صديقه يحيى سليم في هذا الشارع العتيد، وحماقاته الأولى، وتدفق الى ذاكرته قوله الشرير: الوحدة وسط محيط من الناس تجعل الانسان يدمر نفسه ليغيب الآخرون عنه. ولم يجد ثابت حسين الآن مايبرر هذه الحكمة القاتلة. صحيح أنه يشعر بالوحشة والوحدة الآن، والتدمير أمر في ذاكرته كعملية استئصال مؤلمة، إلا أنه كان يتلقى ضربات أكتاف الناس في هذا الزحام الهائل بالفة ودية. جرجر نفسه، بعد تعب التجوال، ويمم صوب ذلك المقهى الذي كان يعرفه، أيام زمان، حيث تجتمع فلول المغتربين ليأكلوا، ولكنهم، في الحقيقة، ليحتسوا الخمرة. صعد الدرج الرخامي، واستقبله البار بطاولاته المستديرة السوداء. لم يجد أحداً في قسميه الشرقي والغربي. صعد درجاً آخر الى قاعة مطعم هائلة. فلا بد أنهم هناك يحتسون الخمرة تحت حراسة العذارى في سقف المطعم العالي محاطين بأعمدة بنفسجية ضخمة كالمردة. ووجدهم هناك، أو بالأحرى سمع أصواتهم العالية الناشرة. التفت فرآهم. جماعة كبيرة ممن يعرفهم ولايعرفهم. كان صالح جميل يتوسطهم. ولم يكن يحيى سليم معهم. دنا منهم بخطى متكاسلة تزداد فتوراً كلما اقترب منهم. ولكن قوة غامضة كانت تسيطر على رجليه، وتسحبه اليهم. كان أحدهم يقرأ في جريدة، والآخرون يعلقون عليه.

التقط سمعه:

ـ اذا كنت من شاربي الخمرة، فانقص من عمرك عشرة أعوام.

قالت أصوات:

ـ نقصنا، والأعمار بيد الله.

ـ وإذا كنت تدخن فنقص من عمرك اثني عشر عاماً.

ـ وكيف سنستغني عن السيكارة. الدنيا سيكارة وكأس طيب، لنفرض نقصناها.

ـ إذا كنت تسرف في الجنس فنقص من عمرك خمسة أعوام.

ـــ طيب ، نقصناها مضطرين . الجنس بعد الثلاثين متعة لاتعادلها متعة .

ـــ وإذا كنت ...

ـــ ماذا إذا كنت ... كفاية ...

تبرع أحدهم ليقول :

ـــ اذا كنت خارج الوطن ... فنقص من عمرك ...

ارتفعت اصوات :

ـــ بالعكس ... بالعكس ...

قال آخرون متحفظين :

ـــ هذا يتوقف على الوطن ... إذا كان العراق ...

قال قارىء الجريدة :

ـــ لاتدخلنا في ايراد ومصرف .. (وأخذ يقرأ في جريدته) وإذا كنت من المصابين بالأمراض المزمنة ...

قاطعه صوت لجوج :

ـــ كلنا من ذوي الأمراض المزمنة ... حب الوطن من بعيد ...

قال صالح جميل بصوته الناعم :

ـــ اواش ! (كان يكتب في منديل ورقي أمامه) طلعت لحد الآن مديوناً لله عشرة أعوام .

ـــ ليش ، أشكد عمرك ؟

ـــ ولد في أزمة الثلاثينات .

ـــ لا ، والله ، في بداية الحرب الباردة ...

وصاروا يضحكون ، ويضجون ، ويقرعون الكؤوس ، ويحركون رقابهم في الياقات الضيقة لامتلائها ، ووجوههم محمرة لزجة ، وعيونهم محمرة دبقة . ورأوا رجلاً يطل عليهم ، فصمتوا ، وفي الصمت المباغت رفع صالح جميل عينيه المتقلصتين ، بعد أن أزال عنها القذى الوهمي ، وعلى عادته القديمة ، هش وبش .

ـــ ها ، هذا ثابت ، أهلاً ، استاذ !

ونظرت اليه عيون مختلفة التعابير مغشاة بضباب الخمرة .

قال ثابت :

ـــ جئت أبحث عن يحيى سليم ، لعله يشاطركم المائدة . لم أره منذ أيام عديدة . وقال صالح جميل :

ـــ ولاتبحث عني؟
قال أحدهم بغل:
ـــ يحيى سليم ممنوع طبياً من معاقرة الخمرة...
قال آخر بلهجة أخف عداء:
ـــ مشغول بجمع الفلوس... ولكنه لن يجمع فلساً واحداً.
ثنى ثالث:
ـــ من الشغل الحلال.
قال رابع:
ـــ بينما هناك من يقفزون قفز الجبابرة...
صاح الأول في غيظ :
ـــ قفز الحمالين...
ـــ عبر الحدود...

وضرب على حافة المائدة. وجد ثابت حسين نفسه في وضع محرج، أنقذه منه صالح جميل بأن نهض من مكانه، وتخلى عن كرسيه:

ـــ استرح، تغد معنا...

ولم يجد ثابت الجو مشجعاً. اقترب منه صالح، وسار به نحو فسحة الدرج، وهو يقول في الطريق:

ـــ يحيى سافر للراحة والاستجمام. لم يعد يحضر مجالسنا...
ـــ لم يقل لي حين قابلته...
ـــ عثر على تذكرة عاجلة، فسافر. (وكان يتكلم عن يحيى سليم بود) قال:
ـــ لملم نفسه، وانقطع عنا... تفضل أنت، اقعد...
ـــ شكراً، الجو غير مناسب...
ـــ أعرف.. هل تريد أن نذهب الى مكان آخر؟
ـــ ولكنك قاعد بين « خرفان ».

تذكر ثابت مقولته القديمة... وضحك صالح ضحكته المكركبة وغطى فمه في باطن يده، كما كان يفعل من قبل، خوفاً من وجع الأسنان أو تشقق الشفة. قال صالح، بعد أن نظف حنجرته بسعلة:

ـــ خرفان تختلف عن خرفان.
قال ثابت بمداراة:
ـــ المهم ندامى.

قال صالح جميل، وكأنه يشير الى عهود قديمة جداً.
ـــ أوه، ذهبت مجالس الأنس تلك، هل تتذكرها؟
هز ثابت رأسه، فمضى صالح يقول:
ـــ لم يعد شرب الخمرة لذة، بل استمرار لشيء تعودت عليه، وإذا انقطعت عنه شعرت بفراغ هائل... ماذا تفعل بهذه الدنيا الناشفة، إذا لم ترطبها بشيء؟ الروح تختنق أو تجف هموم قديمة بلهجة جديدة. قال ثابت:
ـــ لكل عمر مطاليبه.
ـــ والنفس الامارة بالسوء؟
ـــ الارادة، الارادة، يابو مدين...

وضحكا، وتذكرا الماضي القديم، حين جاء بو مدين هنا، في أعقاب ٦٧. استقبله الطلبة العرب والمغتربون في المطار بهتاف: « الحرب، الحرب، يابو مدين ». وظل هذا الشعار راسخاً في أذهانهم، يتلوّن حسب المطاليب، والحالة النفسية، وتصاغ منه تخريجات متنوعة. استحثه صالح، بولعه القديم بالاغراء، على الذهاب الى مكان آخر. لقد كان ملولاً.
ـــ لنذهب الى رسامنا مظهر... أنت لم تره حتى الآن. صار له مرسم ومكان محترم. نأخذ زجاجة، ونذهب اليه، ونتخلص من هؤلاء الخرفان.

كان نداؤه حنوناً متوسلاً يحمل ماكان يحيى سليم يسميه قديماً « النداء المتدبق الى الموبقات ». وكان يبدو وديعاً مستسلماً للمغريات، ضائعاً يبحث عن قشة. نظر ثابت اليه فرآه يضع يده اليمنى على راحة يده اليسرى، ويتمعن في أصابعه. تذكر ثابت أنها عادة أخرى قديمه له، تستأسره كلما دخل في دهليز أفكاره. عاد الى إلحاحه:
ـــ ها؟ هل تذهب. سترى صوره أيضاً.
قال ثابت متراجعاً:
ـــ ومن أدراك أنه في البيت؟
ـــ في البيت بالتأكيد. يرسم لوحات حسب الطلب...
وجداه في البيت فعلاً. استقبلهما بترحاب، ولكنه، حين رأى الزجاجة، برقت عيناه السوداوان، وقال لصالح:
ـــ الله يلعنك. ورائي شغل...
ـــ لاتشرب أنت...
ضحك مظهر وقال:
ـــ لطيف أن تكون لنا هذه المناعة. نرى الآخرين يشربون، ونحن نجلس بهدوء أعصاب.

وضحك مرة أخرى. كان المرسم غرفة مربعة الشكل، تغطي اللوحات جدارين منها، وفي الضلع الآخر مخدع فيه سرير. راح ثابت يحدق في لوحات تسودها الألوان الباردة. الرمادي والأخضر الشاحب، والأزرق الكدر. وخيل اليه أنه يدخل عالماً دهليزياً يختلف كلياً عن جو المرسم الأنيق، المرتب بذوق، والمترع بالضوء، والمترف الى حد كبير. كانت عذراء ميكائيل انجيلو مرسومة عارية بلون رمادي، على هيئة امرأة من زماننا، خلف قضبان كقضبان السجن تخترق ثدييها المتدليين. قال الرسام:

ـــ ها؟ أراك تحدق بفزع؟

كان يصف الأقداح على المائدة الصغيرة المركونة على ضلع من الجدار الفاصل بين ركن النوم والباب. قال ثابت:

ـــ مخيفة ومأساوية.

ـــ هذه حياتنا مخيفة ومأساوية... تشوه حتى الجمال والبراءة...

ـــ ربما لأن عواطفنا حبيسة لانجد المجال للتعبير عنها!

ـــ كل شيء حبيس في هذا العالم ـــ قال الرسام، وكأنه يلقي موعظة ـــ انظر اليها. انها وراء قضبان. محروسة من آخرين لاتحبهم. وهم أيضاً لايحبونها. ولكنها ـــ ككل شيء جميل ونادر ـــ مورد للربح. وانها تحت حراستهم. والابتسامة؟ هل ترى الابتسامة؟ انها خداع. الجيوكندة لاتبتسم، لأنها تشعر بأنها سجينة ومستغلة تباع لقاء أجور زهيدة، كأية مومس في المبغى العام الذي يريد الآخرون أن يحولوا عالمنا اليه.

كان يتكلم بحماس وبقدرة على الفات النظر الى مغزى لوحاته. وكانت هناك لوحة أخرى كبيرة تمثل امرأة رسم جسدها البغي الفتي باللون البرنزي الكدر، مطروحة قرب شجرة مقطوعة، وقد خرجت من ثدييها وبطنها أغصان رمادية عارية كعروق من الحديد أو الاسمنت. قال ثابت مسترسلاً مع تفسيراته:

ـــ جمال آخر حبيس.

ـــ بل قتيل... انظر الى هذا الجسد الريان المترع بالدم الحار. أنه مجندل سميت هذه اللوحة «الغابة القتيلة»... كل عناصر الجمال تنتهك.

كان هدوء أعصابه لاينسجم مع مايقول من متفجرات. كان يبدو بارداً لاأبالياً. يعامل رسومه كطيور في أقفاص لاتخرج للهواء الطلق. سأله ثابت:

ـــ ماذا تريد أن تقول من هذا كله؟

ـــ هذه قناعاتي مسطرة أمامك...

وكانت غابة قناعاته تتحلزن على الجدران، ويصعب فهمها. ولكن هل من الممكن أن

تعرف قناعات الفنان بسهولة، كما نعرف أن البيض من الدجاجة؟ وكان هناك، بالفعل، بيض كثير، مفقوس وغير مفقوس. وكانت هناك قواقع مختلفة الأشكال، نتوءات وألوان لها ظلال صلبة يمكن أن تلمس باليد. وكانت هناك امرأة عارية جالسة على الأرض محتضنة ركبتيها بذراعيها. وهي تنظر الى أمام. وكانت هناك قاطرة قديمة الطراز كتب عليها رقم ١٣، ووضعت على قماشة بيضاء تحتها سكين. سأله ثابت عنها، فقال باقتضاب: انها الرحيل، الكفن. ثم سأله عن النساء المتكررات فقال بابهام:

ــ المرأة شيء حقيقي غرز مخالبه في أعماق الرجل.

ثم راح يشرح بعبارات مقتضبة:

ــ وتسألني عن القوقعة... انها رمز الانغلاق الذاتي. الوجود. العزلة بمعناها الذاتي، وسط صخب الحياة الكامل حولك. الاغتراب! لكل قوقعته الخاصة يلجأ اليها في أيام الحزن أو الضيق، بعيداً عن الآخرين.

ولم يفهم ثابت الكثير من تلميحاته. فخرج منه مثقل النفس، وبحالة بوهيمية هالعة. ولكن كان يصعب عليه أن يذرع الشوارع بلا هدى. فعاد الى فندقه في سعي حثيث الى أن يخلو الى نفسه. قوقعة دافئة فيها جهاز تلفزيون، وتلفون صامت إلا إذا دق خطأً. جلس على الكرسي الأحمر الدوار، واداره الى النافذة، وواجه بناية المصنع ذي المداخن العشر، والكنيسة، والنهر، وسير السيارات كالسلاحف المرعوبة، هي الأخرى قواقع ملونة. وكأن رأسه غير صاف، فأغمض عينيه، وترك نفسه يحمل من على المقعد في دوامات الأثير داخل رأسه. وطافت أمام خياله قواقع وبيض مفقوس وغير مفقوس، ونساء عاريات، مصروعات وداميات، وقطارات منطلقة الى أقصى سرعتها الى حيث تتزوبع الظلمة.

في تلك الليلة حلم بأحلام مزعجة مليئة بالقواقع والبيض المفقوس. وفي وسط الليل، قبل أن يستيقظ استيقاظه المفروض، تحولت القواقع الى سراطين تتراكض في الشارع تحته، وتحول البيض الى جماجم مطروحة على الأرض، مدماة ومفلوعة، لمح من بينها جمجمة ابنه حسان. هب فزعاً، وأحس بالدم يفور في قفاه، ويطن طنيناً مقشعراً قرب اذنه. انتقل من السرير الى الكرسي، ماسكاً رأسه بين يديه. استمر الطنين يهزج في طبلة أذنه بذبذبات معدنية متسارعة. ارتعب. وتراءى له الموت رهيباً في هذه الحجرة البعيدة المغلقة من الداخل، وتصور بشاعة مثل هذا الموت، وبأنه على سرير المرض في انتظار مجيئه في اليوم التالي، وزوجته متلهفة لسماع أخبار ابنها، ومشاريعه كلها ناقصة لم يتم منها مشروع واحد، فزع، وانتفض على الألم الذي يطوق رقبته من الخلف، صاح بصوت غير مسموع: لا، لن أموت. ولن اترك كل هذه الأشياء الناقصة. سار في الحجرة مغالباً الألم، مديراً رقبته يميناً ويساراً، مشمراً ذراعه في الهواء، واتجه بكل روحه الى

العالم خارج تلك النافذة المضلعة. كل الأشياء في الخارج حقيقية وثابتة، وليس عليها أي أثر لموت مقبل. المصنع بشعاره العريض: « المجد للعمل » والنهر يدفع مياهه بصمت وصبر ولامبالاة. والكنيسة الرمادية الصغيرة تلوح بيضاء كالبيضة... أوه ـــ قال لنفسه ـــ لاتتذكر البيضة، قل كالدرة، كالقلعة تتحدى الزمن. كل شيء حقيقي ورصين، لايقبل الجدل. حاول أن يفتح النافذة، ولكنه لم يعرف كيف يفتحها. تذكر أنه ينسى دائماً أن يسأل المسؤولة عن الطابق كيف يمكن أن تفتح النافذة... سيسألها غداً. ومده ذلك الشعور بالارتباط بالغد، وبأناس الغد، وبابنه وعائلته والعالم. وأحس بأن رقبته تتحرر من آخر براثن الألم. استلقى ثانية على السرير، ووضع يديه المتشابكتين تحت رأسه، وتفرس في السقف مستيقظ الحواس تماماً. ثم شعر بخسارة عظيمة لأن الوقت ليل، والليل معد للنوم. اغمض عينيه مستسلماً للرقاد بكل جوارحه. ولكنه اغتاظ، حين لم يقبل عليه النوم، قال لنفسه: إن فترة اليقظة المفروضة جاءت هذه الليلة مبكرة. وسخط على نفسه التي لاتستجيب له... أعصابه أعداؤه... كان يقول ذلك لنفسه دائماً... تلك الشبكة المبثوثة في كل جسده تتمرد عليه في ساعة الضيق، حتى يتمنى أن يستل كل عصب في جسده، مثلما تستل كل سلة مغروسة في لحم سمكة. اغمض عينيه ثالثة ورابعة، وحاول أن لايفكر في شيء. حاول أن يجمد، ويفرغ نفسه من كل احساس. ولكن الصور كانت تتوافد على فكره كالنعاج المنحوسة... قواقع... بيض مفقوس... جماجم... وجمجمة ابنه بينها. طردها من ذهنه. حاول أن يفكر في نساء عاريات كتلك المرأة التي رآها في لوحة الرسام عارية مطروحة بلون النحاس... بلون الدم... بلون الجماجم المفلوعة... وتراءت له الجمجمة إياها مرة أخرى. قال لنفسه: لو كنت قد رأيتها بالفعل لجننت. كان يفكر بشكل مستقيم، متيقظ الحواس. لامفر من هذه اليقظة الصارمة. كان قد سمع أخاه يقول لأخته، وهو يظن أنه لايسمع: دخلت فرأيت حساناً مرمياً على الأرض في مستشفى الطوارىء. صرخت بهم: هذا الطفل سيموت، لماذا تتركونه مفلوع الجمجمة بهذا الشكل؟ ورحت وجئت، ونزلت وصعدت حتى نقلوه الى مستشفى الجملة العصبية. ذهب ثابت الى هناك. سمع الخبر، فركب سيارة أجرة، لأن أعصابه لم تكن تتحمل سياقة السيارة. وكانوا يبحثون عن دم من صنف دمه النادر، كما قالوا له. قال ثابت: خذوا دمي... امتنعوا، حين رأوا حالته المضطربة. ولما يئسوا من العثور على الدم المطلوب، اضطروا الى نقل الدم منه... وبعد ذلك شعر الأب بدوار، وانهيار في قواه... ظل ساعتين ممدداً على السرير حتى استعاد قوته... والآن أيضاً لم يقبل عليه النوم إلا عند اطلالة الفجر...

في يوم حزيراني فاتر النسمة عاد يحيى سليم من منتجعه. كان ثابت حسين قابعاً في حجرته يفكر: لماذا أجلوا اجراء العملية لأبنه؟ ألعل حالته الصحية لاتتحمل العملية؟ لعل هناك محاذير أخرى، لعلهم خافوا من فشلها، لعل...لعل... لعل... وصار يلج دهاليز الظنون حتى دق

جرس التلفون فرفع السماعة حالاً. كان المتكلم يحيى سليم. واتفقا على موعد، والتقيا في مطعم صغير لايؤمه العراقيون... وأين يلتقيان في هذه المدينة الخالية مقاهيها إلا من الطعام والمشروبات الكحولية؟

كان يحيى سليم ملوح البشرة، بل مسوداً. ولربما هذا الانطباع مبعثه شاربه الأسود، والسميك المتدني من الجانبين. وكانت عيناه تتألقان ببريق الراحة، والتقاطيع مشدودة وممتلئة، والأسنان بيضاء. سأله:

ــ كيف حال ابنك؟

ــ بتحسن.

ــ هل خروجه من المستشفى قريب.

ــ لاأظن. قالوا لي سيجرون عملية أخرى على رأسه.

ــ عملية؟

ــ لتغطية الدماغ.

سهم يحيى سليم، واستند على المائدة بذراعه الطويلة المعوجة الى الخارج، وزفر زفرة طويلة، وقال كالهامس:

ــ مصائب! أنا أعرف رجلاً أصيب ابنه في حادثة، فتضررت أحدى كليتيه، واضطروا الى قطعها... تصور صبياً بكلية واحدة.

ــ نعم... وفي المستشفى التي يرقد فيها حسان حالات تجعل شعر الانسان يشيب.

ــ وهل يهون ذلك على الانسان المنكوب؟

ــ لا. المكروه مكروه على أية حال.

وتبادلا النظرات، وكأن كل واحد فسر الجملة تفسيره الخاص. وقرأ كل واحد منهما تأريخ الآخر، واسترجع في ذهنه نبذاً من حياته... في لحظات صمت قصيرة يستطيع العقل البشري أن يقطع مسافات هائلة من الزمن. تنهال الصور وتختفي لتعقبها صور أخرى. الزمن والعقل يلتهم أحدهما الآخر. وفجأة عاد الى ذهن ثابت حسين ماقصه على ابنه عن حكاية الابن الذي لايعرف أباه سأل:

ــ وأنت... ألم تتلق أخباراً من وراء الجبال؟

نظر يحيى اليه نظرة ثاقبة، وكأنما يريد أن يستشف بها هل هو يسخر منه أو يناكده. لم يجد شيئاً من هذا في وجهه. قال مبتعداً عن الماضي:

ــ لاتشر الى ماض قديم... راح وانقضى.

حاول ثابت أن يبرر سؤاله بقوله:

ـ لعلك تستغرب أو تستاء إذا قلت لك أنني قصصت على حسان ابني قصتك مع ابنك وزوجتك.

قال يحيى كالهامس:

ـ كأنك موكل دائماً بنشر هزائمي.

قال ثابت متراجعاً:

ـ في البداية أردت أن أقص عليه حكايات الذين استطابوا الحياة في الغربة، ثم وجدت نفسي أنفرد بأخبارك، وجعلتك بطل فيلم.

لم يبد الغضب أو الضيق على يحيى، ولكنه ضحك ضحكة مهشمة. وهم بأن يقول شيئاً، بأن حرك صدره الى الأمام، ولكنه ارتد في اللحظة التالية، واتكأ على ظهر المقعد كالمنهار قائلاً:

ـ لم تجد شيئاً آخر مسلياً تقصه عليه.

ـ لم أجد في ذهني، أو انسقت اليك انسياقاً لكثرة ماتبادلنا الحديث.

هل تذكر كم كنا نتحدث عن ذلك؟

ـ كل جرح موجع في البداية... ثم يندمل.

ـ أي جرح أوجع من أن يناديك ابنك: عمي؟

ـ لاتعجبني لهجتك... كأنك تتشفى.

ـ لا، والله... ولكنني ذاهل وغير مصدق.

مط يحيى سليم شفتيه، وقال:

ـ لأنك تقيس الحياة بمساطر... الحياة مملوءة بالمطبات.

عادا يتذكران مامضى بنوع من المحاولة للخروج من مطبات الحياة، ولكن يحيى أحول عينيه بعد سهوم مفاجىء، وقال:

ـ هل تتذكر كيف انقلب حفل العرس الى مأتم؟

ـ أتذكر...

وزاد الحول أكثر وبدت بشرة وجهه تتقسى وتسمك. وبدأ مفصولاً عنه أو كملقن مسرحي.

ـ في البداية جلب لي أصدقائي باقات زوجية، وهي عادة توضع على القبور. ثم بدلاً من أن يغنوا ويرقصوا راحوا يتناقشون بالسياسة، ويتشاتمون... تتذكر؟

ـ أتذكر كيف صعد صالح جميل على المائدة يخطب... الحرب، الحرب، بابو مدين.

هز يحيى سليم رأسه ندامة. وعاد الى مونولوجه الداخلي، من تحت صندوق الملقن:

ـ وكانت الى جانبي تبكي بدموع غير مرئية... ربما رأت المستقبل، رأت نعش الزواج

أمام عينيها... ثم تركت المائدة.. وأغرقهما صمت ثقيل، تأوه بعده يحيى سليم، وقال:

ــ يقولون النسيان دواء ناجع... ولكن ليس متوفراً في صيدليات الحياة دائماً.

ــ أو قل ليس جميع الناس قادرين على شرائه. وربما نحن الشرقيين بالذات لاننسى، لشدة تأصل أخذ الثأر فينا.

قال يحيى سليم بحماس:

ــ المهم ماذا تنسى؟ الحلو والمر مخلوط في كل الأشياء. زواجي المقبور رغم كل مافيه من أيام مريرة لايخلو من لحظات حلوة استرجعها في خلوتي. لقد ذهبت الى البحر لاسترجع بعض تلك اللحظات الحلوة. إن الحياة يجب أن تعاش لاأن تفلسف. وهي ليست قابلة للانتظار. ممنوع على الانسان أن ينتظر. الانتظار مضيعة للوقت. هل تذكر جدالاتنا عن اللحظة الثورية؟ بقينا ننتظرها، وما زال الجماعة هنا ينتظرونها على موائد مترعة بالخمرة... ولكنها لم تحل.

قال ثابت مدافعاً عن نفسه:

ــ لابد أنها ستحل. على كل حال أنا ماأزال ضد المشاريع الطويلة خارج الوطن. والزواج مشروع طويل لكل العمر.

صاح يحيى:

ــ ولكن النفس لاتدري بأي أرض تموت.

ــ ولكنها لو خيرت لفضلت أن تموت في بلدها.

وتعلمني بذلك؟ ولكنني أعرف شخصاً كان مصاباً في معدته. وكان يطل من شرفة منزله، فيرى في البعيد مقبرة تترية فسيحة، فكان يمسك سماعة التلفون، ويتلفن الى أصدقائه ويقول: إذا مت، فلا تزحموا أنفسكم، وتنقلوني الى العراق. ادفنوني هناك لينظر الي أحبابي من هذه النافذة. وأنا أي أحباب ينظرون إليّ إذا دفنت هنا؟ والأمر مختلف بالنسبة لك. فأنت تعرف أين تدفن. جئت الى هنا جاهزاً مجهزاً، كما يقولون. كان لك من ينتظرك في الوطن. وأنا من ينتظرني؟ جئت الى هنا خالي القلب إلا من الأشواق الى حياة تستحق أن تعاش.

ــ وعشتها؟

ــ نعم عشتها إذا كنت تقصد حياتي مع نادية، ولست نادماً عليها. سأظل احتفظ بحياتي القصيرة مع نادية في منطقة عزيزة من ذاكرتي. وماذا للناس غير ذكرياتهم يسترجعونها في حالة الحلم أو الحنين.

قال ثابت حسين لنفسه: صار يحيى يتفلسف، رغم أنه ضد الفلسفة. ولم يكن، الآن، بعد تلك السنوات من الغربة، يشعر بما كان يشعر من قبل من الحنق على اخفاقاته المتكررة. صار يشفق عليه. شيء فيه كان يجعله يفكر، يتأمل مصائر الناس، والحياة ودهاليزها، بالخيبة

الكبيرة والنجاح الضئيل. وسمعه يقول:

ــ الذكرى، الذكرى.

انتبه اليه. نظر في وجهه. تجاوب معه:

ــ زاد ليالي الأرق.

ــ وساعات أحلام اليقظة.

وبدأ يحيى سليم كالحالم حين كرر قوله السابق:

ــ هل تعرف أنني في سفرتي هذه الى البحر رحت افتش عن الأماكن التي كنا فيها سوية، أنا ونادية، في أول صيف ساخن في زواجنا.

وعادت عينه صافيتين، وزال عنهما حولهما تماماً. ولكن هاتين العينين لم تكونا تنظران اليه بل الى أشياء غير مرئية، وأنشأ يقص:

ــ كنت قد أستأجرت ونادية غرفة في فندق على ساحل البحر يجاور جدولاً جافاً كان يشق المدينة الساحلية الى شقين. كنت أنام وادعاً الى وقت متأخر، هانئاً بطراوة البحر وأشعر بنادية تخرج الى البحر. وعندما كنت أجيء اليها في الضحى حاملاً معي فطورها كنت أسرح عيني في جموع المستحمات والمستحمين مفتشاً عنها، فيلتقطها بصري بين كل أنواع الأجساد، بين كل ألوان المايوهات، كأنني أشم رائحة جسدها بين آلاف الروائح السابحة في الهواة المفخورة بحرارة الشمس. كنت أراها من بعيد كالزهرة المتفتحة في الصباح على قطرات الندى، فأقدم بثقة، عبر الأجساد، الى غايتي، شاعراً بالاعتزاز ونعمى الوصول الى المقصد. وكانت أحياناً تلمحني من بعيد، فتلوح لي بذراعها، ويزداد اعتزازي، واخترق كالربان أمواج البشر الحاشدة، وحين أصل اليها، بعد تعثر، والحر يعلك جسدي، كنت أرتمي قربها، واسترخي، وكأنني أويت الى خيمة أو ظل وريف.

وبدا وجه يحيى سليم متوهجاً وعرقاً، وكأنه بالفعل قطع الآن أيضاً، تلك المسافة في حر الجنوب رفع قدحه، وشرب جرعة طويلة من السائل المحبب، نبيذ الشمبانيا الذهبي، وأطلق زفرة طويلة لم تبد كزفرة، بل كتنفس الصعداء. وحدث ثابت نفسه: إنها حالة وجدانية لرجل تجاوز الأربعين، بحث وبحث بين النساء حتى وجد ضالته...

ولكنها تركته في لحظة من لحظات خيباته الكثيرة. دعني لأقسو عليه، كما كنت أفعل، في الأيام الخوالي. وحاول ثابت أن يجاريه في مطارحة الذكريات. قال:

ــ وأنا أيضاً، في ليالي سهادي، حين يوقظني ذلك المخرز اللعين في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. هل لديك مثل هذا المخرز يايحيى؟

ــ لا، المخرز في قلبي. ولكن عندي رجة كهربائية، حالما انسرح في النوم حتى تعتريني هذه الرجة كمن هزّه تيار كهربائي، فافتح عيني، وأحدق في السقف. ولكن الذكريات تنثال

عليّ، حين أخلو الى نفسي، حين أكون وحيداً، سواء كنت في الباص أو المترو، أو أتمشى في الشارع، وحتى حين أطالع كتاباً... يسرح ذهني الى عالم آخر هو عالم الحلم... وحتى حين اترجم وتستعص عليّ كلمة أو جملة، فاتذكر موقفاً استعصى عليّ في حياتي الواقعية.

وكان ثابت حسين خلال ذلك قد تذكر سهرته البارحة مع ذكرى طافت في خياله غير مقصودة:

ــ أما أنا، فلا ينفك شريط ذكرياتي إلا في تلك الساعة التي يوخزني فيها ذلك المخرز في أعماق الليل، واستيقظ نصف استيقاظ، وتبدأ الصور تنثال على رأسي، تدوم في دماغي، ثم تصفو شيئاً فشيئاً، وتطل الذكريات، وتنفك وشائعها. البارحة مثلاً، حين استيقظت في قلب الليل، لأعرف لماذا أخذت أتذكر حادثة في حياتي الماضية. ربما لأنني الآن في حالة قلق واستنفار، مثل حالتي آنذاك. كانت الموانىء العربية قد سدت في وجوهنا أنا واثنين من الفلسطينيين كانا يحملان جوازي حكومة فلسطين المؤقتة التي لم تكن سورية تعترف بها. وكنا عائدين من مهرجان الشباب مع عشرات العائدين، فلم تقبل الجهات السورية آنذاك بنزولنا، فاتصل قبطان الباخرة الرومانية بميناء بيروت، وظل ينتظر الرد. وكنا نحس بالحرقة والضياع. نحن عند ساحل بلد عربي يرفض استقبالنا لأسباب غامضة لم أكن أعرفها في ذلك الوقت. وكان القبطان وبحارة الباخرة الآخرون يتسلون، في فترات الانتظار، بصيد السمك في ميناء اللاذقية ببرود أعصاب. يقضون ساعات طويلة على الحاجز، ينتظرون السمكة البلهاء التي ستسحب الطعم، فينغرز الشص في حلقها، وتنتهي حياتها على الماء، مثلما كانت حياتنا على اليابسة معلقة بقرار صياد مجهول. كنت أراقبهم من فوق وكنت أقول لنفسي: سعداء هؤلاء سعادة لاتوصف، سعداء بالوطن الذي ينتظرهم بدون حواجز ولاعقوبة، بالموانىء المفتوحة لأن لهم هوية، فلماذا لايطمئنون بالاً، ويصطادون السمك بهدوء أعصاب. قضينا ليلتين ضائعتين حتى جاء القرار برفض نزولنا الى اليابسة. أبحرت بنا الباخرة عائدة، وانزلونا في رومانيا في منتجع صيفي للطلائع كان فارغاً، لأن الطلائع عادوا الى دراستهم. أكرموا وفادتنا، واطعمونا لذيذ الطعام. في الصباح كانوا يقدمون لنا دورقاً كبيراً من الشاي له طعم غريب ولذيذ، كنا نحتسي منه أكواباً كبيرة. ولما سألنا عن ذلك الذي يكسبه هذا الطعم العطر المشيع دفئاً ناعماً في الأوصال، قالوا لنا: انه مخلوط بالروم. ودأبنا على شرب الشاي المخلوط بالروم في تلك الصباحات الخريفية الباردة المضببة، حيث كانت قطرات المطر تتدلى من الأغصان مثل حبات صغيرة من البلور، وظل هذا الطعم الدافىء يغمر صدري بنشوة حنون. وفيما بعد، حين صارت تلك الأيام ذكرى، واستقر بي المقام في بلادي، كنت أحياناً أخلط الشاي بقطرات من الروم، ولكن لم استعد ذلك الطعم العنبري. وربما لأن ذلك صار ذكرى، أو ربما كان الشاي المطعم بالروم لايكتسب تلك النكهة إلا في تلك الصباحات الخريفية الباردة المضببة، أو ربما كانت له علاقة

بحالة الضياع التي كنا فيها، والجائعة الى قطرة دفء تسري في الأوصال ... أو ربما لأنه التجربة الأولى ...

وأحس ثابت حسين، وكأنه يلهث من تدفق الذكرى بهذا الزخم القاهر الآخذ بالأنفاس. حدق يحيى سليم فيه، وهز رأسه، وفتح له عينيه الحزينتين. وقال:

ــ ذلك هو الأرق صانع الحكايات.

ورفع كأسه، وأدارها بين يديه، وقال وهو ينظر اليها:

ــ أتدري ماذا أتمنى؟

نظر ثابت اليه بانتظار الجواب.

ــ أتمنى أن تخترع الانسانية شيئين صغيرين ليسا كوسائل الدمار الضخمة المخزونة داخل الأرض...

وجد ثابت حسين نفسه يقول:

ــ ما هما؟

ــ أن تخترع أولاً آلة منومة ...

ــ توجد هناك أقراص منومة ...

ــ لا، بل أريدها آلة صغيرة تركب على دماغ الانسان، وتنصب كالساعة المنبهة، يستطيع الانسان أن يوقتها حسب مايريد. ينام في الساعة المطلوبة لتوقظه في الساعة المطلوبة.

ــ يوجد مثل هؤلاء الناس الأصحاء. في داخلهم مثل هذه الآلات.

ــ قلائل ... وتقدم العمر يهدم مناعتهم ضد الأرق ...

ــ والشيء الثاني؟

وابتسم يحيى سليم، وعاد يدير الكأس بين يديه.

ــ وأريد أن تخترع الانسانية سائلاً عذب المذاق يولد النشوة لدى الانسان دون أن يسبب له صداعاً أو تأنيب ضمير، أو تشمع كبد أو قرحة في المعدة... أتراها عاجزة عن ذلك وهي التي تخترع مالا يخطر على البال؟

ــ من يدري ربما ستخترع... ولكن ليس لجيلنا ...

ــ جيل المنتظرين؟

ــ لاأظننا ننتظر ... بل نمارس حياتنا بشكل بطيء ورتيب.

ــ والمهم أن نسرع؟

ــ المهم أن يكون لحياتنا مردود ...

ــ مردود؟

ــ وليس تراكماً عددياً ...

قال يحيى سليم وعادت عيناه الى حولهما :
ـــ أتقصدني ؟
ـــ وهل لحياتك مردود ؟
ـــ الشك في ذلك هو الذي يعذبني ، ولكني أحاول ، فلعلي أنجح في إحدى المحاولات ... ربما تتبلور المفاهيم في الذهن ، والثبات على هذه المفاهيم ، اكتساب القناعات ، والدفاع عن هذه القناعات ، والسير عليها تكسب الحياة معنى يمكن أن يعتبر مردوداً .
ـــ يعني تريد أن تقول أن تكون لك قضية .
ـــ ولم لا ؟ الانسان بلا قضية ورقة في مهب الريح .
ـــ رجعنا الى لغة الشعارات ! كم قتلتني شعاراتكم !
قال ثابت متراجعاً :
ـــ المهم احساسك الداخلي .
ـــ ماهو احساسي الداخلي؟
ـــ أن تكون لك مهمة ... أنت ، حين تترجم الا تحس بهذا الاحساس .
ـــ لا ، أبداً . انها طريقة واحدة من طرق كسب الرزق ... تبدو في كثير من الأحيان مضجرة ، لأن ماأترجمه مفروض علي ، وكثيراً مالاتكون لي الرغبة في أدائه على الوجه الصحيح ...
ـــ وليس لك أمل آخر في الحياة؟
ـــ انتظار معجزة ...
سكت ثابت كمن ألقم حجراً ، وقال :
ـــ هذه المعجزة التي تتحدث عنها نوع من الأمل الغامض ، الاحساس بوجوب أن يحدث شيء أنت في انتظاره ... الانسان لابد أن ينتظر شيئاً .
ـــ أنت ماذا تنتظر؟
ـــ أنا ماذا أنتظر ؟ في المرحلة الراهنة أنتظر شفاء ابني ... ربما لاتعتقد أنني أحس حتى النخاع ، كما يقولون ، بأنني مسؤول عن محنة ابني ، وأحس بالذنب يأكل قلبي ، لأنني تركته يسافر مع أمه ، وبقيت أنا في غرفتي في المطبعة مرتاحاً فوقع ذلك الحادث المشؤوم . إن مستقبله تبعة في عنقي ، وإن كنت لاأملك القدرة على التأثير قدر مايملكه الأطباء الذين يعالجونه . ذلك شيء من الأشياء التي أعيش من أجلها ، ذلك هو الاحساس الداخلي الذي يتملكني . وإذا كان لحياتي مردود فإن رد العافية الى ابني جزء من هذا المردود .
قال يحيى سليم :
ـــ هذا الاحساس مفقود عندي منذ زمان ... ربما موجود عند الاخرين ولكنه موجود عندي . أنا انسان أعيش يومي الحالي فقط . فقد زهدت بما يصنع الناس للآخرين من متاعب ،

لمجرد أن يعلنوا عن أنفسهم بالبنط العريض كما يقولون... في البداية كنت مثلهم، بل كان لدي شعور عميق بالتفوق. هل تذكر يوم تعاركنا في الصف الثالث المتوسط؟

ضحك يحيى سليم ضحكة خشنة.

ــ كنت أبغض أولئك الذين يشعرونني بأنهم متفوقون علي وأنت كنت تبدو كذلك. كنت متفوقاً علي بسهومك الطويل، بصمتك القاتل، وحتى بضعفك الجسدي الذي كنت تبدو وكأنك تتحدى به انساناً عملاقاً مثلي، بينما تربيت أنا كأنسان مؤهل لأن يقوم بمعجزات... لم تبق لي علاقة بها إلا في الانتظار.

ودلى يحيى سليم رأسه ماسكاً صدغيه بين سبابته وابهامه. وبدا وكأنه ثمل. وبعد لحظة صمت تابع يقول:

ــ ولكن هذا الشعور قد انهار فيما بعد... تلاشى... ربما لاتعرف حتى الآن أنني لست في الأصل من بغداد. أقاربي جميعاً يعيشون في بلدة في جنوبها. أنا الأبن الوحيد بين خمس بنات، مثلما كان أبي الابن الوحيد بين ثلاث عشرة ابنة... تصور انساناً في حالة كهذه، كيف لايكون فارساً بين حريم من النساء. على هذا تربيت وكنت أشعر بالتفوق على أخواتي الخمس، وحتى على عماتي، من بقيت منهن على قيد الحياة. كنت أتصور نفسي فارسهن، حاميهن، والولي عليهن. وكان لنا بستان صغير فيه احدى وعشرون نخلة ظلت طوال طفولتي، والى أوائل شبابي تقف في ذاكرتي كالشموع المتقدة، وكنت أحس بأنها من رعاياي أيضاً، وإن كانت عمتي، الأخيرة التي بقيت على قيد الحياة، تعتبر نفسها مالكتها. وذات مرة أثناء غيابي للدراسة، عدت الى بلدتي، فرأيت النخلات مقطوعات الرؤوس. كان منظراً مريعاً بدا لي كالجثث المغروسة في الأرض. وعلمت أن عمتي قد أمرت، قبيل وفاتها، بأن تقطع رؤوسها. أحسست بالخذلان وانهيار الرجولة في داخلي. كيف يحدث هذا، وأنا في الوجود؟ كيف يمكن أن تصل القسوة بإنسان، بامرأة موشكة على توديع الحياة، الى هذه الدرجة اللئيمة. كيف استطيع، بعد الآن، أن أقابل أعواد المشانق هذه منصوبة لي، أراها في ليلي ونهاري. عدت راجعاً، ومنذ ذلك لم أر البلدة. بعد ذلك بدا كل شيء سواء لدي. لم أعد أعبأ بشيء. هكذا هي الحياة تنتهي فجأة بضربة جلاد.

ــ ومع ذلك فالناس يبنون، الناس يكافحون، والا لخربت الحياة...

ــ دعهم يبنون في انتظار يد قاسية، فأس، سيف، طلقة، مشنقة، وينتهي الأمر...

كان الحديث يبدو مأساوياً وغير مشجع للاطالة فيه قال ثابت:

ــ أنت تجعل الدنيا بلا بارقة أمل... ومع ذلك قال ضاحكاً ملطفاً لهجته ــ أنا مسؤول عنك أمام ابني... انه يطلب جواباً... ماذا سأقول له؟

ــ الزمن سيحسم الموضوع... اتركه للزمن.

ـــ وهو لحد الآن لم يحسمه ...

ـــ لاأستطيع أن أقول لك إلا شيئاً واحداً ... في الليلة الأخيرة، ونحن مجتمعون على العشاء في غرفتي الصغيرة اكتسى وجه فريد قناع الجدية، وتحدث كما يتحدث الكبار، قال: على العموم، أنا لست ضد أن أعيش مع عمو يحيى، ولكن في بلدتنا، وليس هنا. قلت له: ولكن فرجتك على هذه المدينة جيداً، واريتك معالمها الجميلة. قال بنفس اللهجة: هذه المدينة جميلة، ولكنها كبيرة وصاخبة. يمكن أن تزار، ولكن لايمكن أن يعاش فيها.

ـــ هذه بارقة الأمل التي ذكرتها ... حركت نداء الدم فيه، وهذا ماأريد أن أثبته لأبني.

ـــ الدم لايحافظ على درجة واحدة من الحرارة، يمكن أن يفور ويمكن أن يبرد ... تجمده ثلوج الفراق.

وقال يحيى في سره: سيقتلني ثابت بتصميمه هذا. ربما لأنه يرتكن الى تاريخ، بينما أنا بلا تاريخ ... ضائع .. العلة يريد أن يقنعني: لاتاريخ يمكن أن يكتب خارج الوطن؟ ولكن هناك من كتبوا هذا التاريخ ... هناك من ربطوا الماضي بالحاضر ليقفزوا الى مستقبل قريب ...

وضحك يحيى سليم في سره أيضاً وقال لنفسه: اولئك لم يكونوا من أمثالي. هذا في حكم المؤكد ...

ـ ٧ ـ

استيقظ صالح جميل على شعور بهيج يدغدغ حواشي نفسه. فرك عينيه بسبابتيه، ولذ له أن يتمطى. ولكنه خشي أن تتشنج العروق في أسفل ظهره، وهو أمر يحدث كلما أتى حركة غير حركاته اليومية المعتادة. حاول أن يتذكر مبعث هذا الشعور البهيج. لم يغمض عينيه لأنه خشي من الدوامات التي ستدير رأسه إذا فعل ذلك. فتح عينيه اللزجتين، وحدق في الثريا برؤوسها الثلاثة البيضاء، المذهبة، الشبيهة بأقداح الشمبانيا تطل عليه من عل. ومرق في ذهنه شبح ذكرى. أزاح الغطاء، وبخطوتين من قدمين حافيتين، وصل الى الكرسي الذي يسترخي عليه بنطلونه الأخضر، فوق السترة والقميص الأخضرين على ظهر الكرسي. لايدري كيف فعل ذلك البارحة، وتلمس جيوب سترته، حتى أخرج مذكرة عتيقة متهرئة يسجل فيها أرقام التلفونات. وراح يقلبها. تذكر أن أحداً قد تلفن له، بعد تلك اللحظة التي تغبش فيها الذاكرة، ثم ينقطع شريطها. وكان دائم الوجل من أن يحدث شيء في تلك اللحظة ـ الغيبوبة، فلا يتذكره في اليوم التالي أو ينساه الى الأبد. وكم ورطه ذلك، كم موعد ضاع منه، من ذاكرته الصباحية! والآن لايتذكر إلا أنه سجل شيئاً في دفتره. أين، وماهو؟ لايدري. سجله في لحظة صفاء في الذاكرة. قلب الدفتر الصغيرة المفكك الأوراق، حتى عثر على شيء خطت فيه خربشة لم يعرف كيف يقرؤها. لابد أنها تلك التي سجلها البارحة في خط يده، ليتذكرها في الصباح. حاول جاهداً أن يفك رموزها. أهذا حاء أم ميم؟ أهذه تاء أم فاء؟ واتعب دماغه ولم يهتد الى شيء. ترك الدفتر على البنطلون وذهب ليغتسل. انتهت الطقوس الصباحية بخمس دقائق، جلس بعدها الى التلفون:

ـ يحيى، صباح الخير.

ـ الأحرى بك أن تقول لي ظهر الخير.

ضحكة مكركبة و: الآن استيقظت من النوم. الوقت بالنسبة لي صباح. ولكن لافرق.

أيش تعمل؟

ـ ماذا تظن؟ ارقص؟

ـ لا، تترجم، أو ترقص على الورق... تشوك، تشوك، تشوك..

ـ أحسنت.

ـ هل كلمتني البارحة ليلاً؟

ـ لا .. وهل نسيت مرة أخرى؟ قلت لك سجل في ورقة حتى لاتنسى.

ـ سجلته، والله، ولكن، لأعرف أن اقرأه. هل ساعدتني في قراءته؟

ـ اعتذر، ورائي شغل...

ولما عجز عن اقناعه تلفن لشخص آخر، ثم الثالث، وحين يئس، تهيأ لتحضير فطوره. بيضة مقلية مع شريحة خبز واحدة، فالمعدة المتعودة على السوائل لاتتحمل أكثر من هذا الثقل. وبينما كان كذلك دق جرس التلفون، فقفز:

ـ ايه! ورفع السماعة. كان المتكلم ثابت حسين.

ـ ها؟ أراك ماتزال في البيت؟

ـ والى أين تريدني أن أذهب في هذا الصباح؟

ـ عجيب؟ المطار؟

ـ أي مطار ـ وعندئذ خطر في ذهنه شيء ـ أنت الذي تلفن لي بعد اغلاق دكان دماغي؟

ـ نعم...

ـ وماذا كنت تريد؟

ـ طلبت اليك أن تذهب الى المطار لتستقبل أختك.

ـ آه، تذكرت. قادمة من بغداد.

ـ نعم، في سفرة سياحية، فلماذا لم تخرج لاستقبالها؟

ارتخى صالح جميل، وقال:

ـ مادامت سفرة سياحية، فسأجدها. أنا أعرف الفندق الذي سيقيمون فيه.. سأذهب بعد ساعتين أو ثلاث.

ـ خذني معك. فقد جلبوا لي حاجيات معها، أو مع احدى المسافرات. متى ستتهيأ.

ـ نلتقي في المقهى.

وعاد يهيىء طعام فطوره. وفي تلك الساعة كان في بهو المطار جماعة كبيرة من السياح السمر الوجوه، يروحون ويجيئون مضطربين، ضاجين، يتنادون فيما بينهم بأصوات عالية تبدو نشازاً في ذلك الجو المتراخي الهامس. وكان ثمة أشخاص يشرئبون بأعناقهم، من حين لآخر، من وراء الحاجز، يبحثون في جمع المستقبلين على بعد أمتار، عن وجوه يعرفونها. ومن بين هؤلاء امرأة شابة في تلك الأناقة البغدادية المعدة خصيصاً للسفر بها خارج العراق، بما فيها من لالاء الذهب على المعاصم، وتراقص الأقراط الطويلة على الآذان، ولمعة الأحجار الكريمة على الأصابع.

والثانية امرأة صغيرة الجرم كانت تحمل عباتها في يدها. وكانت هذه العباءة قد تنقلت بين أوضاع مختلفة منذ أن دخلت مطار بغداد في باكر الصباح. والآن تلتف على يديها، ولاتعرف ماذا تفعل بها في هذا الجو المتبرج الصقيل، الفواح بشتى العطور والمشاع للأناث والذكور. كانت الأولى زوجة علوان شاكر، الطالب في الدراسات العليا، والثانية أخت صالح جميل الذي كان قد لحق أن يأكل بيضته، ويعلك كسرة خبزه، ويتهيأ للخروج. جاء الباص لنقل السياح الى المدينة. قالت الزوجة:

ــ لا، أنا أريد أن أذهب لزوجي. وعندي عنوانه.

قال المترجم:

ــ لايجوز! يجب أن نسافر الى الفندق أولاً. تلفني عليه من الفندق.

ــ ليس له تلفون.

ــ لا يجوز، يجب أن نسافر الى الفندق.

ــ الفندق في مدينة أخرى؟

ــ لا، في هذه المدينة.

ــ فلماذا تقول نسافر؟

ــ إذن نركب اليه.

وبعد نقاش طويل، اضطرت الى ركوب الباص متذمرة. وكان علوان شاكر قد خرج، في تلك اللحظة، من المكتبة راكضاً، ليلحق أن يشتري مايناسب سهرة جميلة تمتد الى ساعة متأخرة من الليل، ولربما الى الصبح. شوق وعطش! وكيف يجرع الدارس العلم الجاف بدون هذه المرطبات؟ وأكمل المهمة في ساعة، وذهب الى البيت ليأخذ غفوة ويستعد للمساء. وكان صالح جميل، في ذلك الحين، في البار ينظر الى أظافره وأصابعه القصيرة المتورمة، وأمامه قدح الشمبانيا الأول يكاد يكون فارغاً.

وثابت حسين عند سرير ابنه يقص عليه الحكايات، ومايعتبره نقل الخبرات وتجارب الحياة من جيل الى جيل، ويشوق الحياة لابنه، ويذكره بأصدقائه القدامى. وقف الباص أمام بناية الفندق البنية، ونزل السياح، ودخلوا البهو في شرذمة ضاجة. وكانت زوجة علوان شاكر ماتزال على إصرارها في الذهاب الى زوجها. وكان زوجها ينام مرتاحاً هانئاً. افرغ صالح جميل بقية قدحه، وقال لنفسه: أظنهم، مايزالون في المطار. اجراءات وتفتيش. واسترخى، واشتهى أن يطلب قدحاً آخر حتى يهل أحد «الخرفان» ويجره معه الى الفندق.

ــ لاتخف، يابني، لاتخف... انها عملية سهلة.

ــ اليوم أخذوا الدم من هنا...

وأشار الى باطن مرفقه.

ـــ لابأس. غداً سأجلب لك أطايب العراق. قلت لك أنني كلمت أمك البارحة في التلفون. فقالت أنها أرسلت لك هدايا حاجيات... الآن موسم الليمون الأخضر في العراق، فيه شذى القداح...

وتلمض صالح جميل بجرعة كبيرة من قدحه الثاني، وأوجعته أسنانه من برودتها، فأطبق فمه على فمه. ولما زالت سورة الألم سأل جاره عن الساعة. وقال لنفسه في استرخاء: مازال هناك وقت. وبعد دقائق أطل الرسام، والسيكارة تتدلى من منتصف شفته، والأنف المدبب فوقها، والشعر المجعد الغزير يطوق الوجه بهالة سوداء. قال صالح، وكأنه وجد لقطة:

«ايه... ذهبنا!»

ـــ الى أين؟

ـــ لايهم، ستعرف فيما بعد. هل نذهب الآن، أم تشرب قدحاً؟

ـــ ولكن الى أين؟

ـــ جاءت وجبة خرفان من العراق. سنسمع أخباراً كثيرة... أختي بينهم.

وضحك من كلامه، وضم فمه بكفه ثانية. ولابد أن أسنانه أوجعته.

استحم علوان شاكر، وتعطر، وأخذ ينتظر. وكانت زوجته في ذلك الوقت تحوم حول المترجم: «أريد سيارة، أريد سيارة». ولم تكن وحدها قرب المترجم الشاب النحيل الطويل، بل معها نسوة أخريات. قالت امرأة بدينة:

ـــ عيني، هل تعرف ابني؟

ـــ ابنك أنت؟ من هو ابنك؟

ـــ يدرس في المعهد.

ـــ أي معهد...

ـــ لأأدري، مكتوب هنا.

وقدمت له ورقة. وقالت ثالثة:

ـــ ابني الله يحفظك، اريدك توديني الى مستشفى الرمد.

ـــ الرمد؟ ماهو الرمد؟

وقالت رابعة:

ـــ جدر الباجة راح يخرب... لازم أشوف ابني اليوم... وضربت الأرض بقدمها العريضة.

وقالت خامسة:

ــ عيني أكو لحاف في الحجرة...

ــ لحاف؟ ماهو لحاف؟

وصاح رجل بدين في ضيق كان مالئاً الكرسي العريض بجسمه، وأمامه كرشه مثل بطيخة من آسيا الوسطى.

ــ لماذا تتعبن الرجل. أولادنا سيأتون ويحلون لنا كل مشكلة.

وبدأ الأولاد يتوافدون. وكانت زوجة علوان شاكر قد غافلت المترجم، وعرفت رقم حجرتها والمرأة التي ستشاركها الحجرة، وانسلت من باب الفندق. دق الجرس فخف علوان شاكر لفتحه. وأضاءت وجهه البني القاتم ابتسامة عريضة. وبعد فراغ القدح الثاني تململ صالح جميل، وقال للرسام: « نقلع؟ » وكانت أخته تدير قرص التلفون مرة بعد أخرى، ثم تعيد السماعة، وتقول: « مشغول... اشكد يحجي!

من عنده هنا ليكون بهذه الميانة معه؟ »

ــ الى اللقاء، ياولدي، الى الغد.

وقبل ولده من جبينه، وانصرف.

ــ ثابت حسين لم تعجبه لوحاتي، كما يبدو.

قال الرسام لصالح جميل، وهما ينتظران سيارة تكسي:

ــ ولماذا؟

ــ يريد ألواناً زاهية.

ــ ومن أين نأتي له بالألوان الزاهية، وفي الفم طعم الرماد.

ــ القسوة عنوان هذا العالم، ويريد أن نطليها بالأخضر...

ــ والبعد عن الوطن سراب في العيون. والسراب مالونه؟

ــ في أي وقت من أوقات اليوم؟

وضحك الرسام. وكركر صالح، وقال معجباً بفكرته.

ــ صحيح، مالون السراب؟ أنت تتعامل مع الألوان.

ــ بلون شاربك الرمادي.

وكانت أخته تقول لجارتها في الحجرة:

ــ مشغول، مشغول، دائماً مشغول. يحب حجي، مسامر...

قالت جارتها:

ــ ربما التلفون خربان... لماذا لاتسألين المترجم؟

استرخى علوان شاكر على الأريكة جذلاً نشوان، وفرك يديه كمن يهم بأن يفعل شيئاً. ولكنه عدل، واتكأ على الأريكة، وألقى ذراعه على قاطعها، وقال:

ــ ماأعذب الكأس اذا شربت مع وجه صبوح؟... نحن العرب نقول: الكأس والماء والوجه الحسن.

ولم تكتشف زميلته تزويره للمثل العربي، ولكنها اعترضت على الماء.

ــ الماء؟ لماذا الماء؟

ــ لأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء... نحن أبناء الصحراء.

ــ الآن بدأت أفهم.

ــ شش!

دق الجرس. فجفل علوان شاكر. وقال من هذا الأمي الحقير الذي يأتي في مثل ساعة الأنس هذه؟

وعرفت أخت صالح جميل السر في التلفون. كان يجب أن تدير رقم ٨ أولاً. ولما أدارته، ودق الجرس بشكل اعتيادي قالت:

ــ ايه، هسة صحيح.

وكان أخوها يصعد اليها درجات السلم بتعب... وضع يحيى سليم القلم، واتكأ على ظهر الكرسي، وتمطى، وفرك عينيه المتعبتين. وقال: « اللعنة! لم اشتغل اليوم إلا ربع الحصة اليومية ». ونهض من كرسيه ملولاً، واتجه الى النافذة العريضة الخالية من الستائر، ونظر الى الشارع، رآه حافلاً بالناس وبالحركة. والناس يسيرون سيراً حثيثاً، وشعور بعض الفتيان طويلة مثل شعر النساء، تتمايل على أقفيتهم. وعاد اليه ذلك الشعور القاتل بأنه يقضي حياته حبيساً في غرفة في الطابق السادس. إن أيامه تذهب هدراً، وبلا فرحة. **كانت فرحة واحدة وانقبرت**.

وقال لنفسه: صحيح مايقول ثابت. الحياة في الغربة ليست إلا انتظاراً لشيء سيحدث دون أن نعرفه على وجه التحديد. الحياة هنا سهلة ورتيبة، تقتل كل شوق للمجازفة، لتجريب أنواع أخرى من الحياة، للمعاناة الحقيقية. الحياة هنا لاتنمو... بل تستطيل أياماً وليالي مؤرقة مملة مملوءة بالكوابيس. وترك النظر الى الشارع، واتجه ببصره الى الغرفة الصغيرة، ورن في قاع ذاكرته شطر بيت: « بالأمس كانوا هنا، واليوم قد رحلوا. » بالأمس كان فريد يعبث في هذا التلفون الصغير الموضوع على هذه الطاولة الصغيرة، ويقلب الكتب بحثاً عن الصور، حتى لايجد صورة تثير الفضول يتركها زاهداً، وينفض يديه مما علق بها من غبار. خنقته العبرة. أليس عيباً، ياهما! لاتتأثر. خلقت في الأصل كتلة من الأعصاب المتوترة، ولكن الحياة علمتك أن تكتم أن تترك الأشياء تمر من بين يديك، أن تنتظر شيئاً غير معروف بدقة. قلت لها مع السلامة، ياناديه. مع السلامة، أو الى لقاء جديد... بعد عشر سنين، ألم تمض هذه العشر سنين! ــ حين يتفشى الشيب في هذا الشعر الكثيف، ويتخاذل الشارب، ويتدلى على الشفتين

كدودة ميتة رمادية . وتصارعت الأفكار كالأبالسة في قنينة نفسه الضيقة الفوهة . شرع يلبس ولكن الى أين يذهب . الى صاحب « البوكس » الحديدي ؟ يعظه بأن يكون لحياته مردود . أي مردود . عدد الصفحات ، الحياة التي أترجمها . عدد الليالي المؤرقة التى أخوض حرباً فيها غير معلنة مع الذكريات ، عدد النخيل الذي كان على أن أحرسه ، ولم أحرسه . أي مردود ، ياأبا حسان . دع قناعتك لك . أو دعني أتدفأ فيها في لحظات الشجاعة المؤجلة ، وانتظر مثلك اللحظة الثورية التي لانعرف في أي قرن تهل . هل تذكر كيف كنت تعظ بها ، وماتزال كما أعتقد . حاولت أن تبني حياتك على خلق هذه اللحظة الثورية ، وتبشر الناس بها ، أو سوقهم اليها ، ومنهم أنا ولكنها لم تهل ، أو هلت مثل ومض البرق ، وانطفأت وجعلت المتيمين بها ينوحون أو يعضون بنان الندم . أما أنا فقد يئست ... أو قل ... لم أعبأ بقدومها وزوالها لأنها كالبرق الخلب ... وهل تريدني أطارد برقاً خلباً . امتلأ يحيى سليم مرارة ، ولكنه لبس ملابسه على أية حال ، وتلفن الى صديقه في الفندق . وفي فندق آخر كانت أخت صالح جميل تترنم محاولة أن تدق « اصبعتين » وتترنم : « تجونا لو نجيكم ، أحباب قلبي ! » كانت جذلى لامعة العينين . ولكن صالح أجابها بهدوء : لا ، تعالوا لنا آمن ! ضحك الرسام ، اهتزت السيكارة المتدلية في وسط فمه ، وقال : أتعرفين ؟ هذه تورية سياسية .لم تفهم الأخت كلمة« توريه » فقالت : لا ، عيني ، بلا ثورية ولاسياسية . من غيرهما قصوا بيتنا ليفتحوا شارعاً . قال صالح مستفيداً من الأخبار التي قصتها عليه : إذا كان بيت الحجي قرروا أن يقصوه . قالت الأخت : الحجي عنده معارف عند الحكومة . ونحن من عندنا ؟ قال الرسام : شفت ؟ هذه سياسة أيضاً . قالت ببراءة ذمة : التوبة ، بعدما افتح حلقي ! وفي جانب آخر من هذه المدينة المترامية الأطراف . كان علوان شاكر يؤكد لزوجته : ثقي بأنها زميلتي في الدراسة . تعرف العربية قليلاً : أكو ، ماكو ! وكانت الزوجة جالسة في مقعد قبالتهما ، والأشياء التي جاءت بها من بغداد ملقاة عن قدمها . لن تصدق ، ولو حلف لها أغلظ الأيمان ، إن جلستهما خالية ، كانت الخمرة هناك ، والمزة واللحم المشوي . وكانت الزميلة منكسة الرأس ، محرجة ، يكاد الدم يتدفق من خديها المحمرين . فأية زميلة هذه إذن ؟ قالت :

ــ هكذا تعنيت ، وجئتك من بغداد ، بعد ألف شفاعة وواسطة ، وأراك في أحضان امرأة ؟

ــ أعوذ بالله ! ماهذا الذي تقولينه ، يارسمية ؟

ــ جلبت لك كل ماستطعت أن انتزعه من بغداد ، وتصورت أنك ستستقبلني في المطار بالأحضان ، وإذا بك ...

ــ صدقيني ، يا رسمية ، أحلف بـ ...

ــ هذا زمان لاتصدق به أغلظ الأيمان . دول بكاملها لاتستطيع أن تفي بما وعدت ،

فكيف أنت الضئيل ؟ ..

ــ إذا كان لك هذا التصور، سأسكت.

ــ اسكت وابلع لسانك، صاحبتك بالعة لسانها. تعرف اكو ماكو، بس؟

تقابل الصديقان في الغرفة المطلة على النهر. قال ثابت:

ــ جسمك حار.

ــ من قلة الأوكسجين.

جلسا في حضن النافذة المضلعة المطلة على الكنيسة والنهر، والمصنع، وتأرجحا قليلاً على المقعدين الأحمرين بظهريهما العاليين، وقال يحيى سليم:

ــ ايه، ياصديق البوكس الحديدي، ماذا وراءك؟

ــ لاشيء انتظر رسالة من الأهل.

ــ وتحسبه لاشيء انتظار رسالة من الأهل. المهم أن تنتظر شيئاً.

ــ كفاك تفجعاً، الدنيا لم تفن بعد ...

ــ أعرف. ولاأريدها أن تفنى ... أريدها أن تتعايش معي، حقوقي كإنسان، مع طموحاتي ... ألست جزءاً منها؟

ــ بالطبع.

وأريدك أن تشعر أنت بذلك ...

ــ شعورك أنت ماذا نفعك؟

ــ أعطاني، على الأقل، حرية الحركة ... جعلني أملك ناصية نفسي.

قال صالح لأخته:

ــ لننزل الى المطعم، ونبلل حلوقنا بشيء ... فقد جففتها تماماً بأخبارك.

ــ ويلي! انزل الى المطعم مع الرجال؟ ..

ــ وسترين نساء أيضاً ... هذه ليست بغداد ...

رن جرس التلفون.

ــ هالو، من يتكلم؟

ــ من تريدين؟

ــ أريد ثابت حسين ...

ــ انا ثابت ... أهلاً وسهلاً ... تفضلي.

ــ أنا زو ... رمية ... زوجتك أرسلت لك رسالة معي وبعض الحاجات فكيف أوصلها اليك؟

ــ أين أنت الآن؟

ـــ في الشارع؟
ـــ أي شارع؟
ـــ لاأعرف ...
ـــ يمكن أن نلتقي في أي مكان ...
ـــ الفنادق معروفة هنا ... يمكن أن نلتقي بفندقك . في أي فندق أنت نازل؟
وسمى لها اسم الفندق .
وقال صالح جميل لأخته :
ـــ حدقي ... حدقي في عيون الرجال . لماذا يحدقون بك وأنت لاتحدقين .
ـــ ويلي ! هاي اش صار بيك؟
ـــ سأدخلك في جميع مطاعم هذه المدينة ومقاهيها ...
والتقوا في بهو الفندق . انهدت رسمية على المقعد المجاور زافرة مكظومة الغيظ ، بادية التعب قال ثابت :
ـــ كأنك قادمة من المطار رأساً؟
ـــ لا ، أبداً .
ـــ تبدين متعبة جداً . هل كان الطيران متعباً جداً؟
ـــ لا ، أبداً ، بل وعندي القوى على الرجوع الى بغداد رأساً ، هذه الليلة . فمن يساعدني على ذلك؟
ـــ ماذا حصل؟
ـــ ماذا حصل؟ أكثر من هذا لايحصل . ذهبت الى زوجي فرأيته مع امرأة . تبادل الصديقان النظرات . قال ثابت :
ـــ لاداعي للشك فيه . ربما هي جلسة بريئة . العادات هنا تختلف .
ـــ أي جلسة بريئة ، وبينهما زجاجة عرق؟ كل الذين يذهبون الى الخارج يفسدون . يتخلون عن تقاليدهم ، يخونون .
ـــ هذا حكم قاس .
ـــ لا ، أبداً . رأيته رأي العين .
كانت تتكلم بلهجة جادة ومتأججة تابعت تقول : ـــ
ـــ فسق ، عربدة ، دعارة ... كلهم ، كلهم ...
انتفض يحيى سليم وقال :
ـــ ولم هذا التعميم؟ أنا لاأعرفك ولاتعرفينني . فلماذا هذا التجني علي ، وأنا من المقيمين هنا؟

ــ آسفة ... ربما هناك استثناء قليل. ولكن الجو موبوء... موبوء... سأرجع الى العراق حالاً.

ــ أظل على رأيي ... ربما كانت جلسة بريئة.

ــ أية جلسة بريئة وعندما رأتني نكست رأسها، واحمرت ثم خرجت كالزعلانة.. ومن المجاز سمعت صوت صفعة... صفعته!

ــ أبشرك، ياولدي، أمك رزقت بأخت لك.

ــ أخت؟

ــ نعم، ياولدي، أنت لاتعرف أنك تركت أمك حاملاً في شهرها الثاني، ولدت لك أختاً جميلة مثلك ستكون معينة لك. لاأسف على أنني مرة أخرى أجد نفسي بعيداً عن أمك المسكينة في مثل هذه الأوقات. ولكن هناك عماتك والطيبون من الجيران.

قال الصبي، وقد أدار ظهره بشيء من الخفة:

ــ بابا، وماذا أرسلت أمي؟

ضحك الأب وقال:

ــ تقصدت أن أسكت حتى أثير فضولك.

وشرع يفك كيس النايلون الأخضر بحروفه العربية السوداء.

ــ هذا ماأرسلته لك، ياولدي، ليمون حامض مايزال أخضر. شمه. (وقربه من أنفه) ألا يذكرك برائحة القداح؟ سأقشر لك واحدة فتفوح رائحة الجنوب الريانة. وأرسك لك فستقاً، وحلقوماً شذياً، وقمر الدين منعشاً. هل تتذكر، كنا نصنع منه الخوشاب؟

ــ خوشاب؟

قال الصبي بغتة ماطاً حرف الألف باستغراب، وكأنه يذكر اسم صديق نساه، ثم تذكره فجأة.

ــ نعم خوشاب. كانت أمك تصنعه في ليالي رمضان بشكل خاص، يطفىء الظمأ.

ــ وماذا أرسلت بعد؟

ــ وأرسلت كرزات مشكلة من الموصل... حبة خضرة، وسيسي. هل تذكر السيسي؟ (وفتح الرجل كيساً من الورق وتناول حفنة من الكرزات، وبسطها على باطن كفه، والتقط حبة مملحة مفتوحة) هذا السيسي. كله وستتذكر طعمه (ناوله حبة واحدة) تذكر ذلك، بالطبع، وأمسيات الشتاء الحلوة، حين تقبع قرب المدفأة النفطية كالجرذ في اسطوانات أم الجلب « صوت سيده » فابعدك عنها، مخافة أن تحرق يدك. ثم تعود، فتزحف شيئاً فشيئاً حتى تصل اليها، فأراك بنفس القرب ... وفي تلك الأمسيات التي كنت تحب أن تأكل فيها التمر الأشرسي، مع الجوز.

لمعت عينا الصبي ببريق حي، ولم يقل شيئاً. صمت لحظات قال بعدها:
ــ وماذا بعثت أمي؟
ــ آخ طماع! بعثت لك بعض الملابس... قميصاً جميلاً مورداً، وبنطلون أحمر، فصلته لك عند علاء الخياط، وحزاماً له طرة فضية ذات نقوش مذهبة. كل ذلك وأختك ماتزال في شهرها الثاني، ويجب أن ترضعها... أنت لم تسألني مااسم أختك؟
ــ أختي؟
ــ نعم، مااسم أختك؟
ــ مااسمها؟
ــ حسنية... من الحسن. وتفاؤلوا بالخير تجدوه.
وضحك الرجل نشوان من هذا الخير الذي أهل عليه بعد انقطاع طويل، وقال لابنه:
ــ جدك سماني ثابت، على أمل أن أكون ثابتاً في حياتي وقد حاولت منذ أو وعيت على نفسي. ولاأعرف هل وفقت في ذلك أم لا. ولكن هذه المحاولة كلفتني كثيراً، ولست نادماً على ذلك. وقد سميتك حساناً، انسجاماً مع اسمي وتيمناً بأن تكون مدافعاً عن دعوة، مثل حسان شاعر النبي والآمال مازالت معقودة عليك.

وأراد ثابت أن يسترسل في أفكاره إلا أنه رأى في نظرات ابنه قلقاً وازوراراً. وكانت يده السليمة تعبث بمحتويات الأشياء الورقية على الطاولة الجانبية. فاكتفى بهذا القدر، ادخر أفكاره لساعات الوحدة الطويلة، حيث السلوى الوحيدة هي تشجيع النفس بمثل هذه الأفكار. وكأنما المرء في استرجاعه لها يلقي على نفسه محاضرة في الصمود. وقال الرجل:
ــ وزع الحلويات على جيرانك.
قال الصبي ببداهة:
ــ وكيف لا؟ آكل وأتركهم ينظرون إلي؟ سأقول لهم هذا من بلادنا... مثلما يقولون لي: هذه من بلدتنا، هذه من قريتنا... بابا مالون البنطلون؟
ــ قلت لك أحمر... أو، لا... بلون التوت القرمزي... أو بلون كحلي على حمرة.
وتعذر على الرجل أن يصف اللون، فقال:
ــ منسجماً تماماً مع القميص... ستخرج به كالجنبدة... نعم، نعم. البنطلون بلون الورد الجوري... الجمبد.
سر ثابت لأنه أكتشف هذا الشبه الدقيق... «عمنه بلون خدك». والخد هزيل مايزال، لم يتورد بعد، ولكن العينين ذكيتان، تنظران بتفحص وعمق.
ــ وماذا كتبت أمي، بعد؟...
ــ أمك؟... كتبت...

وأخرج الرسالة المزركشة الحواشي بخطوط حمر وزرق، وبسط الورقة التي في داخلها، ونظر في السطور. لقد بدأ الحنين يدب في قلب ابنه ليستعيد رموز حياته الماضية، ويعرف أخبار الأهل والمحلة، شعر الرجل بنشوة، ونفخ صدره في الهواء، لأنه وجد في الرسالة مايزيد هذا الحنين، على الأخص إذا أضاف من عنده شيئا من المطيبات. وهو هوس أو وهم يملأ ذهنه، ويريد أن يمضي به حتى النهاية.

ــ أنت تذكر عباس الغزال.

ــ عباس الغزال؟

ــ نعم، ذلك الشاب المعتوه الذي كان جسمه أكداساً من اللحم والشحم، ولغده يتدلى كعرف الديك، ويسميه الناس بالغزال للضحك، والتندر. ليس ذلك الشاب الأنيق الذي كان يردد، وهو واقف عند ناصية الشارع: الناس عافوني. مايسألون عني. وإذا سألوه: ماذا بك؟ نهرهم، وقال: وماعلاقتكم بي؟ لا، ليس ذلك. قابل عباس المجنون، المرهبل، الذي طردته أمه من بيتها في الشواكة فاحتمى بجدته في حي دراغ. كان جنونه الوحيد أن يدق أجراس البيوت، أو منبهات السيارات المفتوحة الأبواب. كم مرة دق باب بيتنا فطلعت أنت ولم تجده، فتقول: هذا عباس المخبل. ألا تذكر! كنا لانعرف الجرس الصحيح من الكذب.

ترك الرجل ابنه، يفكر... قال:

ــ تذكرته... اش بيه؟

ــ عباس كان همه الوحيد أن يثير انتباه الناس بتلك الأعمال، أو بأعمال أخرى.

وذات مرة ــ كما تذكر أمك في رسالتها ــ أمسكه جبار الجيال، صاحب محل الخضراوات نفسه، والذي عنده فرسان يشغلهما في سباق المنصور. امسكه جبار، وقال له: اسمع، ياعباس، أنت تحاول إثارة انتباه الناس بهذه الأعمال الصبيانية التي لاتليق برجل له هذا الجسم الضخم، والناس لايلتفتون اليك، ودق الأجراس لم يعد يثير انتباههم. كل ألاعيبك لم تعد تنفع. وهم لايلتفتون اليك مادمت سائباً مفلساً لاتستطيع أن تقعد في مقهى، ولاتشتري حاجة من أحد، وينتفع الناس بك. يجب أن تكون لك فلوس ليحترمك الناس. قال له عباس: فلوس، فلوس، من أين اتي بالفلوس؟ قال جبار: لاأعرف. ومثلما قال لي في الزمان الأول: إذا عندك خمسة دنانير أو عشرة، وراهنت بها على فرسي اللتين ستلعبان بعد يومين في سباق المنصور، فستكسب مالاً كثيراً. وفكر عباس، وفكر. ثم انسل الى بيته، أقصد بيت جدته، وفك جميع الصرر، حتى عثر على دنانير كانت جدته قد أدخرتها لتنفع يوم دفنها، حين يواتيها الأجل. وأخذها عباس، ولعب على الفرسين، كما أوصاه جبار، وربح بالفعل.

ــ كم ربح؟ قال الصبي بلهفة.

ــ مئات الدنانير، كما يقال. لاأدري، بالضبط. وأعاد الفلوس التي أخذها من جدته

الى صرتها. وصار يقعد في المقاهي، ويشتري من الدكاكين، ويحلق عند الحلاق. وفصل عند علاء الخياط بنطلونين واشترى قميصين أو ثلاثة، وصار الناس يحترمونه، ويبادرونه بالسلام. وحين يصادف أن يكون أحد في حديقة بيته، ويراه ماراً، يصيح عليه: تفضل، استريح. أو دق الجرس قدر ماتريد. تفضل، البيت بيتك. وصار أصحاب البيت يوصلونه الى حيث يريد، وزال جنونه السابق، وصار له جنون آخر، هو اللعب في سباق المنصور، والمقامرة على الخيل. ولم يمض شهر أو شهران، حتى صرف كل فلوسه، ثم فك صرة جدته ثانية، وخسر دنانيرها أيضاً، وأحست به الجدة، فراحت تلطم، وتصيح: من سيكفنني ويدفنني اليوم؟.. جبار الجيال؟ اطلع، اطلع، ماأريدك تعيش معي بعد اليوم. وعاد عباس الغزال على خباله القديم، يدق أجراس البيوت، ومنبهات السيارات. وزاد سخط الناس عليه... هذا، ياولدي، مافعله جبار الجيال بعباس الغزال. وعلى الله الاتكال...

سهم الطفل وقال، بهمس.

ــ وأين ينام الآن؟ مسكين.

أضاف الأب من عنده:

تقول أمك أنه ينام الآن في مبنى سباق الخيل. ومن الآن للشتاء ألف عمامة تنقلب...

— ٩ —

ــ في طريقي اليك، يا وأنا أنزل الى القطار تحت الأرض. نعم، نعم، ياولدي، لاتنظر اليّ هكذا. يوجد مثل هذا القطار هنا، وسنركبه سوية حين تخرج من المستشفى معافى عامر الذاكرة بكل شيء في طريقي اليك تقدم رجل مني، وقال: كومندير، هل تستطيع أن تستبدل هاتين القطعتين من النقد بقطعة واحدة لأدخل المترو. ها، كومندير؟ وكلمة كومندير. لعلك تعرف الآن تعني « الامر » وهو نداء يدل على الاحترام. ولأول مرة في حياتي يضفي علي هذا اللقب، ولو من باب المجاملة. والظاهر أن الكومندير كان يلعب دوراً كبيراً في حياه قوم اضطروا الى أن يصدو العدو عن ديارهم مرات عديدة. وكان الكومندير مسؤولاً عن افراد وحدته. ليتنا نحس بنفس هذا الشعور، بالمسؤولية إزاء الآخرين.

اضطر ثابت حسين أن يسكت، لأنه أحس بغصة في حلقه... المسؤولية إزاء الآخرين. أين كانت مسؤوليته، حين أرسل ابنه؟ ولم يعرف كيف يستمر في الحديث. رأى عيني ولده الدعجاوين مصوبتين نحوه. قال مديراً الحديث الى جهة أخرى:

ــ البروفسور كوزين، مثلاً، كومندير بالنسبة لك، لأنه مسؤول عن حياتك وحياة هؤلاء الناس من حولك... وأنا أيضاً لاأتبرأ من مسؤوليتي إزاءك، ولو قطعوا رقبتي... وصمت ثابت حسين مرة أخرى. وأحس كمن يدخل في دهليز طويل، وتعثر لسانه، وارتبك، لم يعرف ماذا يقص على ابنه. حدق في تلك الضمادة الصغيرة المستقرة على اليافوخ كالطاقية. وقال لنفسه: هذه هي التي سلبتني نعمة النطق بشيء مفيد، هذه الجمجمة المفلوعة التي حلمت بها البارحة. وغابت عنه كل الحكايات ماعداها. وبدا له كل ماحكاه لأبنه محض هراء، مجرد تسلية نفسه بخيبات الآخرين. بينما هو الخائب الأكبر. ترك ابنه وزوجته يسافران، وبقي هو في مكتبه.

ــ ماذا بك تحدق بي؟

ــ لاشيء، ياولدي، مجرد أنني أحبك.

سكت الصبي. ولم يرد الأب أن يثقل عليه. فما الذي يدريه ماذا يجري في داخله؟ هذا السهوم، هذا الصمت المستطيل، هذه النظرات الشاردة تخفي وراءها تاريخاً. قال الصبي بعد صمت

ــ سأتمشى اليوم في الحديقة خلف المستشفى :
ــ عظيم ... وبصحبة ممرضة حلوة ؟
ــ ليزا ...
ــ أها ! أهي التي أخذتك في تلك المرة الى غرفة التمارين ؟ بأية لغة تتحدثان ؟
ــ أنا أعرف الآن ، يمكن مائة كلمة ...
ــ لطيف ، ياولدي لطيف ...
وابتسم الرجل ... فقد تذكر قصة من ماضيه ، فأضاف يقول :
ــ هل تعرف ماذا حصل لأبيك ، حين لم يكن يعرف غير كلمتين ؟ « يا » و « نو » ؟

ابتسم الصبي . وظن الرجل أن ابنه تذكر نكتة حكاها له ذات مرة سرته بتلك التباشير بعودة الذاكرة الى ابنه ، كلها أو نصفها أوشيء منها يربطه بماضيه . وبأهله وبوطنه . رائع إذا كان حسان قد تذكرها . ولكن ابتسامة الصبي خبت . ومع ذلك فقد راح يقص عليه قصته مع بائعة الأحذية الألمانية .

ــ حدث ذلك في ألمانيا ، ياولدي ، في زمن قديم ، في أوائل شتاء أوربي قاس . وكان أبوك ، هذا الجالس أمامك ، متشرداً لفظته سوريا ولبنان ، لأسباب ستعرفها فيما بعد ، حين تعرف أمور الدنيا ، وأحوال السياسة . وكان أبوك المتشرد قد خرج من بغداد في الصيف ، وبملابس الصيف ، فوجد نفسه في اوربا في أواخر خريفها البارد الممطر الشبيه بشتائنا ، وجد نفسه يبحث عن مأوى له في مدينة المانية نائية . وكان حذاؤه خلال هذا التجوال القسري لحق أن يتهرأ ، فكان يحس بكل أمطار أوربا اللزجة تحت قدميه . وكان يتحامل على نفسه ، ولاينفق إلا الشيء الضئيل على الضروريات من الفلوس القليلة المتبقية لديه ، فلا يشتري حذاء لنفسه . وذات مرة ، في لحظة ضعف قاتلة توقف أمام مخزن للأحذية اللامعة لمجرد أن يمتع بصره بالاحذية السليمة ، لعله يحس بشيء من الدفء تحت قدميه ، تماماً مثل ذلك الجائع الذي كان يؤدم خبزه الناشف برائحة شواء منبعثة من مطعم كباب . قريب ولكن أباك ، بدلاً من أي يحس بالدفء ، كما أحس ذلك الجائع بطعم الادام عند وقوفه قرب محل الشواء ، شعر أبوك بأن أوحال اوربا كلها تتغلغل بين أصابع رجليه . فدخل مخزن الأحذية في لحظة ذهول مشينة ، وأشار للبائعة الى حذاء أسود سميك للعمل ، فحملته اليه البائعة ، فاستخدم أول الكلمتين اللتين يعرفهما ... يا ! أومأت البائعة الى رجله تريده أن يقيس الحذاء على رجله . ولكن أباك استخدم الكلمة الثانية رأساً : « نو ! » فقالت البائعة : « يا ! » فرد عليها أبوك بـ « نو ! » وظلا يتحدثان باليا والنو الى أن فطنت البائعة الى حالة قدميه المهروستين بالوحل . قالت : « أين مومينت ! » فخمن أنها تقول لحظة واحدة ، وما أن انتهت هذه اللحظة الواحدة ، وهو كبندول الساعة يتراجع بين ترك المخزن

والانتظار ، حتى أطلت البائعة ، وأومأت اليه تعال ! فذهب اليها بين مصدق ومكذب ، فأزاحت ستارة . ويالعظمة القلب الانساني ! تصور ماذا وجد . وجد اجانة من الماء الدافىء ، يتصاعد منه البخار ، وجنبها كرسي ... يعني ، تفضل اغسل رجليك ، والبس الحذاء الجديد . وانهارت كل مقاومة ابيك إزاء اغراء الدفء والبخار والابتسامة العذبة ، وكل شيء . وصارت اليا والنو خارج الصدد . قعد أبوك ، واخرج رجليه من وحول اوربا ، وادخلها في حمام من حمامات بغداد العظيمة ، وشعر بالقشعريرة اللذيذة تسري في ظهره وساقيه . إذن ، يستطيع الانسان أن يتفاهم أحياناً بدون كلمات ، لأن حاجاته الأولية واضحة مفهومة من غير كلمات . وكان أبوكَ في لحظة ضعف مماثلة ، قد اشترى له جورباً صوفياً ، فأخرجه من جيبه ، لبسه على قدميه الدافئتين النظيفتين ، ووضعهما في الحذاء السميك النعل . ولتسقط أوحال اوربا كلها ! وشكرا بانحناءة من الرأس ... هناك أشياء ياولدي ، لاتحتاج الى لغة .

سكت الرجل ، فقال حسان :

ــ انظر الى ذلك الولد على بعد سريرين مني ... أنا نتحدث معه بغمزات العيون . ولم يقل بالاشارات . وفسر ثابت ذلك تفسيره الخاص . كانت اليد اليسرى السليمة مستقرة على خده ، والأخرى خلف البطانية .

أضاف حسان :

ــ إنه يعض لسانه ، ولايتكلم .

نظر ثابت الى الصبي . كان أشقر الشعر مورد الخدين ، عيناه تلوحان من بعيد كنجمتين وضيئتين رماديتين ، وقال ليضفي على المحزن طابع المفرح :

ــ ولماذا لايستخدم عينيه ، إذا كان له مثل هذين المشعلين الوهاجين ؟ سلك الاشارة . أتعرف سلك الاشارة ، ياحسان ؟ انه فرع مهم في كل جيش يستخدم لغة بليغة .

ــ أما هذا الراقد الى جانبي فيقاسمني كل ماتأتي به جدته من مربى وكعك وحلويات ، وأعطيه أنا ماتجلبه من فواكة ، فيقول عندي .. جاؤا به من القرية ، اصطدم به موتوسيكل ، رماه في الساقية بين الاشجار ... رجلاه ...

التفت ثابت ، فرأى الصبي يبتسم ، وكأنه يشعر بأن الحديث يدور عنه ، ولكن لايدري بالضبط عن أي جانب منه . وكان صدره المكشوف قليلاً يبدو من تحت البطانية ممتلئاً عريض المنكبين ريان مترعاً بدم الصبا .

ــ صار لك أصدقاء ، ياحسان ... ستعرف عنهم الكثير ، ويعرفون عنك الكثير . وهذا أساس الصداقة ... المشتركون بمصير واحد أكثر ألفة من الآخرين . وستلعب معهم وتمرح . هل **تتذكر كيف كنت تلعب مع أصدقائك في بغداد ، عند الشطيط ، ووراء دارنا ... تتذكر ؟ تتذكر ؟**

ألح عليه بالسؤال يريد أن يحرك ذاكرته الراكدة مثل ماء نهر الخر الذي يسمونه بالشطيط في محتلهم، لما لم يجد غير الصمت رفع بصره الى عينيه فرآهما غائبتين عنه، تحدقان في نقطة شائعة تبحثان عن شيء مفقود في مجاهدة وعناء فأراد أن يساعده على التذكر.

ـــ كنت، ما أن تأتي من المدرسة، وتتغدى حتى يبدأ نشاطك الاخر... نشاط عفريت، فقد كنت تؤجل دروسك للمساء. كنت صياداً ماهراً لتلك المخلوقات الزلقة المسماة بالضفادع، المنقنقة الناطة على الشطيط. وهو نهر راكد تكثر فيه الضفادع، ويقال أيضاً وثعابين الماء، ولكن أحداً من لداتك، ولا الأكبر منهم قد اصطادها... أما الضفادع فكانت أكفكم الصغيرة تعرف كيف تمسكها، ولاتنزلق من بينها. وكنتم تتاجرون بها... أعرف ذلك اعرف... مع تلاميذ الصف الثاني أو الثالث المتوسط، ليشرحوها في درس الأحياء... تتذكر، بالطبع، تتذكر... كنتم تتبادلونها معهم بأشياء غريبة من مخلفات الأجداد. أنت تتذكر صندوق الساعة الحائطية الفارغ الذي جلبته الى البيت في احدى غزواتك، وكأننا لانملك ساعة، وحملته كما يحمل صندوق كان عتيق، ووضعته قرب سريرك أولاً، ثم صرت تبعده عنك، كلما فترت رغبتك فيه، حتى وصل الى أقصى الحديقة، حيث أكياس السمنت الفارغة، وهيكل ماكنة خياطة مستهلكة، أقصد الماكنة، التي تدار بالرجل، وبريمس عتيق موروث من جدتك التقية فاطمة بنت عبود. وكنا نرى كل ألاعيبك ونعاتبك عليها أحياناً، ونصرف النظر عنها أحياناً أخرى... إلا في تلك المرة التي اجتمع فيها حي دراغ كله ثائراً ضدكم... أنت تذكر، بالطبع... وكان أحد تلاميذ المتوسطة المسمى حسون مطلق، اعترف، على أثر ضرب تلقاه من يدي أبيه ـــ من اسطوات البناء القدامى ـــ بأنه اشترى منك، ومن صاحبك علوان ضفدعة لتشريحها، ليروا كيف يظل قلبها ينبض بعد التشريح وقتاً طويلاً. وكان هذان العفريتان قد سمرا رجليها ويديها بدبابيس على قطعة من الخشب المعاكس، وشرحاها، وشقا بطنها، وتأكدا من أن القلب، بالفعل، ينبض بعد التشريح، لما شبعا من النظر الى هذه الحقيقة العلمية، وصمت القلب أخيراً... وقف لايعرفان ماذا يفعلان بجهدهما المشترك، بهذه التحفة المثبتة بأربعة دبابيس... عندئذ سلماها لك ولحسون، بلا مقابل، فأخذتماها فرحين، ككل شيء يعطى بلا مقابل... وبعد أن امعنتما النظر فيها، وقلبتماها ظهراً على قلب، زهدتما بها أيضاً، ولم تعرفا، ماذا تفعلان بها، وأيديكما لم تطاوعكما على رميها، وأخيراً استقر رأيكما على أن تستخدماها كشيء يثير الفضول، فثبتماها، في آخر المساء، على واجهة دكان عباس الجيال، بائع الخضروات في شارعنا... وحين جاء هذا الرجل في الصباح الباكر، في سيارته « البيك آب » المحملة بالخضروات، وجد شيئاً غريباً على دكانه... تفرس فيه... لم يفهم شيئاً منه، وكانت أمعاء الضفدعة لحقت أن تسقط، ولم يبق منها إلا تشكيل غريب غير معروف للناس الاعتياديين، مثل عباس الجيال، فقال لنفسه: هذا سحر... هذه تعويذة شر وضعها لي ذلك الذي جاء

ليشتري مني دكاني « سرقفلية » فرفضت والآن جاء ليخرجني بقوة السحر والشياطين ... فراح يصرخ في الصباح الباكر : ياناس، سحروني، سحروني ... يريدون أن يشردوني ! فجاء الناس متراكضين ... ومنهم من جاء للشراء بحكم العادة في الصباح الباكر ليجد الخضروات طازجة. ومنهم من جاء للفرجة ... تجمهر أهل الشارع كلهم وعابروا السبيل يتفرسون في هذه التعويذة التي لحقت أن تسود خلال الليل وتتقعور ... ولم يكتشف أحد شيئاً منها، لأن أشجع واحد منهم لم يقترب منها أقل من متر. وظلت الضفدعة معلقة حتى جاءت شرطة النجدة، فرفعتها بطرف حربة، فسقطت الخشبة على الأرض، وأفلتت الدبابيس، وانقلبت الضفدعة المستشهدة في سبيل العلم على ظهرها. وعرف الناس سر المسألة. واتهموا أولئك التلاميذ العفاريت الذين يتصيدون الضفادع من نهر الخر ... وأنت أولهم ! أشاروا اليك باصبع الاتهام ... وجاء عباس الجيال يشكو منك ... انظر ماذا فعل ابنك بي ! وأنا الذي أريد منفعتك، أنا الذي كنت أريد لك أن تشتري سيارة بدلاً من أن تنحشر في باص عمومي، وأنت الرجل المحترم المثقف. وأعذرت له، وقلت سأعتقبه. ولكن مازلت مصراً على رفض عرضك الكريم. وكان عباس الجيال هذا، وأنت تذكره، ذلك الرجل الضخم الجسيم الشبيه بجاموسة تمشي على رجلين، يملك سيارة يشغلها تكسي، وحصانين يركضان في سباق المنصور، ويربحان الكثير. فجاء لي ذات يوم، وقال لي : عندي حصانان في الريسز، سيربحان غداً بالتأكيد. فلماذا لاتشنص عليهما. الدينار بثلاثين. قلت : ياأبا فلان، اعفني من هذه الشغلة، أنا لاأزاول القمار. فقال : وهل تعتبر ذلك قماراً. هذه رياضة، وأنا أريد أن انفعك. بالفعل ربح الحصانان، ولو كنت قد شنصت عليهما لربحت أكثر من ألفي دينار. ولكنني فضلت أن اشتري تلك السيارة العتيقة لقاء ستمائة دينار بالتقسيط، والدفعة الأولى مائة وخمسون ديناراً ... تلك السيارة أم الباب المخلوع، المصبوغ بالارجواني، غير صبغها الأصلي ... عربانة برشقة، ولكنها تمشي بالبنزين. أنت تذكر بالطبع، كنت آخذك فيها الى اوروزدي باك ... ومعرض بغداد الدولي، ومنتزه الزوراء ... ورفع ثابت حسين بصره الى ابنه، فرآه يبتسم، فشع في داخله فرح بلوري، وانغمر هو الآخر في تذكر جزء من حياته عزيز عليه، أيا كانت تبدو الحياة كدحاً متساوقاً ... مجرد عملية حسابية ... كسب، وصرف مافي الجيب، وعلى الله التكلان.

بعد فترة صمت غير مقصود قال ابنه :

ــ باري ...

ــ باري ؟

ونظر الى ابنه. كان جفناه مسبلين.

ــ الحيال ... تقصد ذلك الذي كان يخلف أباه في الدكان بعد الظهر، ذلك الفأر ؟

ــ هو.

ــ عظيم ... ذلك الفأر ابن الفيل، كما كنا نقول ...

ضحك الصبي ... ربما عاد الى ذاكرته ماكان الناس يقولون عن ذلك الصبي الضئيل الجسم، ابن عباس الجيال، شجعه أبوه :

ــ عظيم ياحسان، قل كل مايرد على خاطرك ... أعد على نفسك كل حياتك السابقة ... حتى ... حتى ... حتى تلك السكائر التي كنت تسرقها من علبتي، تعطيها لحمزة صانع الكواء ... ليدخنها، وينظف صدره، كما كان يقول لك، باعترافك أنت. كنت أشك في أنك كنت تدخن السكائر، فكنت أقربك مني، وأقبلك من فمك، حتى أتيقن من الرائحة ... كنت تأخذ سيكارتين أو ثلاثاً، وتتصور أباك لايحس بها بين سكائره الكثيرة ... بينما كنت لاتعرف أنني كنت أعد السكائر التي أدخنها في اليوم الواحد لأقلل من التدخين، على أمل أن أتركه ذات يوم، في المستقبل المنظور، وقد تركته بالفعل ...

وامتلأ الرجل فرحة من ذلك التواشـج العضوي الذي نما بينهما. وكان يود أن يقول أشياء كثيرة أخرى، مشتركة بينهما، لولا أن الممرضة جاءت وأخذته منه وعند انصرافها همست له : البروفسور كوزين يريد أن يراك ...

كان مكتب البروفسور غرفة صغيرة فيها منضدة كتابة بنية فاتحة، وكرسي وثير عريض واحد، وعدة كراسي أخرى اعتيادية وعلى الجدران تتدلى صورة المخ بفلقتيه البارزتين بلون وردي زاه. نظر ثابت الى الصورة نظرة خاطفة، واقشعر بدنه.

ــ اجلس، تفضل، كيف الأحوال ؟

ــ شكراً، لابأس ...

ــ لماذا لابأس ... صحة ابنك في تحسن مطرد.

ــ اعتقد ذلك ...

ــ وبدأ يفكر في ماضيه ؟

ــ نعم صار ينطق بأشياء تخص الماضي ... اعتقد أن عقله أخذ يشتغل داخل جمجمته.

ورمق ثابت المخ المفلوق، وكأنه يرفع نفسه الى السماء طالباً منها الرأفة.

ــ جمجمته !

ردد البروفسور كوزين هذه الكلمة، وراح ينود برأسه. وصمت. وأخذ يلعب بنظارته الموضوعة على المنضدة، مستقرة على أربع نقاط. انتظر ثابت ماسيقوله البروفسور كوزين ... انتظر مرتجف الأعصاب، لأن تلك الكلمة جعلت البروفسور المختص بالجملة العصبية يستغرق، وينغلق على نفسه. وأخيراً قال :

ـــ إن هذه الجمجمة العزيزة تحتاج الى ترقيع.

لم يكن ثابت يعرف هذا من قبل، ففغر فمه في ذهول واندهاش وكأن كل مشاريعه قد خابت. ولعل البروفسور كوزين فطن الى ذهوله، فقال:

ـــ أو بالأحرى الى تجميل... مايزال هناك فراغ فيها لايستره إلا الجلد والشعر، ونريد أن نسد هذا الفراغ، نقي الدماغ من تقلبات الطقس، ومن كل عارض.

ولما رأى البروفسور أن الرجل مايزال يحلق فيه بعينيه المبهورتين المروعتين أضاف قائلاً:

ـــ انها ليست عملية صعبة... الأشياء الصعبة ذهبت مع الماضي، وزالت المحنة، ولكن الصبي مايزال صغيراً، ونحن نعمل، أنت وأنا وكلنا من أجل المستقبل الطويل. وهوّن له الأشياء وقال:

ـــ ولكننا نريد موافقتك... الصبي قاصر. وأبوه الى جانبه، والقانون والعرف يقتضيان منا أن نأخذ موافقتك.

وصمت ليترك الرجل يفكر. قال ثابت اقراراً بالواقع:

ـــ الرأي رأيك... مادام ذلك ضرورياً.

ـــ ضروري جداً للحاضر وللمستقبل، ولطول العمر.

ـــ كما تراه.

ورمق ثابت الجمجمة من جديد. قال البروفسور:

ـــ سنجري العملية في الأسبوع القادم ـــ ومد يده الى الأمام على سطح المكتب ـــ ولكن هذا لايعيق مجيئك كل يوم، والاستمرار في عملك. لاتجعله يسهو. املأ قلبه بالأحاسيس. هل يتجاوب معك؟

ـــ انه ساهم في معظم الوقت.

ـــ لايهم... سيتجاوب.

شكه المخرز، فاستيقظ في الهزيع الثاني من الليل، وتململ وانسل اليه السخط على نفسه. الى متى هذا؟ في الحل والترحال؟ سيأرق الآن ساعات الى أن يأتيه النوم قبيل انبلاج الفجر. وأشعلت هذه الفكرة اللهيب في حواسه. فتح عينيه على سعتها، وأزاح الدثار عن جسده، وقال لنفسه في ضيق، وهو يجلس على السرير: الأرق داء الانسانية، لاالكحول، ولا المخدرات. وزفر في حنق على نفسه. وقال في سره: إذا كانت تريد أن تعذبني، فلابدأ أنا بتعذيبها. وأسند كوعيه على ركبتيه، ورفع رأسه محدقاً في نقطة واحدة. وحاول أن يفكر في شيء، جامداً كالصنم، متنفساً بثقل، ولكن الأفكار راحت تنبع من لامكان، وتغزو رأسه فيطردها، فتعاود الهجوم فيصدها. وظل يصارعها وقتاً طويلاً، إلا أن غلبته أخيراً، فانثالت عليه كالجراد. نفض رأسه للمرة الأخيرة، وحاول أن يتلهى بشيء. تلفت فيما حوله. رأى شيئاً أبيض على الطاولة قرب

السرير. اشعل الضوء، ورأى الظرف المستدير الذي تركه يحيى سليم يوم أمس ليقرأ شيئاً منه. فتح الظرف، وأخرج أوراقاً دقيقة مكتوبة بخط كبير. وقرأ العنوان: « الفروسية المهزومة ». ولكنه ترك الأوراق زاهداً. لم يشجعه العنوان على القراءة. فهو الآن مهزوم أمام الأرق هزيمة نكراء. ولكنه عاد فرفعها ونظر فيها، وقال لنفسه: عجيب! ألا يصلح هذا عنواناً للفيلم الذي ابتكره لحسان؟ هزيمة للافروسية. أم الفروسية استخدمت لتجميل الهزيمة؟ كأن تقول: اساءة غير متعمدة، أو عن حسن نية. ولكن ثابت عاد فترك الأوراق واقترب من النافذة فرأى قرص القمر معلقاً أمامه فوق النهر، مدوراً واسعاً كقرص الشمس، يرسل سجادته المتلألئة عبر النهر، وراء الكنيسة، فتبدو كجسر فضي يربط ضفتي النهر، مأمون لعبور الآخرين من الضفة الأخرى، حيث المصنع الأحمر الممتد كالسور. وبدأ القمر لثابت حسين غريباً مضحكاً، يطل بوجهه المنمش على المدينة الغافية. وضحك ثابت في سره، وقال كم رجلاً مثلي في هذه المدينة. رفع بصره الى القمر، وتأمله وأسف عليه مهملاً خزيان مستوحشاً لايلفت نظراً، ولايوحي إلا بشعور كئيب مقهور. ومع ذلك، فهو مثل أي قمر يطل على نهر أو بحيرة، يرسل بساطه على صفحة الماء للعابرين في الخيال الى دنيا الحلم. وظل ثابت يتملاه، ويتملاه، حتى أحس بالخيبة واللاجدوى من تأمله، وملّ الوقوف ضائعاً في الليل الصامت، فترك النافذة. وقعد على السرير، لايعرف ماذا يفعل. تناول أوراق يحيى سليم ثانية. وقرأ: ايه، أيها الشبح الذي يطاردني... واستقر، وتصور يحيى سليم بصورته الاستفزازية... أي شبح يطارده؟ وعادت اليه لواعجه القديمة. كأنه يخاطبني، كأنني أنا الشبخ الذي يطارده. ربما يعتبرني تشخيصاً للفشل. يصب جام غضبه على من خلاله. وتوجس من مواصلة القراءة، وكأنه سيرى تلميحات لتاريخه الشخصي. هو ترك الأوراق ثانية، وراح يفكر بيحيى... في الثلث الثالث من الليل، يفكر في ذلك الذي أرق الساعات الأولى من الليل، ثم استسلم لنوم عميق. فكر في ذلك الذي كان يقول له: هل قرأت قصة اسمها الشبيه لدستيوفسكي؟ اقرأها وستفهم. الأصل والشبيه كلاهما تتلاطمه أمواج السياسة. فآثر أحدهما البقاء في العراق، ورمت الآخر احدى الأمواج العاتية، فألقته خارج الوطن، يتلمس مورداً للرزق. كان منذ البداية بلا شيء يكسبه بعض الطمأنينة والوثوق في النفس، وقدراً قليلاً من النجاح. فكم سبيلاً طرق، ومحاولة أتى! حاول الدخول الى الكلية العسكرية ليصير ضابطاً يزهو ببزته العسكرية، ويسمع الجنود كلماته، ويقود الوحدات. ولكنه رفض لأسباب تتعلق بشهادة حسن السلوك، ثم اشتغل بوظيفة بمديرية التقاعد بين الأضابير ورائحة الرطوبة العفنة، تماماً عكس طموحاته. وسجل في القسم المسائي في كلية الحقوق، وفي سنته الأخيرة خطب فتاة من أسرة موسرة، كان لعائلتها بيت جميل يطل على دجلة. ولكن الفتاة خيبت ظنه، أو طعنته بالصميم. التحقت ببعثة حكومية الى مصر، ومن هناك أرسلت له رسالة تفسخ بها الخطوبة.

أبعد ثابت حسين أوراق يحيى عنه ، وشعر ، في هذا الهزيع من الليل ، بصحو كأقبح مايكون الصحو . وتذكر ليالي مؤرقة أخرى عاشها في ظرف آخر ، ليالي كان ينام على الأرض ورأسه الى الحائط ، والأنفاس تتردد ثقيلة فيما حوله ، وطبقات متفاوتة من الشخير . كان يلف جسمه في البطانية الداكنة ، ويشبك ذراعيه تحت رأسه ، وينظر الى السقف الترابي المحدد . وحين يكون الباب مغلقاً من الخارج بالصفائح الفارغة ، كان لايستطيع حتى الخروج الى المرافق — كان الخروج اليها في الليل يعتبر متعة وتسلية ، أيام فك الحصار — فكان يكتفي بأن يلتفت الى الباب الصغير يترقب ذوبان الظلمة من خلال الصفائح الصدئة وطلوع الصباح واباحة الحركة . أما الآن فيستطيع أن يتحرك ! وتحرك . غادر سريره وعاد ثانية الى النافذة ، لم يعد القمر وحده ينير الأرض ، بل أخذ لون رمادي باهت يشع من الأرض نفسها ، نابعاً من لامكان . وبدا القمر معزولاً تماماً ، كخائب الرجاء ربما كيحيى سليم ، حين تلقى تلك الرسالة المشؤومة من خطيبته السابقة تعلن فيها انعطافاً آخر في مجرى حياته . وحاول يحيى سليم محاولات أخرى ، في ميادين أخرى ... حتى رسا على الكتابة . كتب المقالات اللاهبة الساخرة ، والقصص القصيرة عن شبان خائبين مثله يطعنون طعنات أليمة من مخلوقات قاسية متخشبة العواطف ، بل وجرب حظه في المسرحيات من فصل واحد ، كل ذلك ليجد له مكاناً تحت الشمس ، على حد ذلك التعبير المقتبس من فيلم سينمائي كان شائعاً في ذلك الوقت ... أو أن يكون فارساً ، على حد تعبيره هو ، الآن بعد تلك المسيرة الحافلة بالمطبات . وشعر ثابت حسين باشفاق اليم على صديقه .

ترك ثابت النافذة ، واستلقى ثانية على فراشه ، وشبك أصابع يديه تحت رأسه . وفكر مع نفسه تفكيراً آخر ، وقال : لا ، لا تسرف في ادانتك لصديقك ، ولتصويره بالصورة المعاكسة لك فتثبت بذلك صحة نظريته في الأصل والشبيه (أينا الأصل واينا الشبيه) تلك هي المشكلة ! تعظه بأن يكون لحياته مردود . وأنت ، هل لحياتك مردود ؟ ربما هذه كلمة تقال للآخرين ويراد بها تشجيع النفس لاغير ، لم شتات الثقة بها ، خوفاً من الشلل أو الانهيار ... ذينك الشبحين اللذين كنت مثل العديدين من أصحابك وغير أصحابك تخاف أن يسير أحدهما وراءك كظلك ... الأفضل أن لاتفكر بذلك ، واترك الرجل يجرب ويعيش ... الأفضل لك الآن أن تضع لك برنامجاً آنياً نافعاً ، أن تقهر الأرق ، وتستسلم للنوم .

وقال ثابت حسين بصوت عال في الغرفة المظلمة :

— هيا ، يانوم ، أرجوك ، أنا متعب .

واغمض عينيه ، وارخى مفاصله ، وتقمص بكل توتره النفسي ، هيئة النائم ، الخالي الذهن من كل فكرة ، بل وتثاءب ، وانتظر ... انتظار الملول ... بدأت الصور تتراكض في ذهنه كالفئران المذعورة . طردها . عادت استرخى لها ... جعلها تطغى عليه ... أليس ذلك الشعور

الغريق في أحضان النوم.

وفي تلك الأثناء كان صالح جميل قد استيقظ ملتهب الجوف، لزج الفم، فمد يده الى يساره، دون أن يفتح عينيه ــ جفناه ثقيلان ــ وتلمست يده قدح الماء على الطاولة الصغيرة الى يمينه، حتى وجدته، فرفع جسمه على كوعه، وشرح يعب الماء، وعيناه ماتزالان مغمضتين. حتى أتى على مافي القدح، ووضعه في مكان قرب الطاولة وسرح جسمه، وتكور واستسلم لمفعول بقايا الخمرة في معدته. وجاءه النوم هيناً مطواعاً... بينما كان يحيى سليم يتقلب منزعجاً من شيء ماجعله نصف مستيقظ، ثم تضخم ذلك الشيء المزعج في داخله حتى استيقظ تماماً وتذكر حينذاك الشيء الذي أثار ازعاجه، وجعله يستيقظ... وراح يفكر في الحلم الغريب الذي انتهى باستيقاظه. رأى نفسه، في الحلم، يقود ابنه فريداً من يده، ويسير في أحد شوارع مدينة عربية شبيهة ببغداد، أو بغداد نفسها، ولكنها مشوهة. وكانت نادية قد دخلت مخزناً للملابس، ولم تخرج. وكان يسير مع ابنه على مهل لتلحق بهما. ولكن الانتظار يطول، يحيى يتضايق ويقلق، وفريد يوشك أن يبكي. وذاك هو الذي أثار ازعاجه. فقد كان قبل لحظات منسجماً معه غاية الانسجام، ومتبادلاً معه الحديث برقة. يضطر يحيى الى دخول مخازن غريبة بحثاً عن نادية، ولكن المخازن نفسها مزدحمة وفي فوضى، ولايستطيع فيها أن يشق طريقه. وفجأة يلتفت يحيى سليم فلا يجد ابنه... ضاع في الزحام. رفع يحيى سليم جسمع على كوعه، فرأى الأشياء القليلة في غرفته قائمة في أماكنها، والنور ينهال من النافذة العارية. وانقلب علوان شاكر على جنبه الآخر، فأحس بدفء حريري يدغدغ صدره، وأسفل بطنه، دبت رعشة في جسده، وأعادت له بعض حواسه. كان الجسد الممدد الى جانبه يشع حرارة وأيقظ نداء غريزياً في أعماقه. فالتصق بمصدر الدفء التصاقاً تاماً، ورفست رجلاه مرتين أو ثلاثاً، وارتمت ذراعه فوق الجسد. تبعت ذلك حركات. وهمس علوان: آه، ياعمري، ياعمري... وغاب في لذة عجماء. ثم استرخى مغمضاً عينيه، هامداً معقود اللسان... وبقي على هذه الحال حتى سمع النائمة الى جنبه تقول:

ــ ترى، ماذا كنت تقول للأخرى؟

عادت اليه بعض الحركة. سحب جسده. ولكنه لم يتكلم، حتى قالت ثانية:

ــ ها، علوان، صحيح ماذا كنت تقول لها؟

تأوه طويلاً:

ــ أو ووه! رجعنا عليها؟

ــ لاأصدق بأنها كانت خلوة بريئة، وأمامكم أم الكبائر... لاأصدق.

ــ طيب، لاتصدقي. ماذا أفعل لك أكثر؟

صمت... ثم:

ــ كنت أتصورك تنتظرني في المطار.
ــ لم تصلني البرقية.
ــ ضاعت؟
ــ لاأعرف... أسألي البريد... ستنغصين حياتي.
انتفضت وقعدت على السرير.
ــ انغص حياتك؟ بهذه الكلمة تجابهني؟ جئت اليك لأعرف صدق عواطفك التي كنت تسكبها في أذني. صدقت بالرسائل التي كنت ترسلها لي من سوريا قبل الزواج... جئت أعرف من أنت، ياأبا العواطف المزيفة.

وحتى الساعات الأولى من النهار مضى ثابت حسين مايقرأ في: « الفروسية المهزومة ».

« ... أتذكر أنك قلت ذات يوم: مادام الأمر تم وانقضى فلماذا لاتجرب حظك مرة ثانية، أنت أبو التجارب. جرحتني. يعني الحب أيضاً خاضع لاجراء التجارب عليه. يعني، مثل المبادىء، الأحزاب، المنظمات، إذا انغمست بواحد أو واحدة ولم يعجبك أو لم تعجبك استبدلته مماأنت معه بآخر غيره؟ أهذا ماتقصده؟ الحب لاتنطبق عليه هذه الممارسة الموجودة فعلاً. أو على الأقل بالنسبة لي، أنا المهزوم دائماً، تصور! عندما أفشل في حب، أظل أحس بوخزات في وجداني. ولذلك، ومن أجل خاطرك، ياصاحب البوكس الحديدي، حاولت في البحر أن أجرب حظي... وسخر مني القدر هذه المرة أيضاً. وسأقول لك كيف.

ذات مرة، وأنا مستلق على الساحل، ورجلاي يداعبهما الماء، أراقب رئات البحر البيضاء والبنفسجية، من شتى الحجوم تتنفس، وبتنفسها تتحرك غائصة الى العمق، وطالعة بكل شكلها الشبيه بالفطر، وصغارها ترتمي على الساحل كفقاعات الصابون الكبيرة، أحسست بشيء مطاطي حار يصطدم برأسي من الخلف. رفعت رأسي، وغرست مرافقي في الحصى. ورأيت كرة مطاطية بالأزرق والأبيض تستقر بالقرب مني أمسكتها. تلفت يميناً وشمالاً. بعد قليل رأيت طفلاً صغيراً عارياً ربما هو في الثالثة من عمره يتدحرج نحوي، كان يمد ذراعه نحوي. اللعنة! تصورته فريداً في حين كان في سن لم يسعدني الحظ بأن أراه فيها. كان الطفل يمشي بصعوبة على الحصى الناتىء المصلصل. ولما تركتها له لم يلحق أن يمسكها أو يحتويها بذراعيه فتدحرجت نحو الماء. نهضت، وأمسكتها له، وأعطيتها إياها. القاها في الماء عمداً. انتشلتها من الماء، وأعطيتها له. ألقاها، أمسكتها وأعطيتها له. وهكذا ظل الطفل يعبث معي، وأنا أجاريه، وأشعر بلذة من مجرد أن أنتزع ضحكة من فمه. الصغير وصرنا نلعب بهذه الصورة وقتاً لاأعرف كم، وأنا فرح، وكأنني ألعب مع فريد. ولكن في أعماقي كنت أحس بأن أحداً يراقبنا، أمه أو أباه، مما شجعني على أن أتقن عملي. والطفل راض مسرور ضاحك. ولما تعبت من الرواح والمجيء. والطفل واقف في مكانه، أمسكت بالكرة، واستلقيت في مكان أناكفه، بكى الطفل.

في تلك اللحظة سمعت صوتاً نسائياً يناديه من ورائي: اليوشا!، وحين التفت رأيت فتاة في لباس بحر مورد تقبل نحونا تحمل في احدى يديها كعكة، وفي الثانية «ايس كريم». خجلت. بررت تصرفي بكلماتي مفككة.

ــ كنا نلعب، فتعبت أنا ولم يتعب هو.

قالت:

ــ دائماً هو هكذا.

وشكرتني، وقادته عبر زحام الأجساد الى مكان في أعلى الساحل المنسرح. عدت الى وضعي السابق. رأسي على الحصى، ورجلاي في الماء. ظلت صورة الطفل والفتاة المنحنية عليه مسمرة في خيالي بألوانها الطبيعية الجميلة. لم تكن تشبه نادية في قليل أو كثير، ولكنني، الملعون، تصورتها هي! ربما كان سيحدث، أو حدث لهما بالفعل ماحدث لي مع الطفل والفتاة. وربما دارت في رأس ذلك الرجل المتخيل أفكار رعناء كتلك التي دارت في رأسي لحظتها. لملمت نفسي وغادرت الساحل. ولكن من سخرية القدر انني، وأنا أدخل المطعم على الساحل، سمعت صوت طفل يقول: «عمو». التفت فرأيت الطفل وأمه ورجلاً آخر لابد أنه أبوه يجلسون على مائدة مجاورة. حييته باستحياء، وحييتها. في ذهني ربطت هذا النداء بذلك النداء الآخر اللعين، وتقلص قلبي في صدري. صارت هذه الـ «عمو» تغيظني بشكل عنيف، لأنها تربطني، من حيث لاأدري بقصة مأساوية. اخترت غذائي، ورحت افتش عن مكان، وإذا بالفتاة تومىء الى بذراعها أن تعال اجلس معنا. هناك مكان شاغر. ولما اقتربت ووضعت الصينية على المائدة كانت هي تسقي الطفل آخر جرعات قدح الفواكة المنقوعة. وبعد ذلك نهضت، وتمنت شهية طيبة، وانصرفت مع الطفل، وبقيت أنا والرجل...

ترك ثابت حسين قراءة الأوراق بينما كانت زوجة علوان في جانب آخر من المدينة تقول لزوجها:

ــ أنا ذاهبة. أريد أن أرى المدينة. أشم هذا الهواء العطر. وربما أجرب حظي... بس أنت وحدك؟

صاح بها علوان.

ــ أحذرك من هذه النغمة، أحذرك عن جد.

وكانت رسمية قد لبست ثيابها، وتزينت للخروج. قالت:

ــ أنا ذاهبة الى الفندق لوحدي. أريد أن أتعرف على المدينة لوحدي.

وهبطت الى الشارع، وأذهلها أن ترى بنات جنسها يسرن بحرية واحتشام، مندفعات الى

غايات جادة، متحديات، مرحات، خفيفات الظل، لسن بحراسة رجل. وأعجبها أن تركب حافلة كهربائية كانت تسوقها امرأة، ليست بالقياسات التي الفتها بالطبع، ولكنها امرأة على أية حال، في عهدتها أناس من بينهم رجال، امرأة شجاعة، تأمر وتنهي، وتقود، وتتحدث بمكبر الصوت وشجعها هذا كثيراً، وخفف احساسها بالضياع، وحبب اليها مع هذه القوافل من الناس، في هذه الشوارع العريضة الزهراء الى مانهاية، وتتكلم مع تلك الفتاة الموردة الخدين، أو مع هذا الرجل الأشقر الباسم، وكأنه ذاهب الى لقاء سعيد، ليس كلقائهما مع زوجها، أو تتأرجح في تلك الأرجوحة التي كان الأطفال يتأرجحون فيها في حديقة صغيرة.

وفي هذا الوقت كف يحيى سليم عن سماع نشرة الأخبار. لاشيء جديد في هذا العالم. قال لنفسه: عبثاً أن استجدى جديداً من سماعي لنشرات الأخبار. فمن يدري ربما الجديد الحقيقي لايذاع في نشرات الأخبار. من غير الممكن أن يعقم العالم هذا العقم القاتل الجديد يولد كل يوم، في مجرى الحياة الصاخبة القلقة المتحركة، بينما أنا أعيش حياتي بين جدران، أربعة، وأقوم بعمل ممل مرهق، وأمني نفسي بأن يهل عليّ شيء جديد، غصن زيتون يأتي به طائر يدخل من هذه النافذة العريضة، ويقول لي: تفضل، هاك الشيء الذي تفتقده في حياتك. مستحيل، أنا أؤمن بالخرافات، من حيث لاأدري. العالم موار خارج هذه الحجرة الزنزانة، خارج الأماكن التي ارتادها، الشوارع التي أطرقها، خارج هذا الروتين المهلك الذي يسمم حياتي. ربما أنا مشوه، من حيث لاأدري، ربما أنا مجنون بحب الوهم، افتقد شيئاً، ولكن لاأبحث عنه، بل انتظر أن يبحث هو عني ويأتي اليّ. هذا محال هذا ضياع. ومرة أخرى تذكر الحلم الذي رآه في الليلة البارحة. وأشعل علوان شاكر سيكارة بعد الفطور، وأحس احساساً فاجعاً بأن زوجته هبطت عليه كالعربيد وأن عنصراً مغلقاً دخل حكياته الآن، في لحظة هو أحوج مايكون فيها لينذر نفسه للعلم مع بعض المرطبات الضرورية لهضم هذا العلم. ملأ صدره بالدخان، وتحشرج صدره، وسعل، وقال: ستقتلني رسمية، وتبدد طاقاتي. أنا مغبون والله. لاأحد يكترث بي، ولايفهم الرسالة الموكلة الي. يؤلمني أنني مغبون بفظاعة، وغريب حتى من زوجتي. لاتفهم أن مالا يحق للخامل البليد يحق للموهوب المبشر بالعطاء... وأفرد أصابع اليمنى بتشنج وعصبية، ووقعت السيكارة في حجرة.

وفي «البوفيه» في الطابق التاسع من الفندق المطل على النهر كان ثابت حسين مايزال يقرأ ما كتبه يحيى سليم، ويهز رأسه، ويقول لنفسه: أقدار! لأن يحيى سليم يكتب: «أليس من سخرية الأقدار أن أترك كل نساء العالم، وأتعلق بامرأة لها طفل؟ كأن الماضي يعاد، يعاد أمامي بصورة هزلية، نكاية بي وسخرية من فروسيتي المهزومة. هذه امرأة أخرى تريد أن تحتمي بفروسيتي المهزومة. سأفشل حتماً. ألم أفشل مع نادية، معك، مع حياتي الماضية؟ حياتي سلسلة من الفشل. ومع ذلك فإن خوض التجربة كان يجذبني اليها؟ أتعرف. انها تتحدث كما

تتحدث نادية تماماً . ذات مرة في المطعم (صرنا نلتقي على مائدة واحدة في الغالب) سألت :
ــ ألا تشترك في الرحلات التي تنظم الى الأماكن الجميلة ؟
قلت بنفور وضيق من وحدتي النفسية :
ــ لا .
قالت :
ــ هذه فرصة سانحة ليرى الانسان أشياء كثيرة .
قلت مستغرباً :
ــ مثل أي شيء ؟
ــ البحيرة الجبلية ، الكهف الطويل ، الدير القديم ، حديقة النباتات . الرحلات أيضاً احدى وسائل الراحة .
ــ وتذهبين اليها ؟
ــ اذهب ، رغم أن الطفل يقيدني . متعتي المفضلة أن أشهد أماكن جديدة ، اكتشف أشياء جديدة ، أرى أماكن ونباتات وأشكالاً جديدة من العمارة . وأتنفس الهواء بكل شذاه الطبيعي .
قلت لها :
ــ أحسدك .
ــ ولماذا تحسدني ، والرحلات ميسرة لكل الناس .
ــ أحسدك على حب التنقل .
قالت ضاحكة :
ــ كل من له رجلان سليمتان ، وبعض النقود تتسير له هذه المتعة . المهم الرغبة . أليست لك الرغبة في رؤية الأشياء الجديدة ؟
قلت بين المزاح المرير والرغبة المجمدة :
ــ عندي ، ولكن أن تأتي هذه الأشياء الجديدة الي ، لا أن أذهب اليها .
ضحكت ضحكة رنانة . وضحك الطفل بالتبعية .
وكان النهار قد أوشك على الانتصاف ، وسمع صالح جميل رنين التلفون ، وهو بين الصحو والمنام . مط شفتيه المتلزجتين من الداخل ، وتكاسل أن ينهض للرد على التلفون ، ولكن الرنين الملحاح كان يزعجه ، ولا يدعه يتابع نومه . ونهض وسار مترنحاً من بقايا النوم ، وخمار البارحة ، والتقط السماعة .
ــ هالو !
كانت أخته في الطرف الثاني من الخط :

ــ عيني، صالح، كيف العمل مع الأغراض؟
ــ أي أغراض؟
ــ بعث الناس معي أغراضاً الى أولادهم هنا. خلطت فيها بشكل لايرحم. سلمت الحذاء لمن أرسلوا له بنطلوناً، والبنطلون لمن أرسلوا له حذاء. ماالعمل؟
تضايق صالح، وقال:
ــ من أجل هذه المسألة التافهة أيقظتني من النوم؟
ــ ولماذا تعتبرها مسألة تافهة... هذه أمانة...
قال في ضيق:
ــ أنا لاأفهم بالاحذية والبناطيل.
ــ بماذا تفهم إذن؟
قال لزج الفم ليضايقها:
ــ أفهم بالشمبانيا... الباردة.
قالت عبر المدينة:
ــ الشمبانزي... شربت منه جرعة البارحة، وطول الليل رأسي لم يتركني أنام... الله يساعدك، أنت.
ــ ويساعدك في الأحذية أيضاً... وقت الغذاء أمر عليك.
وبدأ يحيى سليم يضيق من رصف الكلمات، وصياغة العبارات، وصارت للقواميس روائح القبور. وكانت الشمس قد أخذت تغازله، وتلثم كتفه الأيسر بلسانها الدافىء الأصفر، حين أطلت عليه من النافذة العريضة الخالية من الستارة. ورفع رأسه فرأى القسم الأعلى من الأشجار مثل مظلات خضر تكلكل على الشارع، حيث الناس، والهواء الطلق، والحياة. ألقى القلم على الورق، ونهض وتمطى، وفرقعت عظامه. وقال لنفسه لابد أن أخرج... ولكن الى أين؟
بينما كان صالح جميل جالساً في المقهى بتكاسل، متردداً هل يشرب كأسه الثانية أم يذهب الى أخته الآن. وضع أصابع يده اليمنى على باطن كفه اليسرى، وراح على عادته يتأمل هذه الأصابع القصيرة المتورمة، ويفكر: هل كانت كذلك من قبل أم راحت تقصر مع الزمن؟ من قلة الاستعمال المجدي؟ بدت له، وكأنها تتخلى عنه هذه الأصابع. كانت من قبل أكثر طواعية أتتقلص وتلين، ولكنها تبدو الآن، وكأنها بلا سلاميات. حاول أن يطويها، ويعكف السلاميات. ولكن أحس بالألم وبالتشنج وقال لنفسه: « عجيبة! ستنقطع علاقتي مع أصابعي في يوم ما. انها صائرة الى التيبس. ورفع كأسه الفارغة فارتجفت في يده. وقال لنفسه: لأنها فارغة! » وطلب كأساً أخرى. وبعدها سيذهب الى أخته. وعندما شرب الجرعة الأولى أحس بصحو عقلي. وقال في نشوة: عقلي، عقلي الوحيد الذي يطوعني.

— ١١ —

جاء في اليوم التالي، فرأى جمعاً من الأطباء متحلقين حوله. وقف عند الباب متريثاً، واضعاً أكياس الفاكهة فوق سطح ثلاجة قرب الباب. لاشك في أنهم يتدارسون وضع جمجمته. فكر الرجل مع نفسه: الجمجمة المفلوعة، قال في انتحاب صدري عميق.

لم يكن البروفسور كوزين بين الأطباء، فتركهم يمرون من أمامه ولما غيبهم الباب، رفع الأكياس، وأقبل على ابنه:

ـــ كيف حالك، ياحسان؟

ـــ زين.

ـــ جاءوا يفحصونك؟

ـــ وخزوني بالأبر في وجهي في يدي. ولفوا شريطاً أسود حول ذراعي، ونفخوا، مثلما يفعلون كل يوم. ولكن اليوم على اليدين الاثنتين.

ـــ انهم يطمئنون على صحتك.

ـــ أعرف.

واتكأ على اليد السليمة، ورفع جسده أعلى من المخدة، بقدرة أقوى على التحكم، في جسده، واشرأب بعنقه، وعاين عبر المطر الى خضرة الأشجار المخضلة.

ـــ مطر؟

ـــ نعم، ياولدي، مطر يمشط بنات الجلبى، ويجعل الخضرة أكثر يناعة. وبعد قليل ستنقشع السحب، وتتبدد، وتبرز الشمس، وتجفف الشوارع، وتعيد الى الأشياء ألوانها الأصلية.

ظل حسان يعانق ببصره الدنيا خارج النافذة، وكأنما يترقب شيئاً سيمرق من ورائها. قال كالحالم:

ـــ التمشي لطيف... هيه.

ـــ بعد المطر نعم... انتظر قليلاً، وسنتمشى سوية.

ـــ مثلما في الفيلم؟

ـــ وأحسن...

لم يقل شيئاً ، بل عاد الى وضعه الأول ، منزوياً عن الطبيعة خلف زجاج النوافذ ، وسهم واكتسى وجهه جموداً كالاستغراق . وبعد لحظة صمت فارغة وقال :

ــ لماذا يسميه عمي ؟

ــ من؟ في الفيلم؟ هكذا شاءت الظروف ، ياولدي .

وهل تحسب ذلك هيناً على الولد؟ حتى ولو كان تمثيلاً في التمثيل .

ــ ولكن ... ظل يتمشى معه .

ظل ، كل يوم ... الى أن انتهى الفيلم .

ــ لوحدهما؟

ــ لوحدهما .

قال باستغراب :

ــ ولم يقل له : أنا أبوك الأصلي؟

سكت الرجل ، وأحرج ، ولم يعرف بماذا يرد عليه . بل لعن نفسه على تلك اللحظة الفالتة التي جعلته يقص عليه حكاية بعيدة عن مداركه . ثم قال الصبي مافي ذهنه بقوة اقتناع تام :

ــ يمسكه من يده ، ويقول : اسمع ، يافريد ، ترى أنا أبوك ... وهل تتصور أن الولد لايفرح؟ الولد من غير أب ...

ولم يكمل الجملة ، ولكن سهومه ، ومجاهدته التي بدت بتوتر تقاطيعه المنحوتة ، وعينيه ، في تحديقتهما بشكل خاص ، من خلال أبيه ، الى عالم غير مرئي إلا له ، كل ذلك كان يومىء الى مايطوف في ذهن الصبي . قال الرجل محاولاً أن يجذب الصبي الى منطقه .

ــ نعم ، ياحسان ، كان من الممكن أن يقول له ذلك رأساً ، ولكن لم يرد أن يصدمه . كان يريد أن يكسب مودته أولاً ، أن يحرك نداء الدم في شرايينه . أنا لم أقص لك القصة الى الآخر ، مثلما لاتعرف تلك اللحظات التى تترسخ في الذهن ، لدى مشاهدة الفيلم فلا تحكم منذ الآن . أنا أعرفها جيداً ، منذ البداية ، مثلما أعرفك أنت . كيف جئت الى الدنيا . وكيف ركبت في سيارة صديق لأخذك مع أمك من مستشفى الفردوس . عندنا لم تكن هناك مراسيم . انتظرنا أمك في غرفة الانتظار حتى أهلت علينا ، ووجهها مشرق بابتسامة الرضا بما هو مقسوم ، وهي تحملك لفة بشكل كبة حلب ، ولكن على أكبر . ولم تكن هناك مراسيم معقدة ، كما قلت لك ، بل لم نحمل لأمك زهوراً . بل رزقنا « الداية » بدينار للحلاوة ، وأخذناك ومشينا . كان كل شيء سيكون رائعاً لولا ظروف قاهرة فظة جعلتني وأمك في الشهر الثالث من الولادة ... ولكنك كنت لي كالنجم الهادي تبدد لي ظلام عربات الحمولة لذلك القطار المنحدر خلسة كالافعى

الى صحراء الجنوب . ولأنك ولدت لتعيش ، ولتعيش حياة لايتم فيها ولاضياع . كان عليّ أن أقاوم وأعيش ... هكذا كنت أقول لنفسي ، وأنا ممدد في عربة بضائع مغلقة خانقة الأنفاس ، حيث كان الهواء أثمن من الطعام والماء ، وحيث كانوا يجرون الشيوخ الى خصاص العربات ليستنشقوا هواء الحياة فلا يموتوا . كنا مكدسين في العربة كالأكياس . وكان من المفروض أن ينقلونا الى السماوة . والمسافة بينها وبين بغداد تستغرق عشر ساعات تكفي لأن تخنق أكثرنا قوة وشباباً ، ليصلوا الى السماوة جثثاً هامدة . الى هذا الحد ، ياحسان ، يبلغ الحقد أحياناً . ولكن سائق القطار قرر بسليقته الخاصة أن يضاعف سرعة القطار ، وأن يقطع المسافة بخمس ساعات . هناك ، ياولدي ، أناس يصورون أنفسهم سائقي قطار الأمة والوطن ، ولكنهم يسوقون قطارها الى الجحيم ، والدمار . أما هذا الرجل البسيط ، صاحب عشرين سنة خدمة في سياقة القطارات ، فقد أبى شرف مهنته ، كما أبت كرامته أن يحمل في قطاره أحياء ، ليصل بهم موتى ، فقرر مضاعفة السرعة . ويقال كانت المحطات مندهشة لوصول القطار قبل الموعد المحدد له . ولم يعبأ القطار بذلك . وسار مقداماً حتى وصل الى السماوة ، فقفز من قاطرته ، وصرخ بالناس : ياناس ، ياعالم ، عندي ألف وخمسمائة رجل سيموتون من العطش بعد ساعة ، إذا لم تهرعوا اليهم بالماء والغذاء . وهرع الناس الطيبون اليهم ، كلّ بما في بيته ، ونجا الركاب من الموت المخطط لهم ، وان لم ينجوا من التعذيب . ذلك تاريخ بشع لاأريد أن أسوقه اليك وعندما ستكبر ستعرف ، وتأخذ العبرة . لقد ولدت في سنة من أبشع السنين .

وتنفس الرجل نفساً عميقاً ، وقال :

ــ والآن ، لنعد الى الفيلم .

— ١٢ —

— بابا، أنا اليوم سأحكي لك حكاية ... خذ الكرسي من هناك واجلس.

تناول ثابت الكرسي قرب السرير المقابل، وجلس الى جانب سرير ابنه وتهيأ للسماع، وهو ينظر في عيني الصبي المتألقتين رضى وقناعة.

— قل، ياولدي.

— احكي لك عن الحيوانات، لاعن الناس.

— لابأس. الناس يجعلون الحيوانات تفعل مايريدون هم أن يفعلوه، ويكلمونها بما يريدون هم أن يقولوه.

— زين. كان الثعلب جائعاً فخرج لاصطياد السمك. أحزر كيف يصطاد؟ بذيله. يجلس الى جانب النهر، وحين يلمح سمكة تنط، يلف عليها ذيله الحرك، ويصطادها ... نعم، نعم، بهذا الشكل يصطاد السمك. يعني لاتصدق؟

— أصدق.

— وجلس الثعلب على الشاطىء ينتظر أن تنط سمكة ساهية مسكينة فيلقفها بذيله. ولكنه انتظر طويلاً، ولم تطلع سمكة واحدة ومعدته تقرقر من الجوع. ويئس، وترك مكانه وقال: سأجد لي طعامي بحيلة من حيلي الكثيرة وسار في الطريق، وسار، وفجأة لمح عربة فيها سمك كثير. والصياد عائد الى بيته يغني فرحان بصيده. فقال الثعلب لنفسه: ايه، وجدت مايسد جوعي ويكفي لأيام كثيرة قادمة. والتف على العربة من درب آخر، حتى سبقها، وارتمى في الطريق الذي تسير فيه، وجعل نفسه ميتاً. ولما وصل الصياد الى مكانه، نظر اليه، وهو مطروح، فقال لنفسه حظي اليوم سعيد. هذا الثعلب ميت سآخذه الى بيتي لتصنع زوجتي العجوز من فروته شيئاً يدفئها. ونزل من العربة، وحمل الثعلب على يديه، والقاه وراءه في العربة قرب تل السمك. وسار الصياد يغني بفرح أكبر. ولما وصل الى بيته رأى امرأته العجوز تنتظره أمام الكوخ، ونزل من العربة وهو يهز يديه في الهواء وجاء اليها، وقال: اليوم وفقني الله، فاصطدت سمكاً كثيراً، وفي الطريق وجدت ثعلباً ميتاً فأخذته معي لتصنعي منه مايدفئك في الشتاء. فاذهبي وانزلي كل مافي العربة. ودخل الكوخ ليغتسل، وينتظر أن يسمع كلاماً حلواً من زوجته.

ولكنها دخلت عليه الكوخ مهمومة ، وقالت له : أنت تضحك علي . لاسمك ولاثعلب . والعربة فارغة . وخرج الصياد ليتأكد بنفسه ، فوجد العربة فارغة بالفعل . وقال : آخ ، ياثعلب ، يامحتال ، خدعتني ! وكان الثعلب المكار ، لما تأكد من أن الصياد مشغول عنه بالغناء والفرح ، أخذ يلقي السمك على العشب في الطريق ، حتى لايطلع صوت . ولما انتهى من رمي السمك ، انسل هو بقفزة خفيفة . هذه هي الحكاية ... حلوة ؟

ــ من جاري ... صرت أفهم لغتهم ... وعندي حكاية أخرى .

ــ احكها ، ياولدي .

وختم حسان حكايته الثانية بسؤاله الطفولي :

ــ ها ؟ حلوة ؟

ــ حلوة ...

ــ الثعلب مكار ، بينما الأرنب همه أن يتباهى ، ولكنه صغير العقل ينخدع بسرعة .

ــ وبهذا قال الشاعر : أرانب غير أنهم ملوك ، مفتحة عيونهم نيام . نعم ، ياولدي . كذلك هم الناس . بعضهم ثعالب ، وبعضهم أرانب ، ومن بينهم مخلوقات من المملكة الحيوانية من شتى الأنواع . منهم الذكي ، ومنهم الأبله ، منهم الطيب ومنهم الخبيث ، ومنهم المتواضع ومنهم المتباهي كالطاووس ... وأنت تعرف الطاووس بالطبع كيف ينفش ذيله . فرجتك عليه في العطيفية . كان يتهادى تحت شجرة توت في أول البستان ، أختبأنا أنا وأنت ، وراء الدكة ، وراقبناه يختال ماشياً ، مثل ديك هرم . وفجأة وقف ، ونشر ذيله ، فبدا كالمروحة المصنوعة من أقواس قزح . أنت تذكر . من هذا الريش كان يصنع جبار قنقينة مراوح للسيدات والبنات الصغار ... في زماننا ، كنا نضع هذا الريش في المصاحف ، أيام كنا ندرس عند الملا . وهو شيخ ذو لحية بيضاء يسمى « داوي » فكنا نضيف له صفة على نفس وزن الاسم ، فنقول : داوي أبو ... مع اننا لم نر ذلك الذي نسميه . كان هذا الرجل يختمنا ، أيام الخميس ، بختم في أعلى سيقاننا ، حتى لانسبح في النهر ، ويكشف عليه يوم السبت . ولكن كنا نتحايل ونشد سيقاننا بورق لايتسرب منه الماء ، ونسبح في النهر . إلا أنه كان يحك سيقاننا بأظافره ، فإن طلع خط أبيض كشف سرنا ، ولاتنفع بعد ذلك الايمان الغليظة ، ولعبت « الفلقة » على أقدامنا العارية . ومع ذلك ، فقد كانت « الفلقة » أهون علينا من أن ننقطع عن لعب الطفولة ذاك . فماذا كانت طفولتنا ، ياولدي ، غير تلك المسرات الصغيرة التي نسرقها سراً ، وحلاوتها نابعة من هذا . ولم تكن هناك دور حضانة ، ولارياض أطفال ، وحتى المدارس كانت قليلة ، وبعضها مدارس أهلية ، والموسرون وحدهم ومتوسطو الحال يبعثون أولادهم الى مدرسة أهلية ، حين يتعذر عليهم ارسالهم الى مدرسة حكومية . وكان أبوك ، هذا الماثل أمامك وقد درس سنتين في مدرسة أهلية ، لأن جدك ظن أنه سيفخر بذلك أمام الناس ولكنه كثيراً ماكان يعجز عن تسديد الأقساط في

أوقاتها. وكانت تلك مشكلة منغصة في الطفولة، لأن التلميذ الذي لايدفع الأجور في مواعيدها كان موضع احتقار من المعلمين والتلاميذ على حد سواء، فكان أبوك، حين يتعذر على أبيه، تسديد القسط يفضل الهروب من المدرسة على أن ينادي على اسمه في الصف، وينذر، وتتوجه إليه الأنظار. فكان يهرب من المدرسة، ويتسكع عند محطة القطار في آخر الصالحية، ولايعود إلا مع موعد الغذاء متعباً جائعاً حزيناً متربا، وكأنه قادم من مدينة أخرى غير بغداد. ويقسم على أن لايذهب الى المدرسة حتى يسدد القسط، فتصر أمه على الذهاب، فيهرب ثانية. ومن ذلك الوقت استساغ أبوك عادة الهروب تخلصاً من المشاكل، ومن المواقف الحرجة، ومن التقصير. فكان يلجأ اليها في صباه وشبابه حتى علمته التجربة أن الهروب أو التهرب عادة قبيحة لاتحل مشكلة، ولاتنقذ من مأزق. بل بالعكس تزيد المشاكل تعقيداً. وحين كنت أعود الى المدرسة، ويجب أن أعود أجد الدروس قد فاتتني كثيراً، وأجد نفسي في ضيق وغم أكثر من السابق. ولهذا، ياولدي، يجب أن نواجه الحقائق، ولانهرب منها. والعمل الذي لابد أن نؤديه اليوم يجب أن نؤديه اليوم، ولانؤجله الى الغد. تلك حكمة الأولين، ويجب أن نلتزم بها. فمثلاً (وبلع ثابت حسين ريقه، ونظر الى ابنه، فرآه مصغياً اليه، فوجد الجرأة لأن يتابع) فمثلاً، ياولدي، أمامك عملية يجب أن تجرى لك، ولمصلحتك، فلماذا لاتجريها في الوقت المناسب؟

بحلق الصبي فيه مبهوتاً، وسأل:

ـــ عملية؟ ... أي عملية؟ ... على يدي؟

ـــ لا ياولدي، وعلى رأسك.

قال الصبي كالمذعور:

ـــ مرة أخرى على رأسي؟ أنا ...

وتقلص وجهه ضيقاً، وانعقد الحاجبان الكثيفان في معاناة، وانطبقت الشفتان على كلمة لابد أن تكون موجعة. تابع ثابت يقول:

ـــ على رأسك، ياولدي. لأن رأسك يتحكم في يدك، وهو الأساس. وذا كان سليماً سلمت جميع الأعضاء، وتوفرت لك العافية الجسدية والعقلية... ثم انها عملية بسيطة لاخطر فيها. كل الأشياء الخطرة ولت، ولن تعود... كما أنك تشكو من وجع الرأس، وبعد هذه العملية سيزول الوجع.

قال الصبي مديراً وجهه عن أبيه قليلاً:

ـــ وجع الرأس خف، يوجع قليلاً ويزول.

ـــ لأنك في مستشفى، وفي ردهة مدفأة، وتحت رعاية كبيرة. ولكن أمامك حياة طويلة حياة يحال تعمل فيها وتفكر وتؤدي مايؤديه الناس الآخرون. وهذه العملية تحصنك من وجع الرأس، وتحميك من كل طارىء. لاتخف، ياحسان، لاتخف... أنا معك.

قال حسان بزعل :

ــ ولكن العملية ستجرى على رأسي أنا ...

ــ ليتها تجرى على رأسي هذا السميك القشرة ، الآخذ بالصلع ، ولكن هناك أشياء في الحياة يجب أن يتحملها الشخص المعني نفسه ، ولايمكن نقلها الى الآخرين ، ويجب أن يكون الانسان شجاعاً ليتحمل نصيبه .

سهم الصبي ولم يقل شيئاً ... وبعد صمت محرج لم يعرف ثابت ماذا يقول لينهيه ، قال حسان كالمحدث نفسه :

ــ قلبي أعلمني .... والأطباء يأتون كل يوم ، يفحصونني .

ــ لمصلحتك ، ياحسان ، لمصلحتك ، حتى تخرج من هنا برأس سليم (لم يقل بجمجمة سليمة ، لأن مجرد ذكر الجمجمة يثير هلعه) وأعود معك الى بغداد . ألم تشتق الى أمك ، الى البيت ، الى الشطيط الى المدرسة ولزملائك فيها ... أم تظل هارباً منها مثل أبيك التعيس؟

رف على شفتي الصبي شبح ابتسامة باهتة . قال ثابت :

ــ وباري أيضاً ستجده في انتظارك ، وستضحك ، منه ، لأن ذلك الفأر الصغير نبت له شارب .

— ١٣ —

الآن لم يعد ثابت حسين يقابل ابنه طريح الفراش، نصف مقعد ليقص له أخبار الدنيا، ويعمر ذاكرته بماضي حياته. صار يلتقيه على مسطبة في حديقة المستشفى. وفي غمرة الطبيعة المزهوة، والخضرة اليانعة، والنسيم الشذي. تقهقرت حكاياته وأبطالها، وانزوت في الذاكرة أو نسيت تماماً. ولكن ثابت كان يشعر وكأنه فقد شيئاً كان يتلذذ بالنطق به، فقد لذة الراوية الذي ينسج لنفسه مصائر أبطاله، المستوحين من الواقع. وكالراوي كان يحس بالحنان نحوهم، بالشفقة على خيباتهم. الآن صار يعايشهم ولايروي حكاياتهم. وفي المعايشة مرارة، وفي الرواية احتضان ومسؤولية.

وجد حساناً يجلس على مسطبة في أول الحديقة يتابع صبياناً مثله كانوا يتدربون على الامساك بكرة مطاطية ملونة. وكان يبدو مستغرقاً بكليته في هذه اللعبة. وقف ثابت يراقبه على خلفية بيضاء لشجرة خماسية الزهور تجسّد كل هيكله الأسمر النحيل. كان وجهه مستطيلاً متوتراً مستغرقاً في عملية حماس داخلية. وكان الحاجبان مقطبين في معاناة حادة. وقف الرجل يتأمل ابنه، وهو يتابع عملية استعادة القدرة لأناس مثله، وشبان فقدوا بهذا القدر أو ذاك التحكم بحركاتهم. كان يرفع الابن رجله السليمة، ويحاول أن يبث الحياة برجله الأخرى المعطوبة. وكانت اليد اليسرى الطليقة ترتفع عالياً في الهواء، وتحلق اليمنى نصف تحليق كجناح طائر كسير. كانت هذه العملية تبدو لثابت اختزالاً رائعاً لكل جهاده لاسترداد حيويته كاملة، والعودة الى الحياة الطبيعية. قال ثابت لنفسه: هراء كل ماقصصته عليه، أنا لم أساعده في بناء حياته، بل هو الذي بناها من الداخل بصبره ومجاهدته، هو الذي يصنع عالمه الداخلي، وهو يقطع العملية التي تستغرقه، حتى حانت من الصبي التفاتة، فهتف، بابا وطوق رقبته بذراعه السليمة حين انحنى ليقبله، وتشبث بالرقبة، ونهض من مكانه وقال لأبيه:

— تعال...

سارا خطوات. قال الصبي:

— سأدلك على الأشجار والزهور التي تنبت في حديقتنا. وقاده عبر درب ضيق تحف به أشجار صغيرة تبرز من بينها أشجار فرعاء بيضاء. قال الصبي:

— هذه شجرة كرز، وتلك ذات الفتائل تسمى جيريوموخا. وهناك، تعال. هذه شجرة

تفاح ستتفتح قريباً، وابعد منها شجرة كستناء نادرة.

وظل يقود أباه من يده، ويشير الى بعض النباتات والزهور الصغيرة ويسميها باسمائها، والرجل صامت لايعرف هذه الأسماء ترك ابنه يتكلم وكأنه دليل في متحف في الهواء الطلق. كان يتكلم بحماس خفيض الصوت، وكأنما يخشى أن يلفت الآخرين الى لغته الغريبة. ومن حين لآخر كان يهز رأسه بالتحية لمن يلتقيهم. كان يسير كالمتعثر، ولكن بثقة متجهاً الى نهاية الحديقة. والرجل حائر لايعرف ماذا يفعل. أيوقفه خوفاً عليه من التعب، أم ينقاد معه باندفاعه، الشبيه باندفاع هارب حتى لاح الحائط في أقصى الحديقة، وقال الصبي لأبيه:

ــ تعال نجلس هناك.

وكان يشير الى مسطبة منفردة في ركن. وقال ثابت:

ــ ألا يبحثون عنك؟

ــ كم الساعة، الآن؟

ــ الثانية عشرة والنصف.

ــ بعد ساعة ونصف للغداء.

وجلسا على المسطبة، والمرضى بعيدون عنهم. انهد الصبي عليها مد رجليه الى الأمام، ووضع ذراعه السليمة على ظهر المسطبة، والأخرى المعطوبة في حجره. نظر ثابت الى وجه ابنه. بدا له في نقاب خفيف من العرق، متهدل الفك، متوتر القسمات. ربما ذلك من أثر الجهد الذي بذله لقطع هذه المسافة الطويلة بهذه السرعة. بدا وكأن الحماس نضب منه. استرخى واستغرق في تفكير مركز في دنيا بعيدة عن منال رجل. وخشي ثابت أن يشغله، موفراً له أكبر قدر من الراحة واسترجاع القوى. وأخيراً قال الصبي:

ــ بابا؟

ــ نعم، ياحبيبي.

صمت، ثم:

ــ اريد أن أسافر.

ــ تسافر؟ إلى أين؟

ــ اريد أن ارجع لأمي.

بوغت الرجل، ونظر الى ابنه:

ــ والمعالجة؟

ــ كفاني معالجة... أنا سليم. اريد أن ارجع لأمي.

ــ حسان، أمك دائماً في انتظارك، فلا تستعجل، ولكن يجب أن تعود اليها سليماً.

ــ قلت لك أنا سليم.

ـــ والعملية؟
ـــ خلص قلبي من العمليات. أريد أن ارجع لأمي.
ـــ أمك لاتضيع منك.
همس حسان:
ـــ ستنساني.
ـــ ستنساك؟ أمك تنساك؟
ـــ صارت لها ابنة، وستنساني. تلتهي بها.
نظر الرجل اليه باستغراب، وقال:
ـــ معقول؟ أي طفل يجعلها تنساك، وهي التي تعبت عليك، وربتك، وبكت كثيراً على فراقك، وأرسلت لك الهدايا.
قال حسان:
ـــ كل شيء تنساه في الدنيا، اذا لم تره مدة طويلة ـــ وصمت متردداً ـــ ذاك. ماسمه؟ في الفيلم.
ـــ ولكن هذا فيلم، سينما، تمثيل. ولايحصل في الحياة. ثم من قال انه نسي ابنه.
ـــ تركه يذهب.. ومع السلامة...
ـــ آه، ياحسان، أنت صغير ولاتفهم.
ـــ أفهم، أفهم.
ـــ ثم انني لم أقص لك الفيلم الى الآخر... في آخر الفيلم تصافق الأب والأبن. وبعد الطلعات والخشات صار الابن لايريد أن يفترق عن ابيه.
ـــ عن عمه...
ـــ لا عن أبيه... قال له في آخر الفيلم: أنا أبوك.
سكت حسان متوتر القسمات. وشعر الرجل بأن ابنه سيقول له بعد لحظة: أنت تكذب علي... رأى ذلك من السحابة التي غشيت وجهه ومن تهيؤ الشفتين للنطق بكلمة شك. وأخيراً قال حسان:
ـــ لاأعرف أريد أن ارجع الى أمي.
ـــ اللعنة على أمك ـــ قال الرجل غاضباً مشحون النفس بالشجن ـــ ألا يكفيك أن أكون الى جانبك؟ أعيش من أجلك؟ أيامي كلها تختزل الى هذه الساعات التي أقضيها معك؟ عيب، ياحسان، عيب. أنت لم تعد طفلاً. والمحنة جعلتك تكتسب تجربة، وتتعلم الصبر. الآلام نفسها تعلم الصبر. وأنا أعرف أنك تعذبت بما فيه الكفاية، واستغرب من أنك لم تتعلم الصبر بعد.

مضى الصبي يقول باصرار :
ــ أريد أن ارجع لأمي .
التفت ثابت اليه بكليته ، وعاين في وجهه :
ــ هل حلمت بحلم مزعج هذه الليلة .
ــ في الليل لاأنام ... حتى أحلم .
ــ خائف ؟ خائف من شيء ؟
سكت حسان قليلاً ، وقال :
ــ لاأريد العملية ... ماذا تنفع العملية . رأسي سليم ، ولاأحس بشيء .
ــ ومستقبلك ؟ مستقبلك ؟
قال الصبي بسخرية مريرة ليست لمثل سنه :
ــ مستقبلي ؟ هيه ...
ــ لاتشك في مستقبلك ، ياحسان ، الشك دودة تنخر في جسم الانسان وتأكله من الداخل . كل شيء إلا أن تشك في مستقبلك كم تحدثنا وروينا الأقاصيص ، ضربنا الأمثال ! والآن تشك في مستقبلك !
ــ كنت تفعل حتى لاتنسيني أهلي ... والآن مشتاق لهم .
ــ لا ، ياعزيزي . كنت أريد أن أملأ نفسك بالأيمان ، بتحمل المصاعب ، لتخرج سليماً قوي العود ، عامر الذاكرة .
ــ ذاكرتي جيدة . هل تريد أن أقص عليك كيف وقع الحادث ؟
ــ لا ، لا ، لاأريد . اترك هذا من ذهنك . راح وانقضى . أهذا الذي يروعك ؟
ــ لا ، أريد أن أعود الى البيت . ضقت من رائحة المستشفى ، والطعام الثقيل ، والشخير ، والموتى ينقلوهم في الليل . لاأريد أن أبقى .
سكت الرجل معذباً . ثم بدأ بداية جديدة :
ــ طيب ، وصيف العراق الجهنمي الآن ؟ كيف ستتحمله بـ ... بـ ... (وكاد يقول برأسك المفلوع) ... بصحتك الضعيفة الآن . المعافون ينهارون عصبياً في حر الصيف في العراق ، فكيف بذوي الأعصاب الرقيقة ؟ ستقضي الصيف هنا ، وفي الخريف نعود . أنت تعرف خريف بغداد الوديع ...
ــ الى ذلك الوقت ؟! أوه ...
ــ الوقت يمر سريعاً ، ياحسان أسرع من أسرع نهر في العالم . والسعيد من يعرف كيف ينعش روحه بقطراته المنسابة . بعكس الذي يشعر بثقل الوقت وطوله ، فإنه يفقد القدرة على الحركة ، ويصاب بآفة الملل ، وتضيق به الدنيا يجف لديه الشوق الى رؤية ماحوله ... تأمل ،

ياحبيبي ، هذه الدنيا فيما حولك ــ ونشر ثابت ذراعه فيما حوله ــ هذه الأشجار والزهور التي سميتها كيف تتغير وتتبدل كل يوم ، تأمل هؤلاء الناس فإن لكل واحد منهم قصة ، وسترى أن الوقت يمر سريعاً . وبعد انقضاء الصيف سأعود بك الى أهلك ، والى مدرستك ، حيث ستستقبلك بالزهور .

ــ بالزهور ؟

وأدار حسان وجهه في ضيق .

ــ ماذا تريد ، إذن ؟

سكت لحظة ، ثم قال همساً :

ــ اريد أن ارجع كما كنت ...

— ١٤ —

في المساء، والغرفة الضيقة بنافذتها الثلاثية تبدو كحجرة معلقة في الهواء بلون الشفق حوافيها اليسرى، كان ثابت حسين جالساً على مقعده الأحمر العالي الظهر، يتأرجح عليه بحركة رتيبة عابثة خالية من المتعة، تبدو وكأنها لتهدئة الأعصاب لاغير. وأعصابه لم تكن هادئة. كانت حالة ابنه، وتلك الانتفاضة اللاارادية تزعزعان الاشياء أمام بصره. حاول جاهداً، في خلوته المضنية هذه، أن ينفذ الى عقل الصبي، ويعرف ماالذي يقلقه بالضبط: أن يجيء لأمه طفل سليم تنسى معه ابنها الآخر المعطوب؟ أم لهفة الخروج من حالة الاضطرار هذه، أم الخوف من ذلك العالم الذي سيعود اليه، في كل الأحوال، معافى أو معلولاً. فالانسان، ولاسيما الصبي في عمره، لايمكن أن يألف المستشفى، والحالة الطارئة. يريد أن يعود، ولكن بأية حالة يعود؟ ربما هذا السؤال هو الذي يقلقه... نعم، هذا وتذكر ثابت حسين كيف انتفض ابنه، حين قال ستستقبلك مدرستك بالزهور. قال: لا، أريد أن ارجع كما كنت... أوه، ليته يضمن له ذلك، ولو من باب قصصه الخيالية التي ظن أنها تنسيه واقعه، وتعيده الى حياته الأولى. ولكن الرجل بعد أن صمت، وفكر طويلاً، عاد يقول لنفسه: لماذا تظن ذلك؟ ألم تحرك فيه الشوق الى الأشياء؟ ألم تربطه ... نعم... ربطته. وفكر بفرح منغص كيف ذكر ابن يحيى سليم في موقف الدفاع عن الفكرة التي تلح على ذهنه... فكرة خاطفة، بالتأكيد، ومن خيال الطفل، ولكن فيها نوعاً من المشاركة الوجدانية، ومن المنطق، ومن الخوف من مطبات الحياة، ومن العودة الى العالم خارج المستشفى... ومن... ومن وزفر ثابت حسين فرحاً بمسار أفكاره.

اكتست الأشياء في الخارج زرقة رمادية بسبب سماء مغبشة، وأضيئت الأنوار دون أن تضيء إلا لنفسها، وبدت الكنيسة في الأسفل نموذجاً مصغراً للعمارة في متحف. وشعر ثابت

حسين بوحشة تضغط على صدره. خطرت نفس الفكرة في باله، حسين كان يخلو البيت من أي انسان، وهي نفس الفكرة التي تجعله يخاف أن يوصد باب حجرته من الداخل، ولايسدل الستائر الخوف من أن يموت وحيداً، لايكتشف أمره إلا من رائحة جثته المتعفنة. ربما هو في ذلك الخوف، مثل يحيى سليم الذي يحب أن ينام والستائر مزاحة ليشعر بالصلة بينه وبين العالم خارج حجرته، كما قال له ذات مرة.

وأراد ثابت حسين أن يربط نفسه بصديقه أو يتلهى بأفكاره الهوجاء عن أفكاره القاتمة، فتناول أوراقه، فتحها، وقبل أن يستأنف قراءتها سأل نفسه: ماهذه؟ قصة أم اعترافات؟ أم زفرة كانت مخنوقة في الصدر لم يجد صاحبها بدأً من أن ينفثها، والا خنقته... فروسية! ولافرق أن تكون مهزومة أو موهومة. وقرأ:

« صرت أنام الى ساعة متأخرة، بعد منتصف الليل. كنت أجلس على الشرفة، والبحر أمامي غامق اللون كحوت هائل. وكنت أراقب النوافذ المضاءة في البيت المجاور... بيتها. أراقبها تنطفيء واحدة بعد الأخرى، وأسأل نفسي: أية واحدة منها نافذتها؟ واحدة من تلك النوافذ المنطفئة بالتأكيد، لأن الطفل ينام مبكراً. وهي؟ ماذا تفعل الآن؟ جالسة وحدها في الشرفة مثلي؟ أم مستلقية على سريرها مفتوحة العينين. وفيم تفكر؟ لاأظنها تفكر في، ولاأظنها! أو ربما... تفكر في فعلاً... كل شيء يحدث في هذه الدنيا الغريبة العجيبة. ألم تأت نادية بعد تلك السنوات من الفراق، لتنبش الماضي، وتنكأ الجرح، ثم تعود، وليس في القلب حسرة، عاتبت نفسي في ضيق: أوه، ماهذا الالحاح على مسألة ميتة؟ امرأة وطلقتها وكفى وكم طلق الناس وطلقوا وسيظلون الآن أمامك خالة جديدة، امرأة مات زوجها في حادثة سيارة، وهي متفتحة تريد أن تحتمي بكنف رجل... وأنت ذلك الرجل المتهيء كلياً للامتلاك. وماالحب الا امتلاك، مثلما هي في كل شيء سواء أكان في عملك الذي تهواه أو الفن، أو الجنس، أو الأشياء الجميلة الخيرة الأخرى. طبعاً، لاأقصد بالامتلاك ذلك المعنى التجاري المبتذل، البيع والشراء، تنازلاً عن شيء لقاء شيء آخر بل أقصد به الاضافة، أن تضيف لك ولحياتك شيئاً باقياً مدفوعاً بقهر الذبول والانقراض في صمت. ولكنني، إذا نظرت الى الحب في هذا المعنى، أجد نفسي بعيداً عنه كل البعد. فإذا كان الحب امتلاكاً، فإن حياتي الماضية محاولات فاشلة لهذا النوع من الامتلاك، لأنني لم امتلك شيئاً، سوى ذكرياتي، بالطبع، وهي عملة محلية قاصرة على وحدي... » زهد ثابت في القراءة فاغفل صفحتين لم يقرأهما وبعد ذلك طالعته هذه الكلمات:

... في الماضي (أوه، مرة أخرى، في الماضي — قال ثابت لنفسه — كنا ونادية نلعب لعبة شبيهة بهذه اللعبة، ولكن في طبيعة غير هذه الطبيعة. كنا نخرج، في أوج الشتاء، الى الغابات، حيث الثلج للركاب، وكنا نضع متاعنا من بيض وجبنة وحليب على احدى الاشجار الغارقة في الثلج، ونبتعد عنها، ونتوغل متلذذين بدغدغة الثلج تحت أقدامنا، حتى اذا تعبنا، عدنا نفتش عن الشبكة التي وضعنا فيها الطعام، على احدى الأشجار، في تلك المتاهة المتشابكة يميناً ويساراً، أمامنا وخلفنا. ومن يعثر عليها أولاً كان يركع للآخر على ركبتيه في الثلج، وكنت أنا الراكع في معظم الأحيان. اركع، اركع، اركع ومازلت اركع. وفي هذه اللعبة أيضاً

كنت أنا الخاسر أيضاً . في البحر الشفاف كزجاج مذاب ، كنا نقف في الماء الى أعناقنا ، وننظر من خلال الماء الى الحصاة التي تلفت نظرنا ونتسابق على التقاطها بعيون مغمضة . وكنت دائماً اخرج حصوة غير التي اتفقنا عليها . اخطىء الهدف ! بينما هي تسدد ، وتلتقط الحصوة المتفق عليها . وكنت أنا الخائب ، انظر الى وجهها المشرق المغسول بماء البحر ، وأسنانها البيض كالصدف ، ولمعان العينين الرماديتين ، وتورد الخدين ، ونعومة الرقبة الى غير ذلك ... وأقول : أعوذ بالله ، مصيبة ! ... »

ضحك ثابت حسين ، رغم كل مافي قلبه من حزن ، عرف النتيجة مسبقاً، وأية مصيبة يقصد . ألقى الأوراق على المنضدة ، وذرع الحجرة باسماً ، متهلل الوجه ، فقد تذكر وقائع من سيرة يحيى سليم للتعلق بأذيال تنورة امرأة . كان له قانونه الخاص : لن أدخل مطعماً أو مقهى مع امرأة . لأنهن يأكلن ويشربن ... ومع السلامة . وذات مرة رفضت فتاة أن تدخل معه في مطعم ، قائلة : لماذا نعمي عيوننا بدخان السكائر ، ونختنق باحتباس الهواء؟ تعال نتمشى في الحدائق . واعتبرها لقطة . وقال في حينها وجدت كنزاً لاامرأة وفي عشية الاحتفال برأس السنة قال فخوراً : ساحتفل وإياكم مع فتاتي . سآتي بها الى هنا ، واشتري زهوراً وزجاجة خمرة فاخرة . ووقف ينتظرها في محطة باص ، وانتظر ، وانتظر ، ولم تأت . وحين يئس من مجيئها قذف بباقة الزهور في سلة القمامة ، وفتح زجاجة النبيذ ، وراح يكرعها في الشارع على معدة خاوية . وطرق الباب علينا بعد الساعة العاشرة سكران ، منهوكاً ، مخدد الوجه ، منهاراً . وقال كلمته المريرة : « لم تأت » ، وكأنما يقول : « لم أكسب المعركة » . وصب بقايا الزجاجة في قدح كبير ، وجرعه دفعة واحدة . ولم نكن نعرف أنه مصاب بتقرح المعدة ، والا لامسكنا القدح من بين شفتيه . وبعد الساعة الحادية عشرة بدأت نفسه تجيش ، فانزوى في المرحاض يفرغ مافي جوفه . وانقضى العام القديم ، وحل العام الجديد ، وهو هناك ، في المرحاض ، يصارع سكرات القيء المقيت .

هز ثابت حسين رأسه بمرارة ، ودار في الحجرة الضيقة مرتين أو ثلاثاً ، ثم جلس على السرير ، ووضع مرفقه على ركبته ، ووسد ذقنه كفه المعقوفة ، ودارت أفكار متلاحقة في ذهنه لم يستطع أن يمسك واحداً منها لسرعتها . كانت كالنيازك تظهر في ظلمة ذهنه ثم تغيب . استسلم اليها قانعاً ، مثلما يستسلم متخدر لروائح تأتيه عبر أنابيب في فتحتي أنفه . ومضى على ذلك وقت خارج الزمن ، غير محسوب ، أشبه بغيبوبة ، والعين مفتوحة . شلل كامل ، ثم أحس الرجل بأن المضي في هذه الحالة معناه الانسراح الى النهاية ، فنفض رأسه واستيقظ . وعاد يدور في أرجاء الحجرة بخطى جندي متقاعد ، ولما تعب جلس على السرير ثانية ، وتناول أوراق يحيى سليم لاارادياً ، مثلما يتناول المدخن سيكارة عند الضيق ، وقلب صفحات منها ، وقرأ : « هل تعرف أنني أتخيل ، أحياناً ، وسط صمت غرفتي المطبق أنني لطول انكبابي على الورق فقدت النطق ، وان لساني التصق في حلقي (الآن يشاركه ثابت حسين هذا الشعور) ولم تعد له وظيفة غير

توجيه الطعام تحت الأضراس. في تلك اللحظات تنتابني حالات أشبه بالهلوسة أو الجنون. كنت أغلق باب الحمام علي، وأصرخ بصوت عال: ياناس، أنا حيّ. مازلت أعيش، واستطيع أن أتكلم (قال ثابت حسين في ذهنه: ربما سأفعل الآن مثله!) اشتم، العن، أنوح، اضحك، اضع مطالبي في جمل مفيدة، اجد لغة مشتركة مع البشر، اتبادل المشاعر، فكيف أقضي نهاري وحيداً بين الورق والكتب والقواميس وكلها خرساء لاتخاطب الا بالاشارات. والكلمة اذا لم تنطق تفقد مدلولها الانساني، حرارتها. وفي الصمت يزدهر الخوف... ».

أحس ثابت حسين لبرهة بوجع في اسفل البطن، في منطقة الزائدة الدودية. فترك القراءة. الصمت يتكلم بلغة وحشية. هم أن يصرخ ليوقفه. قال سأتلفن لحيتي سليم. لن يكن يحيى سليم في البيت. ترك ثابت جرس التلفون يدق الى مالا نهاية، مروحاً عن نفسه، وعن يحيى سليم في الحمام، ليثبت أنه مايزال حياً يرزق. بأي شيء يرزق؟ بالطعام والماء وماشابه ذلك؟ نظر الى الساعة. مازالت لم تتجاوز التاسعة. والدنيا منورة رمادية مزرقة. والأشياء ساكنة سكون الأشباح. قال لنفسه: سأنزل الى البوفيه، وأتناول عشاء خفيفاً، وأتلفن ليحيى سليم مرة أخرى. ولكنه، وهو يهم باغلاق الباب، سمع رنين التلفون. ركض تاركاً المفتاح في ثقب الباب بلهفة لاتقل عن لهفة يحيى سليم حين يسمع صوتاً انسانياً. كان الصوت الانساني متحشرجاً في التلفون:

ــ أين أنت الآن؟

ــ بعد أي كأس يوجه هذا السؤال؟ أنت تتلفن اليّ في غرفتي، وأنا ارفع السماعة، فأين أكون إذن؟

ــ في الغرفة.

وضحك ضحكة نابعة من قلب مشبع بالكحول. وقال:

ــ نحن في انتظارك، يااستاذ.

ــ لم نكن على موعد.

ــ يحيى بيننا، وهو ونحن مشتاقون.

كانوا سبعة أو عشرة ــ غير مهم ــ وكانت المائدة مستطيلة مثقلة بالصحون والأطعمة والزجاجات. رحبوا به. وجلس قرب صالح جميل. همس له:

ــ نحن نحتفل للمرة العاشرة.

سمع أحدهم همسه فقال:

ــ قل للمرة العشرين.

قال ثابت ضاحكاً:

وهل أنتم تحتاجون الى احتفال لتعمير الموائد؟

ـــ لاصحيح، نحن نحتفل.
ـــ بأي شيء تحتفلون؟
ـــ بعودة صديقنا ـــ وأشار الى شخص يتوسط المائدة ـــ الى بغداد.
ـــ الى بغداد، الى بغداد.
ترنم أحدهم بذلك، وقال آخر:
ـــ وفي كل مرة يجد عذراً لتأجيل السفر.
قال مظهر الرسام مشيراً باصبعه قرب انفه الشبيه باصبع أخرى:
ـــ والآن، ياحازم، هل قررت السفر نهائياً؟
قال حازم جازماً:
ـــ نهائياً وقطعاً!
قالت أصوات أخرى:
ـــ في كل مرة يقول نهائياً وقطعاً... هذه جملته المألوفة.
قال المحتفى به:
ـــ لا، هذه المرة بالتأكيد.
قال أحدهم:
ـــ لنشرب نخب التأكيد هذا.
ـــ لنشرب نخب اللقاء في أرض الوطن.
اعترض أحدهم:
ـــ لا. لنشرب في صحة حازم، الذي سيخبرنا بتجربته الجسور عما اذا كنا سنشرب نخب اللقاء في أرض الوطن أم لا.
ـــ مهما يكن فالوطن عزيز.
ـــ الوطن الذي لايحترمك...
ـــ اسكت، علوان... جاءت زوجتك فاحتضنت العراق.
قال علوان:
ـــ منذ الآن، وقبل أن أخذ الشهادة اشعر بالقلق... إذا تخرجت هل سيحتضنني العراق، أم افتش عن بلد أقل قسوة.
صاح أحدهم:
ـــ ياجماعة، لماذا لاتسألون يحيى متى يعود. انه من المخضرمين.
ـــ كلنا مخضرمون، وكيلك الله.
قال يحيى بغموض:

ـــ ولماذا أعود، لأعد رؤوس النخيل المقطوعة؟
والتفت الى ثابت، وتبادل معه النظرات. فقال ثابت بغمزة:
ـــ في الصمت يزدهر الخوف.
وتصافحا عبر المائدة.
ـــ يعني أنت تقرأ؟
ـــ اقرأ، اقرأ، وأخاف من أفكارك.
ـــ يعني عندي أفكار؟
ـــ ولعينه...
ـــ ماوجه اللعنة فيها؟
ـــ لاتوحي بالأمل...
ـــ رجعنا الى الأمل... الأمل بأي شيء؟
ـــ اسمع، يايحيى، اذا كانت نخلاتك العشرون قد قطعتها يد ظالمة... كما تقول في قصتك فإن في العراق ملايين النخيل، ماتزال تثمر.
ـــ حتى تقطعها يد جلاد آخر...
وفي مكان آخر من المائدة كان النقاش على أشده.
ـــ سأقطع يدي هذه اذا سافر حازم...
ـــ سترون أنني سأسافر... قدمت على تأشيرة الخروج.
ـــ ستسحبها... أو تغير وجهة سفرك... الى هناك.
وانفجروا ضاحكين.

— ١٥ —

كان يحيى سليم، طوال فترة العمل الصباحية، كالمعلق بحبل في وسطه، ويتأرجح في فراغ، ولا يستقر في وضع واحد. وكان الضيق يترسب في نفسه شيئاً فشيئاً كالرصاص المذاب. بدا له الجلوس على طاولة الكتابة كالغوص في لجة كابوس ثقيل ينزل به أعمق فأعمق الى الاختناق والتيبس... والموت، وربما، اذا لم يقاوم ويهب من على الكرسي اللعين، ويثبت لنفسه أنه حي مايزال قادراً على الحركة، والمغامرة، والاكتشاف. أغلق قلم الحبر، وألقى به على جملة لم تتم بعد، ونهض، وقال لنفسه:

« هكذا يقرعني ثابت حسين؟ وكأنني لاأعرف أن العراق بلاد النخيل، وأن في البصرة وحدها عشرون مليون نخلة. أعرف هذا، وأعرف أشياء أخرى يحاول ثابت أن يتغاضى عنها. وهذا هو الفرق بيني وبينه... هو يغلبني فقط في اتخاذ القرار.. وعلى الآن أن اتخذ قراراً». وراح وجاء في الغرفة وقال لنفسه فجأة: انتهى! يجب أن أذهب اليها... لابد أن أغامر. لن اترك المسألة في منتصف الطريق. فجأة أحس وكأنه مقدم على استرداد شيء عزيز عليه فقده في سن مبكرة، في تلك السن التي لايتبين فيها الانسان، بشكل واضح، مايفقده، إلا بعد أن يفلت من يده، ويفقده. كان النهار رمادياً خانقاً، ولكنه كان يبشر بسقوط مطر ينعش الجو، ويجعل الخضرة تخضل بتلك النداوة التي تبلل شفتين متيبستين بفعل احتقان داخلي. وتقدم من النافذة، ونظر الى دنيا الناس في الأسفل بذلك التوق المزمن للاتيان بأي شيء، ولو بحماقة لاثبات وجوده. تهيأ للخروج. وكان في الصباح قد وضع في مسجله الصغير كاسيتة، حسبما اتفق، واذا به يسمع أغنية فاضل عواد. وربطه ذلك بشيء قسري متوقع، له صلة بالماضي. ظلت الأغنية تتردد في طبلة أذنه تلقائياً، عبر فوضى كلماتها، كلحن حزين من دنيا أخرى لصيقة به، وغريبة عنه، مملوءة بما هو مألوف، ماتجود به المصادفة، بالصدمة والفرحة المتيسرة، ومزق الذكريات. حاول في الطريق أن يترك ذهنه صافياً ويتقدم الى غايته بهدوء أعصاب، وباستسلام لقدريجب أن يقع، مثلما حدث له ذات مرة، كان يشعر وكأنه قد قام بهذا العمل من قبل أيضاً. سلك نفس الطريق، ولكن لغرض آخر. كانت ذكريات البحر تدفعه الى هذا اللقاء، وتتراءى في خياله بقعة مشمسة في هذا الجو الرمادي الكالح المنذر بعاصفة رعدية، وفجأة ازدادت السماء ادلهاماً، وتحركت رؤوس الأشجار، ثم فروعها بعنف مهزوزة بريح مفاجئة، ودارت على الأرض

دوامات صغيرة من الأتربة والحصى الصغير. حث خطاه، دخل نفق المترو. وفي محطة فوق الجسر رأى النهر رصاصياً محبباً بأول الغيث. وقبل أن تغلق أبواب العربات بلحظة قفز يحيى سليم الى الخارج بوثبة مستميتة. ذكرى قديمة انبثقت في قلبه كنابض، وأخرجته الى الأرض الكونكريتية الكالحة. مد بصره في أعماق المحطة المستطيلة، هناك حيث الصفائح السماوية اللون المحزمة بأشرطة صفر، كانت نادية، في وقت ما، في أعماق التاريخ، تنتظره هناك، متكئة كطفلة صغيرة على سطح الجدار الصفائحي الصغير. وكان قد تأخر في تلك المرة عن الموعد قليلاً وحين اقترب منها رأى دموع الملل من الانتظار تلمع في عينيها الخضراوين... أبدى أسفه، وقدم لها عربون المصالحة والاعتذار كيساً من الفراولة القرمزية، وطوق خصرها بذراعه، وهبطا السلم، واستأجرا زورقاً، وتجولا على سطح النهر، نفس هذا النهر المنمش الآن بالآف من قطرات المطر. كانت جالسة قبالته عند قيدوم الزورق، تأكل الفراولة، وتنشج، وخداها يكتسيان لون تلك الفاكهة الهشة. كانت المحطة مقفرة الآن، والنهر يبدو مشرداً مهملاً من خلال ألواح الزجاج المتربة، وبلا زوارق. لملم التاريخ نفسه، وانقبر في دروب الذكرى. جاء قطار آخر. استعجل يحيى سليم، ومثلما قفز الى الذكرى بخفة، قفز عنها كمن أخطأ، ويخاف أن يراه الناس متورطاً في خطأ. وخفق قلبه للجهد الذي لايناسب سنه. وعندما جلس ثانية في عربة المترو. خيل اليه أنه ذاهب الى الموعد نفسه، وأنه قد أخطأ فعلاً في مكان الموعد. عبر النهر الى شوارع المدينة القديمة، حيث كان التجار يسكنون، ودخل ازقتها ذات البيوت الآجرية أو الخشبية المؤلفة من طابقين، حتى رأى البيت المدبب السقف بجدرانه من القرميد الأصفر والأخضر، وباب الصيدلية في ركنه المصبوغ بالأحمر القاني، العلامة التي قالت عنها أنها لاتُخطأ. سار في الزقاق الى اليسار، وفي نهاية الزقاق رأى البيت الخشبي الى اليمين. هذا مكان عملها دخل الدهليز، حيث رأى خمسة أو ستة أشخاص يقفون معهم كتبهم للتجليد، يصطفون في طابور عند شباك صغير. عبرهم، ورأى الباب مفتوحاً قليلاً، وقبل أن يدخله سمع صوتاً يسأله:

ــ أيها الشاب، إلى أين؟

تمتم بشيء غير مفهوم، وتجرأ أن يطل على القاعة الصغيرة بمناضدها العديدة، ورائحة الأوراق والصمغ تتمدد منها، وفتش عنها ببصره بين نساء من مختلف الأعمار يأتزرن بمآزر زرقاء حتى لمحها في أقصى القاعة، عرف هالة شعرها، وبروفيل وجهها من بعيد. حاول أن يلفت انتباهها اليه بحركة مقصودة. اقترب خطوتين أخريين، تنحنح حتى التفتت، ورفعت بصرها اليه، وأشرق شيء في وجهها، ابتسامة أو ألق من مصباح حين استدارت نحوه. تركت مابين يديها من كتب، واقبلت عليه، وهي تمسح يديها بأذيال مئزرها. كانت هذه أول مرة يراها خارج ساحل البحر، وفي لباس العمل، ومع الناس. كتلة متماسكة جدية. قالت:

ــ مرحبا، كم تبقى على الساعة الخامسة؟

ـــ عشر دقائق.

ـــ حالاً... هلا انتظرت في الشارع. فالجو هنا خانق... وبعد دقائق خرجت اليه فتاة أخرى نضرة موردة الخدين، ملوحة البشرة، لها علاقة حميمة بالبحر والجنوب. قالت:

ـــ هل عسر عليك الاهتداء الى المكان؟

ـــ الصيدلية انقذتني.

ضحكت وقالت:

ـــ الصيدلية تنقذ دائماً... أو في معظم الحالات.

سألها: كيف أنت؟ قالت: مازلت أعيش على هواء الجنوب هل تعرف؟ ربما قلت تلك من قبل... هذه هي المرة الثانية التي أذهب فيها الى البحر في حياتي كلها... مرة... أي نعم... والمرة الثانية قبل اسبوعين. أحياناً، في الليل أتصور أنني أسمع هدير البحر، وأتخيل أنني لو أفتح النافذة فسأرى البحر وأشم رائحته، رائحة خضرة الجنوب المفخورة. ثم سألته ألا تحلم أنت بالبحر؟

قال كاذباً:

ـــ أحلم به كحوت غاف.

ضحكت وقالت:

ـــ لأنك من بلاد السندباد البحري.

أنعشته هذه الصفة، وتمنى ماتمنى في سره. ولكنه قال لها تورية:

ـــ ولكن الرحلات تتعبني.

ـــ لماذا؟

ـــ لأنني غالباً أو دائماً أعود خاوي الوفاض منها... وليس كالسندباد البحري...

التفتت اليه بكل وجهها، وقالت وهي تنظر في وجهه:

ـــ ماذا تريد أن تغنم؟ مجوهرات ولآليء؟

ـــ لا، ليس هذا ماأريده...

ـــ السفر هو المهم.

قالت بثقة وتشديد على الكلمتين. نظر هو الآخر اليها ليتأكد من أنها هي المتكلمة، وليس نادية. صمت وسارا في شوارع غير حافلة بالناس، بعكس المدينة هناك، وراء الضفة الأخرى من النهر. وكانت الفتاة طليقة الرجلين واللسان تتحدث بمتعة وحماس شديد يبدو كالمبالغ فيه، وشعر يحيى سليم بالخوف من تحليقاتها ومن سيرها السريع، وتماديها في الأحلام. كانت تتحدث وتتحدث حتى يلتفت الى وجهها ليتأكد أنها هي وليس الأخرى الراحلة الى ماوراء الجبال. كانت رنة صوتها، ورفيف رائحتها الجسدية النقية، المفخورة، لما تزل بشمس

الجنوب، تجعله يتصور أنه يحلم بشيء حصل له في السابق، وأنه وحيد وحدة قاتلة. ويتخيل ويتصور أن فتاة تسير الى جانبه... أو ربما هو يحلم بذكرى يسترجعها، ومثلما كان يفعل في سالف الأيام سألها:

ــ هلا جلسنا في مطعم أو مقهى؟

ــ هل أنت جائع؟

ــ ولا، ولكنني تعبت.

وكان صادقاً في قوله هذا. ضحكت ضحكتها الصداحة، صمتت صمت قبول ورضى وبعد دقائق صادفا مطعماً غجرياً، شبيها بمركب راس على شاطىء النهر. عرض عليها الدخول اليه، وأمسكها من يدها، فأحس بما يشبه الرجفة والارتداد. بل خيل اليه أنها حاولت أن تفلت من يده. وهذا أيضاً جعله يتصور أن ذلك حدث له في الماضي، حين كان يجرب حظه مع فتاة، ويجالسها في مطعم. واعتبر ذلك إمارة خير وتوفيق، حسب مقاييسه الماضية. قال متشجعاً، وهو يساعدها على صعود مرفاة المركب المتآكل، مغالباً شعوراً بالانهزام:

ــ انظري، ألا يذكرك هذا بشيء؟

ــ يذكرني بشيء؟

قالتها بذعر خفي، وتهدج صوتها.

ــ ألا يذكرك بالبحر، ولونه الفيروزي؟

كان المطعم المركب مطلياً بلون أزرق مخضوضر. ضحكت ضحكة باردة. كان المطعم شبه خال. اختارا مائدة تطل على النهر. مياه النهر رصاصية قاتمة تبدو كالساكنة. وتذكر يحيى سليم صوت البحر الغافي، وتمنى لو يستيقظ، ويأخذه الى آماد بعيدة.

قال يحيى سليم يداعبها:

ــ ألا يخيل اليك، والماء قربنا، أننا فوق ظهر حوت، وأن الحوت سيستيقظ على حرارة المطبخ في الأسفل، وينطلق بنا في عرض البحر؟

ضحكت ضحكة صدفية، وقالت:

ــ هذا لأنك سندباد بحري... أما أنا فلا أتخيل ذلك.

ــ طيب، ماذا تتخيلين؟

ــ ماذا أتخيل؟ ــ وسهمت وغامت عيناها للحظة، ثم انقشع الغيم، وقال: الأحسن أن لاأتخيل شيئاً... دعنا جالسين بهدوء وبلا تخيل...

قال في يأس، وانكفأ على نفسه:

وقلب قائمة الطعام التي جاءت بها النادلة، وقال بلهجة القبول بالواقع:

ــ ماذا تأكلين؟

قالت بفتور :

ــ أي شيء تختاره .

واختار هو مايأكلانه ويشربانه ، وأتكأت هي على ظهر الكرسي ، ومدت ذراعها الملوحة على الدرابزين . نظر اليها . الجفنان مسبلان والوجه مسحوب . وتصور أنها مغمومة لأن لها طفلاً ينتظرها في البيت . عند من تركته؟ سألها . قالت باقتضاب :

ــ في دار الحضانة لليوم المطول .

وخشى أن يسألها : يعني ، أنت وحيدة في البيت ، خوفاً من سوء التأويل . كان هذا أول لقاء لهما بعد تعرفهما على ساحل البحر . في لمحة عين طاف البحر الأزرق في خياله ، وكرة مطاطية ملونة تتدحرج يلاحقها طفل عار . قال :

ــ لنشرب في صحة البحر .

اعترضت قبل أن تشرب في صحة البحر :

ــ البحر دائماً في صحة وعافية .

قال مداعباً :

ــ إذا كنا نحن أصحاء ، وإلا فسنلوثه ... ألم تسمعي بتلوث البحار ؟

ــ أها ، إذا كان بهذا المعنى .

تدلى رأسها قليلاً ، فأسندته بيدها المضمومة . تهدلت خصلة من شعرها الكستنائي على جبينها الملوح ، واستغرقت في فترة صمت غامضة اختفت فيها عيناها تماماً تحت جفنيها المسبلتين . وخيل ليحيى أن نوعاً من الخدر المبكر قد أسرها . وقال :

ــ اشربي جرعة أخرى ، وسيزول الخدر .

ــ ماذا؟

هبت من سرحانها .

ــ أقول : اشربي جرعة أخرى وسيزول الخدر .

أطاعته هازة رأسها بغرابة ، وكأنما تطرد هذا الخدر الداهم وفي الجرعة الرابعة بدا عليها مرح نشوان ، وتوردت وجنتاه وتألقت عيناها وتحبب جبينها الناصع بحبات دقيقة من اللؤلؤ المنثور ، وظلت تهز رأسها هزات خفيفة ، وكأنها تهش نحلاً غير منظور .

أشفق عليها . قال لها : كلي الآن ، وسيزول عنك الدوار . ضحكت ضحكة غير طبيعية استغرب لها ، وفجأة بدت منفصلة عنه بالربع الخالي . وأسف لذلك وتشاءم ، وشعر بنوع من الحرج والامتعاض . وأطلق عليه سوداويته المزمنة . ألقى ببصره عبر النهر ، وحاول أن يداري خيبته . الآن بدا له ، وكأنه مرتبط بها بقصة خائبة جديدة . صمت كلاهما . وهي التي حطمت الصمت حين قالت :

ــ آسفة، لم أتعود على الشرب.

ولكن يدها امتدت الى القدح لاإرادياً، وهمت أن تشرب، ولكنها جفلت، وردت القدح الى مكانه، وضحكت ضحكة هستيرية ارتعب يحيى لها، وحملق بها. وتبدد ماكان يحس به من الارتباط بماض أليف له. الآن صارت الفتاة جزيرة عائمة لوحدها. قال:

ــ آسف. جعلتك تشربين... ربما على معدة خاوية.

قالت دون أن ترفع رأسها:

ــ لا، أبداً. تغديت غداء دسماً، فلا تقلق نفسك. من هذه الناحية.

وبهذه الكلمة انفصلت عنه أكثر. قال لها:

ــ لابد أنك متأثرة؟

سكتت، ودلت رأسها وقالت:

ــ هل تعرف؟

نظر اليها مستفسراً. استدركت:

ــ لا، لا... اسمح لي. أنا مجنونة.

زاد قلقه أكثر، ونظر اليها بتشبث واستفسار. عادت تقول وكأنها وصلت الى نقطة اللاعودة، فلا بد أن تبوح بما في صدرها.

ولم تكمل أيضاً. وخيل ليحيى سليم أن ذلك غير واقعي اطلاقاً، مثل حلم يراه في ليالي سهاده... لم يرد أن يستزيدها، لأنه تصور أن أول كلمة ستنطق بها ستحطم كل شيء بينهما وهي أيضاً لم تبد أية رغبة في أن تتكلم. كان الصمت يفصل بينهما. وكأنما هي في تلك الناحية من النهر، عند السينما الرمادية المبنى، وهو هنا، وحيد مختل بكأسه، كما هو دائماً. قال في سره: لابأس. وحاول أن ينقطع عما هو فيه، حاول أن يشرد عنه، الى هيولى كل الأشياء، حيث لم يولد بعد ولم يتبلور أي شيء. لم يرد أن يحطم الصمت، ولم ترد هي أن تحطمه... ولكنه راقب يدها تمتد الى القدح. فشعر وكأنها تطلب عوناً، كضرير يتلمس الطريق لعبور الشارع. قرب منها القدح، فاصطدمت أصابعهما. قالت:

ــ آسفة.

ــ عم تأسفين؟

قال بعاطفية مبتذلة:

ــ وهل تتصورين أمسيتي بدونك أقل تعكيراً؟

دلت رأسها، ورددت:

ــ آسفة... آسفة.

وابتسمت ابتسامة حاولت جاهدة أن تطرد بها الحزن المخيم على جبينها. أكلا وشربا صامتين مرة أخرى. حاول أن يلهيها بشيء:

ــ أتحبين أغاني الغجر؟

نظرت في عينيه قبل أن تجيب:

ــ كنت أحبها...

ــ عاطفية أكثر من اللازم؟

قالت بلهجة جادة حزينة:

ــ أغاني الغجر لاتصلح للمدن... تبدو نشازاً حين تغنى بين جدران أربعة... سترى بنفسك، حين يبدأون الغناء في الداخل...

ــ أها! يعني كنت هنا من قبل؟

وذلك الشيء لم يكن يريحه، لأنه يلصقها بماض آخر غير ماضيه. قالت، وكأنها لم تسمع كلامه:

ــ سيدوخ رأسك، مثل رأسي الآن ...

ــ سنخرج قبل أن يبدأ الغناء. أنت متعبة.

صمتت، وقالت:

ــ أغاني الغجر تصلح للحقول الواسعة، للطرق الكبيرة، لقوافل العربات، لكل شيء إلا المدينة.

ــ يوجد مسرح غجري هنا، ألم تذهبي اليه؟

قالت بطريقة غير مباشرة:

ــ ربما هناك انفه... قاعدة واسعة وديكور... أما هنا!

قال شاعراً بالذنب:

ــ آسف لاختياري غير الموفق.

ــ لاداعي للأسف.

واتهم يحيى سليم نفسه بالغباء، فهو لايستطيع أن يدير حديثاً موفقاً طلياً مع امرأة... تلك علته منذ أول لقاء له معها، منذ أن تبرعم في قلبه الحنين الأول للالتقاء بها. ابتسم لنفسه ببلاهة، على خيبته. رفع كأسه، اللغة الوحيدة التي يجيدها، والاعتراض الوحيد الذي يتجاسر على رفعه في وجه القدر. أكل وشرب بصمت. ثم رأى وجهها أمام عينيه فارغاً من أي عاطفة. وزاد ذلك من أسفه. دوامة من الأفكار الرعناء تطحن ذهنه. دخل عريس وعروسه، وخلفهما

ستة شبان نضرين لامعين متهللين بشراً، فتياناً وفتيات. ووجد نفسه يتسم. التفتت، فرأتهم، ولم تبتسم. لمعت عيناها فقط لمعة ساخرة مطعونة. قالت:

ــ على مقربة من هنا مكتب لتسجيل الزواج.

ــ أنت تعرفيق هذه المنطقة جيداً.

ــ أنا اشتغل هنا منذ عشرة أعوام.

نظر اليها. صعب عليه أن يصدق هذا الرقم، رغم كل الغيوم التي تجول في عينيها، رغم الجبين المدلهم، والخدين المبقعين بحمرة غير طبيعية.

جلس العروسان ومرافقوهما وراءهما. بدأ المطعم يحفل بالرواد. القاعة امتلأت قبل أن يفطنا اليها. خيم ليل رصاصي محروق. وأضاءت دار السينما في الجانب المقابل أضواءها. وانسكب انعكاسها على النهر حبات صغيرة من اللؤلؤ. ياليت هذا الحوت الغافي يأخذنا الى العاصفة قال يحيى لنفسه. وانفجرت الموسيقى في الداخل بكركبة عجول ممزوجة بصهيل صناجات، اختلطت في ثناياها طلقات زجاجات الشمبانيا تفتح من الخلف. وهاتفات: « مر، مر » يدعون العريس ليقبل العروس، ليتذوق شفتيها وينفي المرارة عنهما. وعلى ضجيج متنافر، خليط أصوات متشربكة. سدت الفتاة أذنيها باصبعيها، وانحنت عبر المائدة. ورأى يحيى سليم رقبتها النحيلة متشنجة الأوداج، وهي تصرخ:

ــ هلا خرجنا؟

قال لنفسه: انقطع الحديث دون أن يبدأ. وأشار بيده الى مافي الزجاجة من بقايا خمرة، ومافي الصحون من طعام لم يمس. وتشجيعاً لها رفع كأسه، وقربها من كأسها. رفعت وشربت جرعتين، وردت الكأس عن شفتيها.

ساعدها في نزول الخشبة الى أرض الشارع. طاوعته، ولكنها حين وصلت الى أرض الأمان حلت يدها من يده. امتلأت نفسه بغاز عفن خانق. قال لها بعد أن وصلت رائحة العفونة الى بلعومه:

ــ هل أخطأت في شيء؟

لم ترد رأساً.

ــ رأسي داخ... والموسيقى والصخب و...

ــ وماذا؟

صمتت، وبعدها قالت:

ــ لايمكنك أن تفهم.

ــ أرجوك. ليس عقلي قاصراً.

ـــ لا ، لا ، لا ، أقصد ذلك .

ـــ ماذا تقصدين ، إذن ؟ ماسبب ضيقك المفاجيء ؟

خرجت وأنت كالطائر الطليق ، وفجأة ...

قالت بلهجة غامضة :

ـــ أنا مجنونة ، مجنونة ، ...

وهمدت ، ولم يصدر منها أي فعل آخر . قال يحيى :

ـــ لعل المطعم لم يعجبك ...

ندت منها « نعم » خافتة . أبدى يحيى سليم أسفه ثانية .

عادت تقول :

ـــ هل تعرف ؟

ـــ ماذا ، ماذا لاأعرف قوليها ...

ـــ هل تعرف أن هذا المطعم هو المكان الذي أقمنا فيه حفلة الزفاف مع المرحوم زوجي ؟

١٦

المخرز. التهاويل. اليقظة المفروضة. وقال ثابت حسين: أعوذ بالله. ونظر في ساعته. الثالثة وعشر دقائق. رفس دثاره في ضيق، ونظر الى رقعة الشباك الرمادية المضلعة. بدا له طرف مدخنة سوداء في الجانب الآخر من النهر كرأس نخلة محروقة. وبدأت الصور تتقافز في رأسه. نهض من فراشه. وأطل من الشباك على النهر. كان صندل طويل يدب فيه كسلحفاة هائلة. وفي القمرة البيضاء ضوء أصفر، ورأى شبحين أو ثلاثة يدبون على السطح. قال لنفسه: هناك من هم مستيقظون مثلي إذن! في مثل هذه الساعة. ومده ذلك بشيء من الراحة. وتمنى لو يمارس عملاً، أي عمل، في مثل هذه الساعة المتأخرة لينقضي الوقت على الأقل. قعد على المقعد الأحمر، وسرح جسده على ظهره العالي، واغمض عينيه. ورأى صورة ابنه خلف جفنيه المسبلين. رآه، كما شاهده اليوم، يوم أمس من بعيد، برأسه الحليق الملفوف بضمادة تشبه العرقجين، مثبتة بشريط غليظ يمتد من أذنه، ويحيط بوجهه تحت الذقن حتى الأذن الأخرى. وكان الوجه المؤطر ببياض الشاش يبدو داكن السمرة، مزرقاً، خشن الملامح، معذب التقاطيع. عيناه برقتا من بعيد بريق استغاثة. سلم عليه، وأشار اليه أن اسكت. الكلام يحرك الضمادة، والضمادة تحرك خيوط الشرخ، وتنعكس ألماً ممضاً على غلاف الدماغ. أو هذا ماتخيله ثابت حسين. وكان البروفيسور كوزين قد قال له: إننا لم نمس غلاف الدماغ. فتحنا شقاً، ودسسنا قطعة لدنة من البلاستيك بين الدماغ والجمجمة، لتقيه من الصدمات، وخطنا الجرح. والآن، علينا أن ننتظر إلى أن يتعود الجسم على الشيء الغريب الذي دس فيه. سيرفضه بالطبع، ورفضه يخلف سائلاً علينا أن نسحبه باستمرار، إلى أن يكف الجسم عن رفض الشيء، ويصبح جزءاً منه.

وقال ثابت حسين لنفسه: كم تعذب، ابني! يشجون رأسه ويدخلون شيئاً زائداً فيه! لعله الآن مستيقظ مثلي ألم يقل أنه لاينام الليالي! بماذا يفكر الآن؟ لاأظنه يفكر في الموت، فالأطفال يخافون الموت، ولكن لايفكرون فيه، يخافونه كشبح، كأحد الأشباح التي تعترض طريق حياتهم. أما تفلسف الموت، مثلما نفعل نحن، فلا اعتقد... ربما هو الآن يفكر في شيء آخر... في أمه... في أخته. ألم يخش، وهو العليل، أن تنافسه، وهي السليمة، رغم أنها أضعف من أن تنافسه. يعني أن المرض يعبث في نفسيته، وسيتحول الى مركب نقص، ويظل يلازمه طوال حياته! ظل ثابت حسين يفكر في الرأس المشجوج، حتى أحس بشيء من الوجع

في رأسه، في موضع شدخ قديم كان قد أحدثه غصن شجرة متهدل سار تحته فشدخ جلدة رأسه. أحس به يتقلص، حتى لمسه وهو ينهض من الكرسي، وكأنما يتوقع أن يدبق الدم أصابعه مثلما حدث آنذاك. وقال لنفسه يعاتبها: أي شج ذاك، إذا قورن بالشج في رأس حسان؟ الشج العميق الذي يخترق القحف. نفض الأفكار من رأسه كما ينفض هوام الليل، وهانت عليه كل المصائب. وقال بصوت خافت: المصائب الكبيرة تلتهم المصائب الصغيرة، كما تلتهم الأسماك الكبيرة الأسماك الصغيرة. ومع ذلك، فقد شعر، وهو يحدق في بناية المصنع المواجه له، بالشعار المنطفيء، قبيل الصباح، بالمداخن التي عادت مداخن وليست نخيلاً مقطوعة الرؤوس كنخيل يحيى سليم. شعر بأن هذا الاحساس أعاد اليه ارتباطه بماضيه القديم. فعاد وجلس على الكرسي الأحمر وأسند كوعه على راحة يده، وطافت الذكرى في خياله تنوس كطيف. فراح يسترجع في ذهنه تلك الليلة التي شدخت فيه جلدة رأسه. كان آنذاك عائداً من لقاء أعده أحد السياسيين العراقيين المهاجرين للطلبة المفصولين واللاجئين في مصر. وعلى عادة كل لقاء انتهى بمائدة عامرة كانت تعتبر مأدبة ملوكية بالنسبة لأولئك الذين تلفت معدهم من الأطعمة الرخيصة والنبيذ الشبيه بالخل. كانت الجلسة مسلية، مليئة بالمفاجآت. اطمأن الرجل الى أنه كسب أنصاراً، ففاض في مكنون صدره. في البداية قال انه التقى أحد الصحفيين الأمريكيين، واتفق معه على أن الوصي هو العقبة الوحيدة في طريق عراق ديموقراطي حر، وإن إزاحته هو حل لمشكلة العراق المستعصية وكان الذين تحلقوا حول المائدة يحلمون بأشياء أخرى أعمق جذرية. فسكتوا واجمين، إلا هو، ثابت حسين، فقد أحس بغصة في حلقه، واحتج قائلاً ليست المشكلة متعلقة بعبد الاله، بل بنظام كامل قائم على أسس غير سليمة تولد ألف عبد الاله. نظر السياسي اليه خزراً، وقال يعني تريد قتلاً ودماء، ثورة حمراء؟ وأغلق النقاش الى هذا الحد. فقد كان الرجل متمسكاً برأيه الى حد القناعة المدمرة لكل نقاش. ثم لايدري ثابت حسين كيف ذكر اسم هتلر على المائدة. فالتفت السياسي الى الذين يتناقشون في امر هتلر، وقال: عجيب لماذا يشتم الناس هتلر؟ لقد عمل الشيء الكثير لأمته. وأراد أن يجعل لكل أفراد الشعب سيارة، فصنع « الفولكس واكن » وتعني بالألمانية سيارة الشعب. فمذا يريدون منه؟ قال طالب مفصول من الديوانية ساخراً: نحن نريد من السياسي المنتظر حذاء لكل فرد من أفراد الشعب. وضحكوا. وامتعض السياسي. وقال: قبل أن تلبس الحافي حذاء يجب أن تعلمه كيف يغسل رجليه، علمه النظافة. ونوه بأفكار حادة. وقال: هل تظنه سيغسل رجليه إذا وفرت له الماء والصابون؟ لا، أبداً. لن يغسلهما إلا إذا أوقفت على رأسه شرطياً، وبيده عصا. قال أحدهم: سيكون لنا من الشرطة أكثر من نصف سكان العراق. وضحكوا. وقال السياسي: لاتضحكوا. أنا سياسي ومجرب، وأعرف أحوال العراق، لاينفع بسكانه إلا العصا والشدة. لا، لن ينقادوا باللين واللطف والنصيحة. خذوا مني عهداً صادقاً. تفرقوا عند

المساء، وشعر ثابت حسين بثقل الرصاص في صدره. انفصل عن رفاقه وسار على النيل. كان الليل قد خيم. وبدأت العوامات على يساره ترسل أضواءها الخافتة. وفجأة أحس بالضياع، وكأنما أضل الطريق الذي كان واضحاً أمامه قبل ساعات. وفكر في ذلك المستقبل الغامض الذي يخططون له، بمعزل عن الآخرين ووفق تصوراتهم الخاصة. كانت الكلمات الحجارة، الأحكام السكاكين تطعن فؤاده، وتنذره بشيء مقلق بين الحتمية والاحتمال. وفجأة أحس بشفرة تشرط الجانب الأيسر من رأسه فوق الجبين، ويشتعل الجرح ناراً لاهبة. مس رأسه فتلزجت أصابعه. والدم بدا في حلكة الليل كلطخة مازوت حارة. وأحس بطعم الرماد والدم في فمه. وكأن المستقبل يمد له لسانه الدامي.

تلمظ ثابت حسين الآن، وفرك شفتيه، وكأنه انتهى من حوار طويل مع الماضي، ونهض من مقعده موجع المفاصل، بدأت الدنيا تتنور خارج النافذة، ولاحت المداخن حقيقة محروقة. رمقها بنظرة ثكلى، وكأنما يحسدها على الصمود خارج الليل والأرق، دون أن تصاب بأذى، وليست كمثله مثقل النفس برصاص السهاد. عاد الى فراشه، وسجى نفسه محاولاً أن يغيب في لجمة النوم عند الفجر، مخلفاً أشباح الماضي وراء جفنيه المغمضين. ولم يعرف كيف جاءه النوم. ولكنه فتح عينيه ثانية على نهار صاف.

في حين هب يحيى سليم فزعاً طريد حلم مزعج. رأى نفسه يغوص في سرب من الأرض كالسلم الكهربائي الذي يهبط الى قاع المترو، حاملاً معه كمية كبيرة من اللحم والعظام، منتظراً تلك اللحظة الرهيبة، حين تصل الدرجة الواقف عليها من السلم الى فوهة عمياء أشبه بفوهة ماكنة فرم اللحم تسحق بين فكوكها الحديدية كل شيء، تسحقه هو ومايحمله. وقبل أن يصل الى ذلك بلمحة، خطر في باله أنه نائم، فتح عينيه وهب من نومه. مد ذراعه الى جهاز الراديو، فتحه، لمجرد أن يثبت لنفسه أنه حي. أو يعيد ربط نبضه بنبض العالم، كما يحلو له أن يقول. سمع خرخشة وجؤارا بلغة غريبة عليه. نهض من فراشه، وتمطى، وذهب الى النافذة العريضة، وقال بصوت مسموع: « أيها العالم، أنا هنا، هل نسيتني؟ ». وفي الأسفل كان رجال العالم ونساؤه يسعون في مناكبه. التفت. رأى الورق والقواميس في انتظاره. وبرطم. ذهب وادى فرائض الصباح. ودخل المطبخ. لمح (أو شبه له) صفار البيضة القديم على مربع الأرض. قال لنفسه: الأرض الناشفة تحتفظ بآثار الماضي، فكيف بالدماغ الحي. زاول مايزاوله كل صباح، قبل أن ينكبس خلف مكتبه مشنوقاً بحبال الكلمات.

دق الجرس دقات مزعجة. كان صالح جميل في نوم الضحى اللذيذ مخدراً مرتخي الجسم تماماً، فأحس وكأنما طعن في خاصرته. انقلب على جنبه، ولف رأسه بالبطانية، واستسلم لمغناطيس النوم الذي يجذب جسده الى الفراش.

كانت الدقات لجوجة كالذباب في سطوح بغداد عند الصبح ظلت تلح وتلح. أزاح الغطاء عن جسده ونزل من السرير حافياً، في الفانيله واللباس، مغمض العينين تقريباً، واتجه الى أقصى الدهليز، ورفع سماعة التلفون، وقال: نعم! كان التلفون صامتاً، أو بالأحرى، فيه قرقرة الشاغر الطويلة. قال لنفسه أيه، خلصنا من هذا اللجوج الذي يخابرني في الصباح الباكر. وعاد الى فراشه. ولكنه قبل أن ينام، دق الجرس ثانية. وعندئذ فقط فطن الى أنه جرس الباب. لبس بنطلونه الممدود على الكرسي عرضاً، وثوبه الأخضر الملبس على ظهر الكرسي، وهرع الى الباب، حافي القدمين. فتحه وفي ظلمة فسحة الدرج رأى شبحاً رمادياً أو أسود مكوراً. فتح عينيه اللزجتين، وقال:

ــ آه، جميلة! ... ماذا جاء بك؟

قالت وهي تدخل الباب:

ــ قلت لك من قبل تجونه لو نجيكم... أحباب كلبي!

قال: « ايه » ملتزجة. ثم « اقعدي. سآتيك بعد ربع لحظة! »

وعاد بعد عشر دقائق أبيض محمراً حليقاً تزين وجهه بعض نجوم الدم الصغيرة. وقال لها:

ــ كيف وصلت الى البيت؟

ــ بالتكسي. عندي هذه الورقة وأشوفها للناس بالاشارات. وامرأة، الله يرضى عليها، ركبت معي المصعد، وأشارت الى الشقة. ودققت الجرس وظللت أدق الى أن جئت أنت وفتحت الباب.

ضحك صالح جميل من فم يشكو من وجع أسنان مزمن، ولكنه لم يغط فمه هذه المرة، بل مسد على شاربه الأشيب. قال لها:

ــ فطرت؟

ــ ظل فطور؟ الدنيا ضحى.

ــ الله يلعنك، أيقظتني من نوم الضحى الجميل.

ــ ولماذا لاتكون اللعنة عليك، وقد صار لك يومين غائباً عني؟

ــ انتظري. لاتبدئي العتاب. سأسلق لي « سجقاً » أو مايسمى عندنا « ... القاضي ». ربما تأكلين قليلاً، أو تشربين قدح بيرة مثلجاً؟

ــ لا، عيني، من يوم ما جئت تلفت معدتي. تغير الأكل علي. وأنت، الله يحفظك، تزقني...

ناد برأسه ونظر اليها من تحت حاجبيه الكثيفين. وقال:

ــ لو كنت لاتريدين لما قبلت أن تشربي. ولكن الجرثومة كامنة في أجسادنا كما يبدو.

ــ أية جرثومة؟

ــ جرثومة الشرب .

قالها وهو يدير لها ظهره ، وينصرف لتحضير الفطور له ولما عاد رآها تنظر في النافذة . كانت ترى في الشارع قرب البيت ، تلالاً كثيرة من الصناديق الخشبية المليئة بالزجاجات الفارغة . قالت :

ــ هذه كلها شربتها أنت ؟

قال مازحاً :

ــ لا ، أنا والجيران . اقعدي . واحكي لي لماذا جئت حقاً ؟ قعدت ، وقالت :

ــ أنت تعرف أنا مسافرة يوم الجمعة . بعد بكرة قل لي : ماذا سأقول لأهلي عنك ؟

ــ من أي ناحية ؟

ــ من أي ناحية ! من ناحية الدراسة !

قال وهو يقطع السجق الى قطع صغيرة بسكين مقعر الحد من كثرة الاستعمال :

ــ قولي لهم صالح مجتهد ، مجتهد بالدراسة و ...

عاجلته قبل أن يتم كلامه :

ــ صار لك عشرين سنة ، وأنت مجتهد بالدراسة . ولكن متى ستنهيها ؟

قال قبل أن يضع قطعة السجق الوردية في فمه :

ــ اللي انتهوا منها ماتوا ، على وزن المثل المصري : اللي اختشوا ماتوا . الذين انهوا دراستهم لايعرفون أين يذهبون الآن ...

ــ وتظل طول عمرك تدرس ؟

ــ أظل . هل تعرفين أغنازيو سيلونه الكاتب الايطالي ؟ عنده بطل في أحد رواياته تجاوز الخمسين وهو طالب ، حتى سمي بالطالب الأبدي . وأنا لم أتجاوز الأربعين إلا قبل ... يعني لم أبلغ الخمسين .

ــ يعني : أقول لهم بعد عشر سنين تخلص ؟

ــ لاتقولي لهم شيئاً . لاتحددي المدة ... دعيهم ينتظرون .

نظرت اليه نظرة كئيبة وقالت :

ــ لا ، صحيح ، صالح ، ماذا أقول لهم ؟

كان مايزال يقطع السجق بيدين مرتجفتين فقال لها :

ــ قولي لهم : علاقته مع يده ليست على مايرام .

لم تفهم كلامه تماماً . قالت :

ــ وتركت كتابة الرسائل لنا أيضاً .

ــ كيف اكتبها اذا فقدت السيطرة على يدي ؟

ــ كيف ؟
ــ ها أنت ترين . إنها لاتطاوعني إنها في حالة تدهور فلا تمسك بالقلم .
كان السكين يتزحلق في الماعون ، ويصدر صوتاً خشناً قالت له :
ــ عالجها ...
بربر لها ، فنظرت اليه باشفاق . قال :
ــ هناك حالات ميئوس منها . لاعلاج لها . فهل استطاع أبي أن يعالج حالته المالية ، وحين تدهورت ؟
ــ ولكن أخوتك صارت لهم بيوت .
ــ في الغربة يصعب تكوين البيوت ... إلا إذا كانت من الرمال . ونفخة ريح وتزول ... وأنا لاأحب الرمال .
ــ أنا لاأستطيع أن أفهمك .
وأنا أيضاً لاأستطيع أن أفهم نفسي فكيف أفهمك ؟
ــ بأية لغة تتكلم معها ...
ــ مع من ؟
ــ مع نفسك ...
ــ فقدت اللغة التي أستطيع أن أتكلم معها بالعربية أو بالأعجمية التي لاأجيدها ... أوه ، جميلة ، أنت تضايقينني بأسئلتك ...
حدقت في شعره الأشيب وقالت لنفسها :
« هذا من تغير الماء عليه » . وطافت في ذهنها البلدان التي درس فيها . كم هي كثيرة ومتباعدة . وقال بصوت مسموع :
ــ تركيا ، لندن ، و ...
عرف ماترمي اليه ؛ فأكمل قائلاً : والحبل على الجرار .
وفي نفس ذاك الضحى فرك علوان شاكر باطني كفيه بحماس جذل ، واستنشق نشقتين وطبتين ، وقال لزوجته الجالسة أمامه :
ــ ستعجبك أطروحتي بالتأكيد .
كانت زوجته مطوية اليدين ، تنظر اليه بتحد ، كانت تعرف أو تعودت أن تعيده الى حجمه الطبيعي . وقالت :
ــ أنت دائماً تتفاءل بالخير ... ولكن قلما تجده .
ــ لا ، يارسمية ، صدقيني .الأساتذة كلهم معجبون . يقولون : بحر من المعلومات ، ودقة في التحليل ، وموضوعية في الأحكام ، وجزالة في الأسلوب . ربما هذه أول وأحسن رسالة كتبت

عن القرامطة . أنت لاتستطيعين أن تقدري جهدي حق القدر ، إلا إذا عرفت قلة المصادر . ولكن الأنبياء في أوطانهم ....

قالت بين المدح والذم :

ــ كل ماأخشاه أن يجعلك اهتمامك الشديد بالقرامطة أن تكون قرمطياً مثلهم ، نبياً قرمطياً .

ــ أنت لاتعرفين شيئاً عن القرامطة .

ــ أعرف أنهم يبيحون لأنفسهم حرية أكثر من اللازم . أنت قرمطي أصيل .

ــ رجعنا ؟ أنت أمية . لماذا لاتأخذين أول طائرة ، وتعودين الى بغداد .

ــ واتركك هنا تسرح ؟ وتمرح ؟

ــ ستسممين حياتك بالارتياب .

ــ لن أعود إلا معك .

ــ أنا لاأعود إلا بعد أن أدافع عن أطروحتي ولكنك ستأكلين رأسي .

ــ وتظلين تأكلين رأسي .

ــ مادمت تستقبل عشرين مكالمة نسائية في اليوم .

ــ اجعليها خمسين .

ــ الرقم لايهم .

وقال صالح لأخته بعد أن فرغا من العتاب دون أن يقنع أحدهما الآخر .

ــ مارأيك بقدح مثلج من البيرة .

ــ لا ، عيني ، رأسي يدوخ ، وبعد يومين مسافرة .

ــ إذن ، اسمحي لي أن أشرب قدحاً ، واخرج معك .

وتمدد يحيى سليم على سريره موجع المفاصل . انهى حصته من العمل اليومي . فماذا يفعل الآن ؟ يذهب الى السينما ؟ فات وقت الذهاب الى السينما . والمسرح يطرح عليه مشاكل لاتلامس مشاكله أم لعله يتلفن الى صديقه صاحب . « البوكس الحديدي » . ربما هو الآن مع ابنه في المستشفى . وأنا ، أين ابني ؟ أصبح لي اثنان يسميانني عمي ، ولا أحد يسميني بابا . لعنة الأبوة تتحاشاني من بين كل اللعنات الأخرى . ولكن وكيف من بين كل اللعنات ؟ ولعنة الفشل ؟ أليست ملتصقة بك التصاق شعرك بجلدة رأسك ؟ والغربة ؟ ألا تحس بها كالسلاءة تحت أظافرك ؟ أوه ، اللعنات كثيرة . ولكن المهم الصمود أمام اللعنات أيضاً . سأقول ذلك لثابت حسين ، الواعظ بالصمود في كل الأحوال . يعني ، ماتزال لدي امكانيات . وعلى العموم ، كما سيقول ثابت حسين ، الموت وحده هو الذي يضع حداً لكل امكانية . ولكل حالة احتمالاتها و ... مجرد وأن المصادفة لاتخدمني ... حظي عاثر أو عائر ... كلاهما يؤدي المعنى ولكن كيف

نسيت أن أسجل في «الفروسية المهزومية» دور المصادفة في حياتي، أية مصادفة دفعتني الى أن أختار ذلك اليوم بالذات لأذهب اليها في مكان عملها، وأن آخذها عبر دروب معينة، وأن « يصادفنا » ذلك المطعم الغجري بالذات، الذي صادف أن دخلته مع عريسها ذات مرة، وصادف أن يدخل فيه عروسان جديدان أثارا شجنها، بالتأكيد، ذكراها يوم دخلت مع زوجها ذات مرة ــ وصادف أن جلس العروسان وراءنا، وصادف أن تكلمنا عنهما، وصادف، وصادف. وقال يحيى سليم لنفسه: هل يقر ثابت حسين بالمصادفة، وماذا يعتبرها عملياً؟ أهي « لحظة » خارج الزمن لاتدخل أو تدخل في تعيين « اللحظات الثورية ». سأكلمه حتماً، اليوم، مساء حين نلتقي...

ودق جرس التلفون، فرفع يحيى سليم السماعة كالملهوف.

— ١٧ —

جلس يحيى سليم قبالة ثابت حسين في المقهى الوحيد لشرب الشاي في هذه المدينة الواسعة. الموائد صقيلة بنية من خشب البلوط السميك، والسماورات الذهبية تزين الأركان، وأباريق الشاي من مختلف الحجوم على الموائد وعلى المنصات، والدمى القماشية الزاهية الألوان اللابسة تنانير بيضاء وخضراء وزرقاء وحمراء. وفي الجو رائحة عسلية شذية دافئة. والتدخين ممنوع.

ــ كيف حال حسوني؟

ــ اليوم سمحوا لي بمجالسته. حالته في تحسن.

ــ كم مضى عليه في المستشفى؟

ــ ثمانية أشهر.

ــ نعم، أنا أذكر أنك جئت في الخريف الماضي، جيتك الأولى، وهذه الجية.

ــ سأكمل أربعة شهور هنا. لاأعرف ماذا سيقول صاحب المطبعة. طلبت منه تمديد الاجازة مرتين.

ــ تخاف أن يفصلك.

ــ لست خائفاً. وكأنه أول فصل في حياتي. أنا مرتاح لأنني ساعدت ابني على استعادة ذاكرته لاسيما و...

ــ لاسيما وهو ابنك.

ــ لاسيما وأنا أشعر بأنني مسؤول عما حصل له. لقد كان دائماً يلازمني الاحساس بالمسؤولية الارادية إزاء عائلتي، ولكنني الآن أشعر بمسؤولية مضاعفة فقد كان من الممكن أن أذهب أنا وأن يقع الحادث معي، أو لايحصل...

على أية حال مصادفة. ولكنني أشعر بالمسؤولية المزدوجة إزاء ماحصل.

قال يحيى وهو ينحرف بالحديث الى اتجاه آخر لغاية في نفسه:

ــ نعم، المصادفة، ولكنها المصادفة السيئة.

ــ والقدر، هذا الذي يضحك علينا؟

ــ بعض الناس يسمونه القدر، ويعزونه الى قوة خارجة عن ارادة الانسان.

ــ ماهي المصادفة، إذن أليست قوة خارجة عن ارادة الانسان ؟

ــ يقولون أنها تجمع عدة عوامل كنا نجهلها حتى تلك اللحظة التي تقع فيها المصادفة، أو شيء من هذا القبيل.

انكمش يحيى سليم على نفسه يفكر، وراح يعبث لاارادياً بقدح الشاي الفارغ أمامه. صمت صمتاً طويلاً، أطول من أن يطيقه محدثه، الذي كان ينظر اليه بإمعان: الجبهة العريضة المحزوزة بخطوط طولانية، والشعر الأسود الكث الأشيب عند الفودين. والجفنين المسبلين، والأنف المكور فوق الشارب السميك، والشفة السفلى الممطوطة، والفك المرتخي. الوجه كله جامد يتسمع الى مايجري في أعماق النفس. تركه ثابت في حالة الغيبوبة هذه، حتى لمعت عيناه، من تحت الجفنين المرفوعتين، ورفت على الوجه نسمة حركة. فقال ثابت:

ــ ايه، هل عندك شيء ضد المصادفة؟

ابتسم يحيى سليم ابتسامة ساخرة تجلت فيها مرارة قلبه، وقال:

ــ وأنت؟

ــ معها، إذا كانت حسنة.

قال يحيى كالمستغيث:

ــ وأين منا؟ المصادفات الحسنة؟ هل تذكر واحدة حصلت لك؟ أما أنا فلا أذكر، لاأذكر.

كرر بسرعة ونظر في وجه صديقه، وراح يقص عليه المصادفات التي حصلت في حياته... الى مصادفة المطعم الغجري، حين قال:

ــ ايه قوة عجيبة دفعت أرجلنا باتجاه هذا المطعم الكريه؟ اجتزنا شوارع عديدة، رأينا فيها مقاهي ومطاعم مررنا بها مر الكرام، ولم يخطر ببالي أن اختار واحداً منها، مع أنني كنت أحس بالتعب من السير في الطرقات، حتى رأيت ذلك المطعم القبيح المصبوغ بالأزرق فدعوتها اليه. ويحدث ما يحدث.

ضحك ثابت واستفز يحيى. قال:

ــ لماذا تضحك مني، ياصديق « البوكس » الحديدي؟

ــ لاأضحك منك، ولكن من حرارتك الزائدة. لماذا لاتأخذ الأمور مأخذ أسهل؟ لماذا تحاول أن تفسر كل شيء لغير صالحك؟

ــ وأين هذا من صالحي؟

ــ وهل انتهت الدنيا بهذا الحادث.

ــ انتهت علاقتي بتلك الفتاة. لن أكلمها. وهي من جانبها لم تعد تكلمني بالتلفون.

يعني، محاولة أخرى من محاولاتي الفاشلة.

ــ خذ الأمور كما هي، ولاتعتبر ذلك آخر الدنيا. أنت تأكل نفسك بنفسك. اخرج من قوقعة ذاتك.

ــ تريد أن تقول أنني أناني؟

لوى ثابت رقبته، ولم يقل شيئاً. فمضى يحيى سليم يدافع عن نفسه:

ــ كل مافي الأمر أنني ألوف أكثر من اللازم. اتشبث بالأشياء التي تهرب مني، وأذعن لقول المتنبي: خلقت ألوفاً لو رحلت الى الصبا، لفارقت شيبي موجع القلب باكياً.

وأشار الى الشيب في فوديه.

ــ هذا صحيح أيضاً.

ــ أنا أعرف نفسي. وهل أنت تنسي الناس والأشياء؟

ــ لا، قطعاً، ولكن أستطيع الانتقال منها الى أشياء جديدة، مع الاحتفاظ بذكرياتي في زاوية من ذهني، ولا أدعها تنفي على الذكريات الأخرى.

ــ وهل تتصور أنني لم أحاول ذلك؟ كل حياتي محاولات للانتقال وتجاوز الأشياء القديمة. ألا يكفيني أنني انتقلت من قارة الى أخرى، كما يمكن أن يقال، مكرهاً أو بدافع ايجاد صيغة أخرى لحياتي، وفتشت عن هذه الحياة الجديدة، باتخاذ حرفة جديدة، وأصدقاء جدد وبكذا وكذا... أنت تعرف قصتي ولا حاجة الى إعادة تفاصيلها.

ــ أرجوك... لاتتمن لي هذا المصير.

ــ شفت؟ يعني تخاف أن يكون لك مصيرنا.

ــ من يدري! أنا لاأضمن لك... ليس هناك شيء مضمون غير أن تشرق الشمس كل صباح... وما الى ذلك...

رفع يحيى سليم قدح الشاي الفارغ ووضعه حتى أصدر صوتاً قاطعاً كمطرقة حالم، وقال كالصارخ:

ــ أنت أيضاً فلك تدور حول قناعاتك وآرائك غير القابلة للنقاش... أنت لم تتغير كلياً منذ أن عرفتك في المتوسطة. تتباهى بالصمود، بينما ليست لديك الشجاعة على أن تضمن غير شروق الشمس كل صباح...

ــ هذا رأيك... وسمعته أكثر من مرة.

ــ أنت تخاف الفشل... بينما أنا لاأخافه... من لايجرب لايفشل... بينما سأظل أجرب، وأجرب... رغم مأساوية حياتي.

ــ حياتك ليست مأساوية إلا بالقدر الذي تشدد أنت فيها على جوانبها الكالحة.

سكت يحيى سليم، ودلى رأسه، وعاين في قدحه الفارغ ولم ير ثابت حسين عينيه ولا

حولهما إلا حين رفع رأسه، وقال:

ــ قل لي، ثابت...

ولاح الحول كأقبح مايكون، حين زاغت عيناه، قبل أن يحاول أن يثبتها في نقطة واحدة.

ــ لاأدري، ولكنني أتصوركم، أنتم المغتربين هنا لهذا السبب أو ذاك، أفلاكاً تدور حول نفسها وتريد، إن لم تخضع العالم الموجود خارجها، فعلى الأقل أن يعترف هذا العالم بها كأفلاك مضطرة، لسبب غير مقنع كثيراً بأن تنسج حولها شرانق وحدتها القاتلة.

ــ طيب، وبماذا تنصحها؟

ــ أن تخرج من هذا التصور، أن تخرج من محيطها الذي يوهمها بهذا التصور.

ــ وأنا؟ ألم أخرج... لقد حدثتك قبل قليل.

ــ هذا ليس خروجاً. هذا دوران في البقعة. قل لي، يايحيى، هل تعرف من العراقيين غير هؤلاء الذين يتلفنون لك ليدعوك الى مائدة شراب؟

ــ تقصد من؟

ــ وهل خلت هذه المدينة العظيمة إلا من بضعة أشخاص يتحلقون حول الموائد؟ هناك الطلبة المجدون الذين لايجلسون في المطاعم، لأنهم لايملكون مايدفعونه فيها ثمناً للطعام والشراب، وهناك الذين يتشوقون للذهاب الى المسارح. وهناك الذين ينبشون في المكتبات العامة. وعلى العموم هناك أناس يعيشون طرازاً من الحياة أكثر جدية، ولهذا هم أكثر تفاؤلاً....

بدا العبوس على وجه يحيى، وتكور شاربه حول فمه. وقال بعد لحظة صمت:

ــ أوه، الوعظ! أنا متأكد من أنك، لو كتب لك أن تأتي الى هنا ستصير مثلنا، ولن تكون لك الرغبة في الذهاب الى المسرح.

ــ قل لي ثابت. أيهما أهون على الانسان ــ وصمت لحظات أخرى ــ أيهما أهون: ــ أن يكون له ابن... ماذا تسميه؟.. ابن معطوب، أم أن يكون له ابن بعيد لايعرف أنه أبوه، ويسميه عمي؟

جوبه ثابت بهذا السؤال. ولم يعرف كيف يجيب ــ وقال:

ــ إنه سؤال ضيق ولم أكن أتوقع أن يطرح عليّ. ولكني أعتقد من الأفضل أن تسأل هذا السؤال: أيهما أهون على الانسان: أن يكون له في وطنه مكان مضمون، أم أن يكون طريداً محروماً منه؟

تعبس يحيى واعتبر ذلك استفزازاً، فقال لثابت بلهجة ساخرة:

ــ وهل تظن أن لك مكاناً مضموناً في وطنك؟

ــ ليس مضموناً، ولكن أكافح قدر الامكان ليكون مضموناً.

ــ أي نعم، أنت لاتضمن إلا شروق الشمس كل صباح، ولكن ألا تستحي، وأنت

الصحفي القدير، وصاحب شهادة جامعية وتاريخ طويل، أن تشتغل وكيل مدير مطبعة تطبع الاعلانات وبطاقات الدعوات للزفاف، والوصولات وغير ذلك؟

ـــ تريد أن تقول نحن متساويان؟ كلانا يعيش في غير محله.

ـــ المهم أن تكون لك في وطنك الحرية الكافية لأن تمارسك عملك الأصلي، لا المزيف... هذا ماأريد أن أقوله، وأن تمارسه بالشكل الذي يريح ضميرك...

ـــ ولكن المسؤولية، المسؤولية، يايحيى... المسؤولية لاتشعر بها وأنت خارج الوطن... لقد تجمدت عندك الى حد... فقدان الاحساس بها حتى بالنسبة لابنك... هذا الفرق بيني وبينك: أنا أحس بالمسؤولية إزاء ابني، وأنت لاتحس بها.

ـــ هل تحس بالمسؤولية إزاء ابنك؟... هذه النقطة التي انطلق جدلنا منها.

قال يحيى سليم بدون تفكير:

ـــ احساسي بالمسؤولية إزاء وطني هو مثل احساسي بالمسؤولية إزاء ابني. كلا الاحساسين خنقتهما يد لئيمة عن قصد أو غير قصد... مثلما انقلب وطني الى وطن للآخرين يسرحون ويمرحون فيه وحدهم، انقلب ابني الى ابن أخ لي، وملكاً حلالاً للآخرين.

ـــ طيب، هذا الذي هو ابن أخيك الآن... ألا تشعر بالمسؤولية إزاءه؟

ـــ أي نوع من المسؤولية إذا كان بعيداً عني، تفصلني عنه جبال وأهوال؟ أما أنت فابنك جنبك، ولا أحد ينكر أبوتك له، ولايتقصد فك ارتباطك به... بينما في حالتي يوجد هذا الشخص.

ـــ تقصد زوجتك؟

ـــ ومن أوحى لها بهذه الفكرة.

ـــ ألم تتكلم معها، تجادلها؟ كيف فسرت لك سلوكها؟

ـــ فسرته، ولكن بشكل غير مقنع، على الأقل بالنسبة لي.

ـــ كيف؟

ـــ تقول لاأريد أن أحدث شرخاً في نفسية الطفل. أريده أن ينشأ سوياً من الناحية النفسية. ومادمنا قد انفصلنا. ولم نستطع العيش سوية فليكن في ذهنه أن أباه خارج في سفر بعيد، حتى لاأدخله في قضية لايفهمها... على الأقل وهو في سن التكوين.

ـــ ربما تفسيرها صحيح من وجهة نظرها.

ـــ طيب، ولماذا تأتي وتنبش الماضي؟

ـــ تصورتك ستفرح بهذه المناسبة، أن ترى ابنك. ألم تقض، معه أوقاتاً سعيدة؟

ـــ هذا منسجم مع روح القانون العراقي القائل: يحق لكل عراقي مغترب زيارة بلده لمدة لاتتجاوز الشهر؟

ضحك ثابت، وقال بمغزى.

ـــ على أن يكون ذلك بشكل مفاجيء دفعاً لكل محذور.

ـــ لكل مصادفة سيئة...

وضحك يحيى هو الآخر. حتى سمع من يقول:

ـــ وهل تعتبر مصادفة سيئة... أن نجدكما هنا؟

رفع الصديقان رأسيهما فرأيا صالح جميل وعلوان شاكر فوق رأسيهما. جلسا قبالتهما قبل أن يدعيا. قال صالح جميل محتجاً وهو يدير رأسه في المقهى:

ـــ كيف عثرتم على هذا المقهى التعيس؟

ـــ من يفتش يجد.

كان علوان شاكر في حالة عصبية، لأنه كان يعبث بطرف شاربه. قال صالح جميل:

ـــ هذه أول مرة أدخل الى هذا المقهى. ماذا يقدمون فيه؟

ـــ الشاي فقط؟

ـــ وهل هناك مجانين يشربون الشاي في الساعة الثانية؟

ـــ كل الذين تراهم هنا رزينين، هم مجانين في مقياسك.

ونحن أيضاً منهم. كم تركيزك؟

ـــ قدح شمبانيا، وزجاجة بيرة، كفيلك الله!

قال يحيى لثابت:

ـــ هذا فلك آخر.

ـــ فلك؟! لا أبداً. أنا قاعد أبداً، بينما الفلك دوار.

ـــ لاتخف! أنت أيضاً تدور، ولكن حول نفسك، حسب نظرية ثابت الشخصية.

ـــ أعوذ بالله! وهل أنا مجنون لأدور حول نفسي؟

تبرع علوان شاكر ليقول بلهجته الاستاذية القاطعة.

ـــ ومن يشرب الخمرة في النهار غير المجنون؟

ـــ ياأخي، أنا أشربها بفلوسي.

ـــ حتى هذا.

ـــ ولاأعتدي على أحد.

ـــ حتى ولو كان هذا.

ـــ الله! ياأخي، أريد أن أتمتع بحريتي دون أن أضغط على حرية الآخرين. خلاف الذين يتصرفون بالعكس. بربكم: أهذا جنون؟

قال يحيى بلهجة حيادية:

ــ الجنون ألوان .
دافع صالح عن نفسه بحدة ليعم الجنون الجميع :
ــ والله ، كلكم تتمنون أن تكونوا مثلي ... تجنون هذا الجنون النشوان ــ ثم غيّر لهجته ــ صحيح لايوجد في هذا المقهى غير الشاي ؟
ــ ها أنت ترى ماذا على الموائد .
التفت صالح الى علوان وقال مؤنباً :
ــ ولماذا جئت بي الى هنا ؟
صاح به علوان :
ــ قلت لك لاشتري شاياً . والمخزن المجاور لايفتح إلا في الساعة الثالثة ... على الأقل لنقعد ، ونبلل ريقنا . الخاتونة زوجتي لاتحب أن تشرب إلا الشاي العراقي .
سأل يحيى سليم :
ــ تلك التي شتمتنا ؟ من ورائك لحقتنا شتيمة .
ــ إنها تشتم كل الناس ، فلا تتأثر .
ــ لا ، والله أتأثر . ولماذا تتهمنا بالدعارة ، منذ أول لقاء بيننا ؟
قال صالح جميل يخفف الموقف :
ــ كلنا داعرون ، والحمد لله . انهضوا لنذهب الى مقهى يباع فيه الكحول .
ــ نحن باقيان هنا .
ــ وأنا أيضاً أريد أن استريح من توتر الأعصاب .
ــ يعني ، أنا وحدي السكير ؟ أعوذ بالله . الحق مع زوجة علوان . كلكم والله ، مثلي ، ولكنكم تتظاهرون بالعفة .
ــ صالح رائحتك تفوح في كل المقهى .
ــ طبعاً ، في مقهى لاتشم فيه غير خميرة الشاي .
ــ ولماذا لاتشرب الشاي وتهدأ ؟
ــ الشاي للصباح .
ــ وهل رأيت صباحاً في حياتك ــ قال يحيى سليم ــ صباحه يبدأ بعد الساعة الثانية عشرة

وخلال ذلك جاءت النادلة ، وقدمت لهما قدحين وابريق شاي . وقال علوان :
ــ اشرب ، ياأخي ، وهدىء نفسك .
ــ نفسي هادئة . نفسك هي اللائبة . ملأت رأسي اليوم بالشكوى .
ــ نحن لم نلتق إلا قبل نصف ساعة .

ـــ أقصد خلال نصف ساعة. ألا تكفي نصف ساعة للشكوى؟ أنا وحدي الذي لاأشكو. ومافائدة الشكوى؟ الشكوى للعاجزين.

ادلهمت وجوه. وبحث صالح جميل عن قدحه، فوجده ساخناً، فارتدت يده عنه. أعماقه ملتهبة دائماً، فهو يبحث عن مبرد لها. لم يجده. تجهم لحظات صمت ثقيلة أمضاها صالح جميل في تمعن أصابعه القصيرة المتورمة.

قال سهواً:

ـــ أصابعي لم تعد تمسك القلم.

اهتبلها علوان شاكر فرصة:

ـــ أها! أليست هذه شكوى، أيها العاجز؟

ضحكوا. واعتبر علوان نفسه منتصراً. قال بحكمة عالم:

ـــ الشكوى تنفيس، وإلا انفجر الانسان كالنفاخة التي عبئت بهواء أكثر من طاقتها.

لعب بشاربه، وتابع وسط صمت حيادي:

ـــ قيل لصالح ذات مرة أن فلاناً يستحم في الأسبوع مرة، فتعجب وقال: عُكْركة خو مو عكركة!

ضحكوا ثانية. وزاد ذلك من شعور علوان بالانتصار. كان يبتسم ابتسامة مشرقة من تحت شارب فاحم لولا خيوط الشيب القليلة فيه.

قال صالح مستفزاً:

ـــ هكذا تهينني؟ أصبحت نبياً عندما حطت عليك زوجتك كملاك هابط من السماء.

ـــ هذا مايشاع عنك. أما مسألة زوجتي، فتمهل، وسأطلقها قسماً بالله، سأطلقها.

وزاد عبثه بشاربه، وتابع منكساً رأسه:

ـــ سأطلقها مثلما فعل يحيى سليم بزوجته القديمة. وفي حالي أنا سأكون أنا المطلق.

نظر يحيى سليم اليه شزراً. لم ير إلا الجبين العريض والصلع الذي يزيده ارتفاعاً. وقال لنفسه: إنه يهينني، مثلما أهانتني زوجتي. وشعر علوان شاكر بأنه لم يوفق بالمقارنة، في جو جدي بارد، فأخذ يبرر فعلته بالشكوى من زوجته.

ـــ ستقتلني رسمية. لن تتعلم حتى لو وضعتها في أكثر بقاع العالم حضارة. وأية بقعة أكثر حضارة من هذا البلد؟ البلد الحلم، البلد المجاهد. ولكنها تتصرف بابتذال بيتي بورجوازي حقير.

ورفع بصره، ونظر الى الوجوه المنكفئة على نفسها، إلا وجه ثابت حسين، فقد لاح عليه

استهجان واستغراب. راح يخاطبه مستجدياً عطفه:

ـــ هل تعرف أنني لم أتناول لقمة حتى الآن؟ اشرب الشاي على معدة خاوية، أثارت أعصابي رمت نصف قدر كاملاً من طبيخ البارحة في الزبالة ـــ لم استطع كتمان هيجاني، فقلت لها: رسمية، هل تعرفين كم عدد الجياع في العالم؟ عشرات الملايين، وأنت ترمين طعاماً في الزبالة يكفي لخمسة أفواه جائعة؟

أجابتني ببرود أعصاب: لايوجد جياع في هذا البلد. هذا صحيح، ولكنه تبذير متعمد، وهدر للامكانيات. ولماذا تفعل ذلك، ونحن ضيوف؟ هل تستطيعين أن تفعلي ذلك في العراق؟

ردت علي بنفس البرود: الحالة هناك تختلف. قلت: تختلف ولكن ليس لهذا السبب، بل لأن الفلوس التي نكسبها هناك لاتسمح لنا بالتبذير.

كان الجميع صامتين. وكان صالح جميل يعاني من كبت خاص به، فقد كان يمس قدح الشاي الآخذ بالبرود، ويسحب أصابعه منه، ويتلفت باحثاً عن شيء مفقود في هذا المقهى الخانق. هم أن يقول شيئاً لعلوان شاكر، ولكنه ظل يسند جمعي يديه على خاصرتيه، وكوعاه بارزان من يمين وشمال، وهي جلسة كان يرتاح لها، إذا لم تكن يداه مشغولتين بكأس أو تنظيف أنف، أو تمعن أصابع. ومضى علوان شاكر يقول محاولاً أن يحرك في الحاضرين مشاركة وجدانية معلنة بالكلمات:

ـــ في العراق عانيت من قلة الراتب، ونصفه يذهب للايجار. وايجار الشقة هنا بثمن بخس مع الكهرباء والماء الحار، والطب مجاني والأدوية بفلوس معدودة. ونحن لم نأت هنا لنخرب الاقتصاد، ونبصق في الاناء الذي نأكل فيه.

انتفض الثلاثة لهذه التهمة. قال صالح:

ـــ اسمع، اسمع... لاتنشر ملابسك الوسخة.

وقال يحيى سليم:

ـــ أشد ماأكره العموميات!

قال صالح:

ـــ ياجماعة أحكي لكم حكاية تفضح نفسية هذا الرجل. قبل أسبوع كنا نشرب البيرة (حاول علوان أن يحتج فأمسكه من يده) كنا نشرب البيرة عند شاطىء النهر، فاججت البيرة المسالمة مشاعره، فراح يشكو أيضاً، ويشتم بصوت عال، وهو يسير في وسط الشارع. جاءته سيارة من الخلف، ونبهته بمنبهها. قفز كالأرنب المذعور، وراح يشتم السائق، والذي وضع الدفة في يديه. والظاهر أن شرطياً كان يراقبنا، فلما وصلنا اليه، أدى التحية كالمعتاد، وقال: هوية! صاح به علوان: ولماذا تطلب مني هوية؟ كان الأحرى بك أن تسحب إجازة السائق الذي أرعبني.

قال الشرطي: أنت المذنب، فقد كنت تمشي وسط الشارع. والشارع للسيارات. وأصر على طلب الهوية، أو يمضي معه الى القسم. شبك علوان ذراعيه على صدره، هكذا، وقال رافعاً رأسه الى الأعلى: حتى لو جاء رئيس الجمهورية بنفسه، وطلب مني أن أذهب الى القسم فلن أذهب. فما رأيك؟ وحصلت مشادة، كما يقولون، لولا توسلاتي بالشرطي، لحصلنا على رزالة من أخ لأخيه.

وضحك صالح معتبراً نفسه قد رد الاهانة. وقال ثابت:

ـــ أمرنا الله بالستر، فلنستتر!

— ١٨ —

كان الصيف الساخن يجعل الاجساد البشرية تنضو أكثر مانستطيع التخلي عنه من الثياب. وكانت الشمس الساطعة اللاهبة أحياناً تجعل هذه الأجساد كالتماثيل المرمرية المتحركة المتقنة الصنع الى حد سريان الدم فيها، وتوهج حمرته على الوجنات، والأذرع العارية، والصدور الريانة، والسيقان المكشوفة الى مافوق الركبة بسنتمترات كثار. وحين تفتر حرارة الشمس في الأصائل كان الناس يزحفون أفواجاً الى المنتزهات والحدائق العامة بشوشين كمهرجان للألوان الزاهية، ويتحلقون حول أكشاك بيع الدوندرمة والبيرة والمرطبات، ويملأون طرقاتها المعرشة بروائح أجسادهم القوية التي تكتسب، في الصيف، عبق العافية المنعش، الذي إذا امتزج برائحة العرق والنجيل المحصود، وأوراق الشجر المتسلطنة بعث في الرأس نشوة المغامرة الى شيء غريب، وغير محدود، يفتك بأكثر الرؤوس رصانة. فكيف برأس رسمية؟ كانت في أوقات فراغها، حين يخرج علوان الى المكتبة، كما يقول لها وتشكك هي في قوله، تفتح نافذة الحجرة في الطابق الحادي عشر، وتطل على المدينة المستريحة على وسائد من الخضرة، وتستمع الى زقزقة العصافير. وبربرة السيارات من وراء البناية، فترى الأطفال يلعبون في أرجوحاتهم وبيوتهم الخشبية، وتلال الرمل، ومكعبات البلاستيك الملونة، والحصن الخشبية، فيخيل اليها أن كل شيء ميسر لها كل شيء بلا قيود ولا حدود، والناس أحرار طلقاء يفعلون مايريدون أن يفعلوه دون أن يلتفت اليهم أحد، أو تضايقهم عين فضولية. وكان هذا يشعرها بالحسرة، ويكشف لها السر في بقاء علوان هذه المدة بعيداً عنها. وكان قد خطبها، وهي صغيرة، في السابعة عشرة، قبل أن يسافر الى سوريا للدراسة، ووجدت نفسها تنتظره في بيت مزدحم بالبنين والبنات، والكنات والأنسباء، حتى أكمل علوان الدراسة في دمشق ثم عاد فتزوجها. ولم يبق معها كثيراً، فقد ضاق من التدريس في الرمادي، بعد فترة قصيرة. وعند سنوح أول فرصة تركها ليكمل دراسته العليا هنا، بأسرع مدة، كما قال لها، ولكن سنوات خمساً مرت دون أن يعود... حتى ضاقت واشترت تذكرة سياحية ووجدته على ماهو عليه من الأثم...

وحين كانت تضيق بها الجدران، تتزوق، وتخرج الى دنيا الناس. وكانت تلحظ، بفرح غامر واعتزاز، نظرات الرجال الى صدرها الأسمر الناهد، وذراعيها العاريتين تقريباً. وكانت تضحك بسلطنة، وتتحداهم، وتبتسم عن أسنان بيض كاللؤلؤ المنضود، ولكن لكل الناس، ولا

لأحد على وجه التعيين. وحين كان زوجها يسير الى جانبها، كان يقول لها بلهجته المتعالية، القاطعة الطالعة من الكتب الصفراء التي يقرؤها.

ــ أتحسبين أنهم ينظرون لجمالك؟ لا، أبداً، بل لتبرجك الفاضح، لعريك القبيح، كـ... كـ...

ولم ينطق بالمشبه به، وكانت تعرف عجيزة القرد الذي يحب تردادها. لقد كانت له تشابيهه المتداولة المتكررة الى مالانهاية. فتقول له بلهجتها الغنجة الممطوطة.

ــ الله! بدأت تغار؟

ــ لا أغار، بل أخجل.

ــ كان الأحرى أن تخجل من صديقاتك، أو زميلاتك اللواتي لايدرسن إلا مع زجاجة من الخمرة.

ــ سأقطع لسانك.

ــ وتحسب نفسك تقدمياً؟

ــ أكثر تقدمية من أبيك. ومع ذلك سأقطع لسانك.

ولكنه، بدلاً من أن يفعل ذلك، يكتفي بالقول:

ــ أنت طالق.

فتعيره بلهجته الممطوطة الاستفزازية:

ــ للمرة الـ... كم؟

وكان يتميز غيظاً عن صدق. كان شارباه يرتجفان، وتعلو وجهه كدرة مشؤومة، وكأنه طعن في كبده. وكانت في ردودها الباردة هذه تشعره بأنه محاصر ومغبون، ومفترى عليه، وأن البشرية ستخسر شيئاً كثيراً من هذه المخاصمة المستمرة، والتنكيد الطويل. وكان يؤمن بأن المرأة، إذا كانت لها خدمة حقيقية في الحياة فهي خدمة زوجها، وتوفير أقصى الراحة له، لاسيما إذا كان موهوباً، وصاحب رسالة مثله... بينما كانت هي تؤمن بأنها ند له، وإن لم تنه دراستها الثانوية. ولكنها كانت تجيد الانجليزية، وهو الشيء الوحيد الذي كسبته من بعدها عنه. ثم أن لها جمالاً يؤهلها، كما تعتقد، بأن يخدمها الآخرون ويلتفتون اليها. وإنها لم تخلق إلا لتصنع اللمسات الأخيرة لحياة رجل سيكون ضائعاً وناقص القيمة بدونها، وأن لها حصتها في الحياة.

واليوم خامرتها نفس الأحاسيس، وهي تنظر الى الأطفال يمرحون، والناس كالحمائم الملونة ترى من مكانها في طابقها العالي، أعرافها الصافية الشقراء. ولم تعد تطيق البقاء في البيت، وتلقي تلفونات صديقات زوجها الكثيرات وأصدقائه القليلين. لبست خير ملابسها، وتزينت، وتعطرت، ووضعت قرطين في أذنيها، وقلادة في عنقها، وتناولت حقيبتها اليدوية من جلد

التمساح ، وخرجت ، وركبت الحافلة الكهربائية ، فتوجهت الأنظار اليها . ولكن العجيب أن أحداً من الرجال لم ينهض ويتخلى عن مقعده لها ، وظلت تتأرجح ، وتسلي نفسها بالنظر من الشباك . كانت قصيرة القامة ، فلم تكن تحتاج الى انحناء كبيرة لتنظر الى الخارج . كانت جسوراً ، ولاتخشى أن تضل الطريق ، يكفي أن تقول للانسان : دو يو سبيك انكلش؟ وير أز ... فيعرف اسم الشارع على الأقل . وكانت لها رنتها الخاصة في النطق بالكلمات الانجليزية ، حين تمزجه يغنجها في النطق بالعربية ، بنعومة صوتها ، وبفتور النهايات ...

كان اليوم يوم اثنين ، ومع ذلك فقد كان المنتزه يموج بالمتنزهين ، وأغلبهم يسيرون جماعات ، فتياناً وفتيات ، ويتكلمون بأصوات عالية ، ويضحكون بخلو بال ، ودت لو تشتري « اسيكمو » ولكنها خشيت أن تفسد تخطيط شفتيها ، وتدبق يداها . سارت شاعرة بنسيم الحرية يلثم لحمها ، ويتغلغل في أطراف ثوبها الرقيق . كانت تتلذذ بوجودها المستقل ، بحصانتها ، وقدرتها على التحدي ، ورفع الصوت . فأين بغداد من هذه المدينة الطليقة التي لايتلفت أحد فيها الى مايفعله جاره ، السائر الى جنبه . الرجال في بغداد يلتهمونك بعيونهم . ونظراتهم الوقحة تجردك من ملابسك ، وتنصب لك الاشراك . نظرات عطشى لافحة متأمرة لاتتصورك إلا معه في الفراش . أما هنا ، فالناس يضعون في نظراتهم ضمائرهم النظيفة ، فتلمع لمعان الفضة ، وتشرق الوجوه بالطيبة استنشقت رسمية نفساً عميقاً ، وزفرته بقوة ، وكأنها تحاول أن تتخلص من بقايا غبار بغداد الرملي . قبل شهرين هبت على عاصمة الرشيد عاصفة رملية جعلت الهواء بنياً ، والوجوه نحاسية صدئة ، واختفى وجه الشمس والسماء وصارت أكواخاً متربة . تنفست رسمية بعمق أشد . وشعرت بثقة عالية في النفس ، وبقدرة خفيفة ، على الحركة والتصرف ... حتى انبعثت من بئر نفسها فكرة جسور ، صممت على تطبيقها . فلماذا لاتتعرف على أحد هؤلاء الشبان النضرين المفعمين بالحيوية للتسلية وللاغاظة على الأقل؟ سارت في درب معرش تتناثر المساطب الخضر والصفر والزرق على جانبيه ، والناس قاعدون هناك . رأت شاباً يجلس على مسطبة يطالع كتاباً . جلست الى جانبه يفصل بينهما أقل من ذراع . جسارة! لم يرفع الفتى بصره اليها . ظل غارقاً في كتابه . انتظرت حتى يرفع عينيه . كان شاباً نحيلاً ، مستطيل الوجه ، وتتدلى خصلات من شعره الأشقر من فوق جبينه على عينيه ، أثناء القراءة . يكشف قميصه القصير عن ساعد ملوح وساعة قديمة الطراز . والظاهر أنه أحس بنظراتها مصوبة نحوه التفت اليها التفاتة خفيفة . ربما استنشق عطراً غريباً عليه . ولما رآها تبتسم تلك الابتسامة اللؤلؤية أعادة الكرة ، فعاجلته :

ـــ دو يو سبيك انكلش؟

ـــ ومن حسن حظها أنه قال لها : « يس أي دو » .

وبدأ حديثهما سلساً عذباً . سألته ماذا يقرأ؟ أدار لها غلاف الكتاب ، وقال : دوما .

وخمنت بسليقتها مايقابل هذا الاسم بالعربية . سألته :

ـــ هل تحب القراءة ؟

قال متلهفاً :

ـــ جداً ، جداً . وأنت ؟

ـــ أيضاً .

ـــ من أين أنت .

ـــ من بغداد ... هل سمعت بها ؟

قال مستبشراً :

ـــ بالطبع ... حرامي بغداد .

وذكرها أنه رأى هذا الفيلم في طفولته عدة مرات . ومايزال يذكر المنائر والحصان الطائر والسوق ، والخبز والعسل . وأعجبها حديثه ، ابتسامته الطفولية ، وخصلات شعره النافرة . فقالت لنفسها ماذا لو استدرجه الى البيت وأغيظ علوان به ؟ وليعرف أي امرأة أنا ! ماذا سيقول صاحب الآراء التقدمية دارس القرامطة والمبشر بعصر المساواة بين الرجل والمرأة ؟ وصممت أن تفعل ذلك . ضحكت ضحكتها المغرية ، وقالت :

ـــ وتحب القراءة بالانجليزية ؟

ـــ بالطبع ... أحبها جداً .

ـــ عندي بعض الروايات البوليسية ، هل تحبها ؟

أرسل آهة تعجب ، وقال : صحيح ؟ أي لايك إيت فري ماتش ! وبعد بعض دقائق من الحديث الشيق ، دعاها لتناول الدوندرمة . وكان يحبها أيضاً ، مثل الأطفال . سارا كطفلين يمصان الأيس كريم . وقد نسيت رسمية أحمر شفاهها ، أو لم تعد تكترث به . قال لها أنه يحب الروايات التاريخية ، وروايات المغامرات . فقالت لتزيل الكلفة بينهما الى آخر حد :

ـــ وروايات الحب ؟

ضحك وقال : وهي أيضاً . أريك ماريا ريمارك ، وداعاً للسلاح . ثم سألها :

ـــ هل تعرفين غراهام غرين ؟

هزت رأسها نفياً . عدد لها بعض أسماء الكتاب . فبقيت صامتة ، ولم ترد بشيء . وعندما صعدت الباص ، أمسكها من مرفقها ليساعدها على الصعود . فشعرت بيده حارة لزجة . وكانت قد رتبت ، في ذهنها ، الوقت الذي ستدخل معه بيتها ، حين يكون علوان حاضراً ، فتفاجئه . ولكنها فاجأت نفسها بأن رأت البيت خالياً .

تمالكت نفسها ، وقالت له :

ـــ سأصنع لك شاياً عراقياً .

ـــ وماهو لون الشاي العراقي؟
ـــ بلون الدبس العراقي. ـــ وماهو لون الدبس العراقي؟
ـــ ضحكت حتى دفعت رأسها الى الوراء، وهزت خصلات شعرها، وقالت:
ـــ مثل التمر هندي.

بدت الحيرة على وجه الشاب، مما زادها فرحاً، وأشعرها بالسيطرة والثقة في النفس. اطلعته على الكتاب الانجليزي الوحيد لديها وهو لأغاثا كريستي: « الموت يأتي كنهاية » وأشارت الى ماجاء في الغلاف الأخير: « الشر في داخلنا ». فقال ضاحكاً:

ـــ انديد. يجب أن نتطهر.

ولم تعرف الكلمة التي نطق بها. ولكنها وافقته على « يجب ». وقرأت لتبرهن له على أنها تحسن القراءة: « استمع المخطوب الى تفسير سوبيك لبيع الأخشاب... » قال الشاب: إنها لغة سهلة، وكأنها من كتاب مدرسي. ضحكت دون أن تفهم مغزى كلامه. وانحنت لتقرأ معه الصفحة، وإذا بالمفتاح يقلقل بثقب الباب. قال الشاب بدهشة:

ـــ هو ايز ذيس؟

قالت: « نفر مايند » والتصقت به بشكل أثار دهشته. وأهل علوان من باب الرواق. وبدا كالشبح في إطار رمادي. وكان أصفر الوجه، غائر الوجنتين، يرتعش طرفا شاربيه. قالت بصوت صاف واثق:

ـــ سلم على الأقل.

عاجلها:

ـــ من أين لك أبو بريص هذا؟

قال الشاب:

ـــ هالو!

أجابه علوان في ضيق:

ـــ هالو يو! صرنا انجليز آخر الزمان.

نهض الشاب، وقدم نفسه، ومد له يده يصافحه. لم يصافحه علوان، ودخل الحجرة ليلقى حمله من الكتب، والمشتريات وعاد، وهو يحك أعلى شاربه بسبابته. عاد يقول لزوجته:

ـــ لم تقولي لي بعد: من أين جئت بأبو بريص هذا؟

ـــ أو، تأدب، ولا تسمه أبو بريص. إنه مرآة ذهب مجلوة إذا قورن بخلقتك المزنجرة.

ـــ عاهرة.

ـــ أيها الزنيم، لاتتكلم بلغة سلوكك اليومي.

ـ لماذا لم يأخذك الى بيته؟
ـ لأنني عرضت عليه أن يأتي الى بيتنا لشرب الشاي.
ـ حقيرة! تريدين أن تستفزيني؟
ـ لا. أريد أن أتمتع بشبابي. بس أنت وحدك؟
ـ أنا أضحي بشبابي في سبيل العلم والمعرفة.
ـ الله! من يسمعك يقول: أبو حيان الجاحظ.
ـ أنت أمية، وستظلين أمية.
ـ لاأسمح لك بأن تتكلم بهذه اللغة.
ـ سأظل أقول أنت أمية. اخرجي مع هذا الزنديق.
ـ اخرج أنت، ودعنا نتكلم بالانجليزي.
شعر الفتى بحراجة الموقف، فقال وهو يتلفت في وجهيهما.
ـ وتز ذي متر؟ أي ام سوري ايف...
قاطعه علوان غاضباً:
ـ سوري أنت وأبوك وأمك.
ثم التفت الى زوجته، وقال ملوحاً بأصبعه:
ـ ارجعي الى العراق ارجعي. ستشوهين سمعتنا.
ـ الله! وأنت رافع رأس العراق عالياً.
ـ سأرفعه رغماً عنك. سترين. الشك سيقتلك قبل أن يقتلني.
ردت عليه بالمثل الذي كان يردده أمامها دائماً:
ـ على نفسها جنت براقش.
وكانت في قولها هذا مضحكة للغاية. فكأنها بذلك قد رشت ماء بارداً على أعماقه الملتهبة. قال في شيء من التراجع:
ـ خذيه، واخرجي.
ـ دعه يشرب الشاي على الأقل. أين الضيافة، وأنت العربي؟
ـ لو استجبت لندائي العربي لقتلتك وقتلته.
ـ وهل رأيت زجاجة الخمرة بيننا، كما رأيتها معك أنت؟
رسم حركة نفاد صبر برأسه. وسكت.

— ١٩ —

كان يحيى سليم يتشاءم من التلفونات الصباحية، لأنها تفسد عليه يومه، وتحذف حصة يوم كامل من العمل. فهي في أغلب الأحيان دعوة الى الخروج من البيت بمهمة مفروضة أو إغراء بمشروع ليس من ورائه غير وجع الرأس وتعكير المزاج. فيظل بقية نهاره متأثماً من جرم انقاد اليه انقياداً. واليوم، حين رن جرس التلفون تركه يدق طويلاً، متكاسلاً أن يرفع السماعة. ولكن الجرس ظل يدق ويدق حتى اضطر الى رفعه. وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بقليل.

ــ نعم.

ــ يحيى، هل تسمعني؟

عرف الصوت. وأي صوت نسائي يتصل به غيرها؟

ــ سامعك، سامعك.

أنا بحاجة شديدة اليك. أرجوك ساعدني.

ــ مالخبر؟

ــ أرجوك. سأقف لك في رأس الشارع، شارعنا، أنت تعرفه؟ أو إذا أردت وقفت لك عند الصيدلية.

خرج، وارتعب. وخجل أن يسألها ليلمّ بأطراف الموضوع. كانت كالمستغيثة. وارتدت الى نفسه كل مخططاته لقطع علاقته بها. كان في صوتها ضراعة، وحنان مكلوم ويأس واستفظاع عن شيء غير مسؤولة عنه. واستجمع يحيى فلول فروسيته المهزومة، وتشجع، وقال:

ــ حالاً. سأركب. التكسي وآتيك حالاً.

سد غطاء قلم الحبر، وارتدى ثياب الخروج، وطلع الى دنيا الناس. وجد الفتاة في انتظاره عند الصيدلية. كانت تبدو كالمذعورة أو الهاربة من شيء غير محتمل، وكأنما خرجت لتوها من ظلام تلك الليلة التي تركها تذوب في ثناياها. قالت متهدجة الصوت:

ــ سأزعجك... الجيران كلهم مسافرون في إجازة ونحن في العمل جميعاً من النساء. وهذا شغل رجل.

وتوجس « الرجل » خوفاً من مغامرة غير مأمونة العواقب. سمعها تتلمظ بشفتيها، حين صمتت. كانت تبلل بلعومها الجاف سألها بقلق يكشف عن خوفه:

ـــ ماالذي حدث؟

ـــ والد زوجي المرحوم توفى اليوم فتحت عليه الباب فرأيته ممدداً كالنائم. ناديته، لم يجب. اقتربت منه. وهالني ارتفاع حنكه. أغلقت الباب، وتلفنت الى الاسعاف، حولوني الى قسم ايداع الجثث. ياويلي، ياويلي! وهناك قالوا لي هيئوه لنا! كيف نهيئه؟ اخلعوا ملابسه، وغطوه بمفرش... وأنا...

وانفجرت باكية، ولم تستطع أن تكمل وشعر يحيى سليم بأنه مقبل على امتحان لرجولته، إن لم تكن فروسيته. إن يعري ميتاً. لم يعد بحاجة الآن الى كلامها. وهي أيضاً لم تضف شيئاً عما هو مقبل عليه. قالت فقط:

ـــ تعودنا كل صباح أن يوقظنا. كان يستيقظ في الساعة السادسة، وأحياناً قبل هذا. وفي السابعة يدق علينا الباب، أنا والصغير، لنتهيأ خلال ساعة أقود الطفل الى الروضة. ولكن اليوم لم يدق علينا الباب. وأخذني النوم. استيقظت فزعة. ونظرت في الساعة كانت الثامنة إلا ربعاً. ياويلي! نهضت، وأيقظت الطفل. وكان أيضاً يغط في نوم عميق. قلت له: أن جدك اليوم نكت بنا. انهض، ياحبيبي، تأخرت عن الروضة، واستعجلت، ورحت وجئت. وناديت الجد وناديت، وما من جواب. اضطررت الى فتح الباب... فرأيته ممدداً...

قال يحيى سليم ليشجع نفسه:

ـــ هل كان مريضاً؟

ـــ أمراض الشيخوخة، وقلب وضغط الدم. ولكنه كان معافى. كل التسويق عليه. أنا لاألحق أن أفعل شيئاً. اخرج من العمل في الساعة الخامسة، وكل يوم، كل يوم...

ومضت تنشج من أنفها وكانت تقول بين نشجة وأخرى: ماكنت سأزعجك لو كان جيراننا هنا. شقتان سافر أهلهما للاستجمام. والشقة الثالثة يسكنها سائق تكسي خرج من الصباح، ولن يأتي إلا بعد منتصف الليل.

ساراً صامتين بعض الوقت. قال يحيى سليم لنفسه:

ـــ سأواجه الموت لأول مرة في حياتي. فكيف سأواجهه؟ هل سيشل يدي فلا تطاوعني؟ حاول أن يقنع نفسه بأنه سيجابه حالة حيادية، جسداً تخلت عنه روحه، وبقي شيئاً مهملاً، مثل ثياب رجل تركها على الشاطىء، وراح يستحم في بحر الأبدية. وفي تلك اللحظة الخاطفة من الزمن مرت حادثة مماثلة في طفولته، حين وجد ثياباً مرمية على شاطىء النهر، فظنها ثياب شاب أبله من محلته مسالم لايعتدى على أحد، نفس الدشداشة المقلمة، واللباس الطويل، والحزام والعرقجين. فأراد أن يداعبه، وأخذها من الشاطىء خلسة، وركض يريد أن يختبىء في موضع، ويرى من مخبئه كيف سيتصرف ذلك الأبله. ولكنه ماأن خطا عشر خطوات حتى أحس بكركبة أقدام خلفه، وقبل أن يتسنى له الوقت ليلتفت، أمسكت رقبته من الخلف يدان

جبارتان، وكادتا أن تختنقاه وكانت أنفاس حارة فاسدة تكتم أنفاسه. ولما استطاع أن يلتفت رأى رجلاً آخر غير الأبله يصرخ به:

ـــ حرامي... أدب سز! فهل سيجابه مثل هذه الحال؟ حاول أن يقمع هواجسه، ويشتم نفسه، ويطمئنها. واشتهى قدح خمرة، مائة غرام من الخمرة للشجاعة، كما يقال هنا. ولكنه أنكر على نفسه هذه الشجاعة الكاذبة. وقال في سره: ربما كان ثابت على حق. ويجب الخروج من الدائرة المعتادة، ومجابهة الموت وكل حالة محتملة بقوة أعصاب. ومثل هذه الفرصة تتاح له اليوم.

ـــ وصلنا.

سمعها تقول كان البيت من تلك البيوت النمطية الرمادية بطوابقها التسعة، ونوافذها المتقاربة، وشرفاتها الصغيرة البيضاء المزينة بأصص الزهور، والحزوز الواضحة الفاصلة بين قوالب جدرانها الكونكريتية.

ـــ في أي طابق؟

ـــ في الثالث.

وصعد يحيى سليم الدرج خافق القلب، وكأنه يقترب من معبد غامض، في هذا البيت الغريب عليه، حيث يسجى جثمان رجل لايعرفه. سيقتحم عليه عزلته مع الموت، ويعريه. انقبضت نفسه، وأحس باحتباس الهواء في رئتيه، قبل أن يدخل البيت. ود بقرارة نفسه، أن يلتقي بالطفل قرب الباب، ذلك الذي لاعبه الكرة الملونة على ساحل بحر مزهر، وفي جو طليق، ود من كل قلبه أن يقول له: « عمو » ويمده بالشجاعة، ويبدد وحشته، ويذكره بأن له تاريخاً طويلاً على الأرض. ولكنه حدس اليقين بأن أمه ارسلته الى روضة الأطفال، في مثل هذا اليوم الكئيب. قلقل المفتاح في ثقب الباب وانفرج الباب المغلف بجلد اصطناعي أسود عن باحة صغيرة فيها مشجب، ومرآة وأحذية، ومشمعات مطر، وعربة أطفال قديمة في أقصى الدهليز، المؤدي الى المطبخ. أشارت الى غرفة بابها مغلق. قال لها: « انتظري » وحاول في لحظة الانتظار هذه أن يسيطر على أعصابه. وقال لنفسه: إنه حين سيدخل لن ينظر الى الميت، بل الى الغرفة ومافيها من أشياء، ليألفها، فلا يكون متطفلاً عليها، بل وكأنما جاء في زيارة، كأنه طبيب جاء ليعالج مريضاً. ولكن هذا التصور أرعبه. فقد بث الحياة في « شيء » كان يريد أن يتصوره جامداً غائباً لاصله له بأي كائن بشري. توقف لحظة استطالت الى دهر. ولما رأى عينيها ترفان قربه بتثبت متشكك، قال ما خطر على باله:

ـــ ماذا يلبس؟

ـــ في الفانيله واللباس.

ويسرت له المهمة. لاحاجة الآن الى أن يتصوره مرتدياً ملابسه كلها ينتظره وراء الباب، في مقابلة سرية. وحاول أن يقنع نفسه بأنه سيلملم أشياء انسان راحل. لاأكثر من أن يخلع فانيلته ولباسه، ويتركه عريان. وفتح الباب بجسارة وبدفعه واحدة، ورأى السرير، و« الشيء » الممدد عليه. كان يبدو وكأنه يغط في نوم عميق أو مخدر. قطع خطوتين أو ثلاثاً خافتة الصوت مختلسة، وكأنما يخاف ايقاظ نائم. كان السرير واطئاً اضطر يحيى سليم أن يثني ركبتيه، فاصطدمت بنعال متهرىء على البساط الصغير قرب السرير. نحاه، وثبت قدميه، وقال لنفسه: لاتخف، ياصاحب النخيل المقطوعة الرؤوس. وقبل أن يزيح الغطاء عنه سمع صوت الفتاة يهمس قرب الباب: « لفه بالشرشف » أزاح الغطاء، فاصطدمت أصابعه ببرودة صلبه. وبدا الصدر العظمي المضلع، وخندقا عظمي الترقوة، ورمانتا الكتفين البارزتان. ولم يعرف كيف يحركه ليخلع عنه فانيلته، رفع بصره. كان الباب مغلقاً. نهض من ركعته، واتجه الى الباب، وفتحه. وجدها جالسة على الكرسي مطأطأة الرأس. ولما رفعت بصرها اليه قال لها: هل عندك مقص (لايعرف كيف جاءته هذه الفكرة) سأقص ملابسه، فما نفعها الآن؟ ركضت وأخرجت المقص من فوق رف، وأعطته إياه صامتة. وكانت هذه الحركة قد مدته بشيء من الجرأة، فعاد الى حجرة الموت ثابت الحركات تقريباً، وقص الفانيله طولاً، وسحبها من تحت الميت، ثم فعل نفس الشيء بلباسه الملون بورود صغيرة، ولكنه صنع شقين من الجانبين، وأخرج المزقة من تحت الميت، وترك الأخرى الفوقانية تخفي حرمته. وبدا الآن أكثر سيطرة على العملية. الآن كان عليه أن يرفع المخدة من تحته، وبعد وضع يديه على صدره. انسلت المخدة بسهولة، مع تحرك طفيف في وضع الميت. أمسك اليدين الباردتين ودفع أحدها نحو الأخرى. أبدتا مقاومة، وخشى أن يسمع فرقعة العظام، ولكنه لم يسمعها. طوى جانبي الشرشف من يمين وشمال، ورد بدايته ونهايته على الرأس والقدمين، وصار الميت قطعة من البياض الشاحب، واختفى.

فتح الباب، فوجدها على جلستها الأولى. ذارعاها مطويتان على حضنها، ورأسها متدل. رفعت بصرها اليه. أشار بذراعه الى أن كل شيء قد تم كان حلقه جافاً فطلب منها شيئاً من الماء. أشارت الى أريكة تستجلسه، وهرعت هي الى المطبخ وجاءت بقدح الماء. وجلست بالقرب منه أليفة مطواعة، كأنما يربطها به تاريخ طويل. سألها عن الطفل. همست أنها أخذته الى الروضة، وقالت، وهي تنظر في ساعتها: إنهم سيأتون بين لحظة وأخرى ليأخذوه. ولكنهم لم يأتوا إلا بعد الظهر. كان الحر قد اشتد، أو هذا ماأحسا به، ففتحا النافذة. دق الجرس فقفزت اليه، وهو وراءها. دخلوا يحملون تابوتاً مغلقاً من البلاستيك الأزرق، وقالوا: أين هو؟ مهيأ؟ وكانت أصواتهم الاعتيادية تبدو في البيت الصامت كالنعيب.

دخلوا على الميت، وملأوا الحجرة بأصواتهم المستبدة، وروائح أجسادهم القوية. أزاحوا

الغطاء، وشدوا وثاق اليدين والرجلين بتلك الحيادية القاسية، وكأنهم يعالجون دمية. وسمع يحيى سليم فرقعة العظام هذه المرة، وحين أودعوا الجثة الصندوق البلاستيكي بعجالة ولا اكتراث، وقال يحيى لنفسه: نافع لك، يايحيى أن تمارس شغلتهم هذه أسبوعاً! وشعر بارتياح من أنه اجتاز امتحاناً عسيراً. وقال لنفسه: سأقول لثابت حسين أنني خضت تجربة أخرى بنجاح تقريبي.

— ٢٠ —

عاد ثابت حسين من المستشفى فرحاً طلق الأسارير. قال له البروفيسور كوزين: تستطيع أن تتهيأ للسفر مطمئناً. سنترك ابنك يعود الى دياره مطمئنين الى أنه سيعيش ماكتب له من العمر. وبدت هذه الكلمة من البروفيسور كوزين متواضعة جداً، وغير مشبعة بروح العلم الواثق، لأنها قد ربطت ابنه بالقدر، والمكتوب على الجبين. واغتم لذلك في بادىء الأمر. ولكنه، حين خرج الى الشارع، وتنفس هواء الناس، آمن بصدق ماقاله العالم. فمن يضمن لك حياة معفية مما تخطط الأقدار خلف حجب الغيب، ودهاليز المصادفة المجهولة؟ وزاد من فرح ثابت أنه خرج من حالة الابهام، حيث ظل طوال اسبوعين فاقد اليقين مما يخبئه المستقبل، وتقلباته. والآن تقرر أن يأخذ ابنه، أن تنقل اليه المسؤولية كاملة. كان صدره يزخر بالمشاعر المتشابكة غير المحددة كلياً. قرر أن يخلو الى نفسه. في حالة امتلاء الصدر بالمشاعر كان يركن الى نفسه لتصفو، ويتبينها بوضوح، ويتأكد من حقيقتها. ذهب الى فندقه، وأغلق عليه الباب، وقال، وهو ينظر الى النهر المسترخي تحته بكسل، أنني أصبحت أباً، ولا كل الآباء. صار لي شيء يخصني، مأساتي، حالتي الخاصة، عذابي الخاص الذي سيلازمني، وأتعود عليه، ويصبح من حقائق حياتي التي لاترد، ولابد من توطين النفس عليه. وعندما صمتت الأفكار في ذهنه، تذكر حالة مماثلة، لا، لا ليست مماثلة على الاطلاق. كيف يجيز لنفسه أن يماثلها حالته؟ كان لأحد أقربائه ابن ولد قاصر في نموه الذهني، متضخماً في نموه الجسدي. رآه ذات مرة متربعاً على الأرض، وأمامه صحن من الرز والمرق. كان يأكل ويتكلم، أو بالأحرى يهمهم بأصوات غير مفهومة. وكان لايستطيع تصويب الملعقة الى فمه، فكان يدلق حبات الرز على صدره وثيابه، كان أسود متأكسداً، يشير الى الأشياء، ويتكلم مع نفسه. وكان والداه على مقربة منه لايكترثان به، أو يعتبرانه حقيقة حياتية لابد أن يقتنعا بها، ولا يمكن أن يتخليا عنها. ذلك قدرهما وواجبهما.

ولكن ثابت عاد فلعن نفسه لأنه سمح لنفسه بأن يقارن ابنه بتلك الحالة الميؤوس منها، ابنه الذي عاد متفتحاً للحياة، عامر الذهن بأشياء كثيرة، وإن كان معطوباً كما عبر يحيى سليم. لن يزاول كل مايزاوله الناس، أو بنفس الطريقة التي يزاولونها. ولكنه سيزاولها بحدود طاقته الجسدية. وسيجد الوقت الكافي ليتأمل الناس في حركاتهم المقصودة وغير المقصودة ليتخلصوا

من عبء الطاقة المخزونة التي لايعرفون كيف يصرفونها .

رفع سماعة التلفون وتلفن ليحيى سليم . وترك الجرس يرن وقتاً طويلاً ، ومع كل دقة كان يتسرب من قلبه الأمل في لقيا صديقه . صارت الوحدة لاتحتمل مع توارد أفكار مقلقة . لبس سترته ، وأغلق حجرته وخرج .

وجد ثابت صديقه يحيى بين تلك المجموعة العتيدة من عباد الموائد . حاول أن يستله من بينهم . ولكن فرائض الغداء الأسطورية قد بدأت . وضعوا كرسياً له الى جانب يحيى ، وأفردوا صحناً ، بحثوا له عن قدح . لم يجدوه . كانت الأقداح كلها مشغولة . قال يحيى سليم :

ــ لاتتعبوا أنفسكم . أبو حسان لايشرب على الغدا .

ولكن أحدهم تناول قدحاً من المائدة المجاورة ، ووضعه أمامه . قال ثابت :

ــ سأشرب اليوم .

ــ لطيف . لابد أنها أخبار سارة .

ــ سيعطونني ابني خلال أيام .

كانت هناك بعض الوجوه الجديدة . ولكن أغلب الوجوه معهودة .

قال صالح جميل :

ــ يعني ، ستغادرنا ؟ كل أطايب العيش هنا ، يااستاذ !

ــ شغلي هناك ينتظرني ... تأخرت بما فيه الكفاية .

كانت بعض الوجوه الجديدة متجهة نحوه باستفسار . تبرع صالح ليقول :

ــ الاستاذ عنده ابن يتعالج من أثر حادث سيارة .

استفسر بعضهم منه :

ــ والحادث كبير ؟

ــ كبير .

قال آخر .

ــ نحن نعرف كيف يسوق سائقونا هناك . بلا قواعد ، ولا تدري من أين يأتيك : شمالاً أو يميناً .

ــ الأخ هو الذي كان يسوق السيارة ؟

ــ ياليت .

ــ كيف ، ياليت ؟ هل كنت تتفادى الاصطدام .

قال ثابت وهو يرفع كأسه :

ــ دعونا نترك الموضوع . نحن على مائدة شرب .

عدل ثالث :

ــ أرجوك ، ياأستاذ ، نحن على مائدة غداء .

ــ ولتكن مائدة غداء ولكنها حافلة .

ــ تريد أن تقول : كم تكلف هذه المائدة في بغداد ؟

تنبه آخر في نهاية المطاف الى أنهم يتحدثون عن حادثة اصطدام قال :

ــ في بغداد حوادث الاصطدام أكثر بكثير مما هنا . لاسيما في الطرق الخارجية .

ــ في بغداد كل شيء أكثر من اللازم .

همس الذي كان جالساً الى يسار ثابت برزانة :

ــ الحادثة قوية ؟

ــ قوية ...

ونظر الى صالح جميل يعاتبه على إثارته الموضوع .

ــ هل كان السائق سكران ؟

ــ لاأبداً . الجميع صاحون .

قال آخر يبدو عليه السكر :

ــ يعني الجريمة أكبر .

وجد ثابت حسين نفسه محاصراً من يساره ومن أمامه ، يتحدث أمام عيون متعطشة لاشياء جديدة . تتسقط كل شيء يثير اهتمامها ... مجرد فضول . قال ملطفاً الموضوع :

ــ كل شيء قضاء وقدر ، أو مصادفة (ونظر الى يحيى سليم نظرة خاطفة) وقع الحادث بعد ظهر يوم الخميس ، في سيارة صاروخ .

وبلع ثابت ريقه ، وهو يجد صعوبة في استرجاع الحادث .

ــ ها ، ها صاروخ ، هذه التقليعة الجديدة في بغداد .

ــ كانت السيارة تسير في الطريق قرب طويريج . الطريق قرب طويريج عالية .

ــ متى كان ذلك ؟

ــ اسكت ، عباس .

ــ وإذا بها تجابه بسيارة مصلحة من أمام ، وسيارة جيش لوري قادمة من أحد الشوارع الفرعية ... (وتوقف لحظات) اسمحوا لي ، لاأستطيع أن أدخل بالتفاصيل .

ــ طيب ، نخب سلامة ابنك . المهم سيعود الى بغداد سالماً .

ــ إن شاء الله .

قال أحدهم متأوهاً :

ــ وياليتنا جميعاً نعود سالمين ، وبعد حادثة الاغتراب عن الوطن .

ـ أنت بشكل خاص، لأضمن لك سلامة العودة.

ـ أنت من يضمن لك؟ اسمك في القائمة.

انسحبت الضجة الى طرف المائدة الآخر. وخلا الجو. التفت يحيى الى ثابت، وقال:

ـ إذن، ستغادرنا عن قريب؟

ـ نعم، وأرجو أن نلتقي عن قريب.

قال يحيى:

ـ نلتقي! أين؟

ـ الدنيا ضيقة، وإن كانت تبدو واسعة.

ـ وأنا مقصوص الجناحين؟

ـ لن تظل هكذا. ألا تتوقع عودة أخرى؟

ـ من أين؟

ـ من وراء الجبال.

مط يحيى سليم شفتيه بابتسامة ساخرة، وقال:

ـ برقية أخرى؟ وهل يغير ذلك من الأمر شيئاً. كنا ندور ولكن في فلكين مختلفين. (يعني نعود الى نظريتك في الأفلاك!) ولم يستطع أحدنا أن يجذب الآخر الى فلكه. هذه هي المشكلة. وستظل قائمة.

قال ثابت حسين:

ـ الزواج عقد تنازل بين طرفين لمصلحة طرف آخر هو العائلة المقبلة.

ـ هذا مايجب أن يكون، ولكن...

وشعر يحيى سليم بمرارة في فمه غسلها بماء معدني، وقال متشجعاً:

ـ على كل حال لنشرب نخب المستقبل، ببرقية أو بغير برقية.

ـ لنشرب.

ودفع بقية كأسه في جوفه، وبربر، وقال ممتعضاً:

ـ صحيح أنها أم الكبائر.

شعر بتدبق في داخله. بعد صمت قصير قال ثابت كالهامس:

ـ قرأت هذا الذي سميته...

قاطعه يحيى بأن رفع ذراعه بعيداً في الهواء.

ـ اتركه...

ـ لا، أبداً، عرفت الكثير منه عنك.

ـ لم أعد ذلك الذي تتحدث عنه تلك الصفحات ... لقد تغيرت خلال أيام.

ولاعب أصابعه الثلاثة . وكز على أسنانه . وتابع يقول :

ـــ أنا معك في أن الانسان يحتاج لمجابهة الحياة الى الكثير من القسوة . وأضيف أيضاً والى الكثير من الغفلة ليوازن نفسه . لامكان للقديسين الطيبين حقاً في هذا العالم ... ولا مكان لهم إلا في كتب الدعوات والابتهال الذي هو عجز عن مجابهة العالم والتحكم في المصير .

تركه ثابت يفرغ مافي نفسه . ولكنه سكت عن القول ربما لأن الأفكار تصارعت في ذهنه ، ولم يعرف مايقدم منها وما يؤخر .

هدأه ثابت بأن قال :

ـــ لابأس ... سترى أن كل شيء سينتهي نهاية حسنة .

ـــ تشجيع لالزوم له . أنا الآن أفهم .

وصمت . وجلجلت أصوات أخرى كانت تتراهن على فريقين من فرق كرة القدم . والخاسر يدفع ثمن هذا المائدة . وعاد يحيى سليم يقول :

ـــ أنا الآن أفهم أنها مسألة هينة أن يفقد الانسان أبوته لابنه ، ولكن أن لايحس بالمسؤولية إزاء مايجري في وطنه ... فتلك ...

وضرب حافة المائدة بأصابعه . ولم يكمل . وكان الحديث في الطرف الآخر عاد ليتناول عودة حازم الى العراق .

ـــ أجل عودته ؟

ـــ نعم ، يقول أنه ينتظر برقية من أهله يعني : أو . كي .

ـــ يعني صار على قائمة الانتظار ؟

ـــ هو مثلنا ، يفعل مع وقف التنفيذ .

ـــ اسمع ، نصيحتي ياحازم ، سافر . مادامت الجبهة لم تلفظ أنفاسها بعد .

ـــ لن يسافر ، ولو على رؤوس الحراب .

ـــ ياجماعة ، هل تريدون أن أحكي لكم آخر نكتة ، ويمكنكم أن تطبقوها على الجبهة .

ـــ تفضل ، تفضل .

ـــ قيل أن الأمريكان اكتشفوا طائرة عجيبة غريبة ، هي بين المركبة الفضائية والطائرة الاعتيادية ، تستطيع أن تحلق حتى تلامس الغلاف الجوي ، وتقوم بمناورات معقدة هناك ، بل وتستطيع أن تتوقف في الجو نصف ساعة . لم يصدق الناس ، ولا أحد يستطيع أن يثبت ادعاءات الامريكان . فاضطرت الحكومة الامريكية أن تدعو طياراً من دولة صديقة ليتأكد بنفسه من ذلك . ولما عاد الطيار من رحلته ، سألوه :

ها ، يابا ، هل صحيح مايقولون ؟ قال ربما . وهل جربت أنت بنفسك ؟ قال حاولت أن أجرب ،

أن أدوس على هذا الزر، أو ذاك. ولكنهم كانوا يلطمونني على يدي، ويقولون: لاتلعب. وحتى زر التحكم بالأوكسجين، فقد شعرت بالاختناق من قلة الاوكسجين في تلك الأجواء العليا. حاولت أن أدوسه أي لأزيد الأوكسجين فضربوني على يدي ضربة جعلتني أتخلى عن كل محاولة لي. وإذا أردتم شاهداً على محاولاتي الصادقة، فهاتان يداي المتورمتان شاهدتان على ذلك.

ضحكوا، وقال أحدهم:

ــ يعني، ماذا تريد أن تقول؟ يؤجل حازم سفره؟

ــ افهموا من ذلك ماتريدون.

ــ طيب، حازم، أجل سفرتك.

قال يحيى في ضيق:

ــ كلكم مؤجلون...

ــ وأنت؟

قال بالعاً مرارته:

ــ وأنا أيضاً.

قال آخراً:

ــ نحن ضحايا عالم طريد ــ لا.

قال صوت:

ــ سكت دهراً، ونطق كفراً.

ــ أولئك الساكتون الكافرون؟

ــ الخمرة تجعل الألسنة طويلة... الساكتون الكافرون هم الذين لايشربون.

ــ أحسنت، أبعدت شبهة الكفر عنا.

كان يحيى يحس بأنه معزول. كانت الزوبعة تتجمع في صدره.

قال رافعاً صوته:

ــ هلا سألتم أنفسكم أية صلة لنا بالعالم؟

ــ كيف أية صلة؟

ــ نحن في قلب العالم.

ــ أنا أسمع نشرة الأخبار أربع مرات في اليوم، ومن كافة المحطات.

ــ وتنتظر أن يغير الآخرون العالم لك، ويقدمونه لك، جاهزاً على مقياسك؟

وتمزقت المائدة الى مجموعات من الأصوات المتجاولة، المتنافرة. وبذلك انتهت مائدة الغداء.

— ٢١ —

في اليوم التالي استيقظ يحيى سليم بنفس الساعة التي يستيقظ فيها كل يوم. ومد يده تلقائياً الى جهاز الراديو الى يساره. إلا أنه سحبها كالملدوغ. وقال لنفسه: لن أسمع اليوم نشرة الأخبار. وطوى جسمه في بطانيته، وقال: لن أفطر اليوم. سأنام مثل صالح جميل الى الساعة الثانية عشرة. لن اشتغل اليوم. لن أفعل شيئاً. وبقى مشلولاً مخدراً ساعة أو نحوها. وبعد ذلك أحس وكأنه سيسقط مريضاً. دار فكره، وجال. ووجد نفسه يردد: « سأفتقده، سأفتقده... سيسافر » ثم قال لنفسه: « من موقعه هناك يستطيع أن يفعل شيئاً. أما هنا، فماذا أستطيع أن أفعل؟ كلنا مشاريع مؤجلة » واغتاظ لمآل تفكيره. ودومت في أعماقه سورات غضب وتمرد. أزاح البطانية من جسمه، وهب منتفضاً ومارس عاداته الصباحية آلياً، وحين فرغ منها رأى منضدة الكتابة تنظر اليه بيتم. فجلس عليها، وتناول القلم، وأنشأ يفعل مايفعله كل يوم. وبعد الظهر دق جرس التلفون:

ـــ صباح الخير، ياأستاذ!

حنق يحيى سليم وقال:

ـــ قلت لك ألف مرة: قل بعد ظهر الخير...

ـــ الآن استيقظت من النوم... طيب، من أجل خاطرك: بعد ظهر الخير أو نهارك سعيد... هل ستخرج لتناول طعام الغداء؟

قلب يحيى السماعة بين يديه، وكأنها أثر من عهد تاريخي قديم، وقال قبل أن يضعها:

ـــ في الخريف...

صدر للمؤلف

١ ـــ حصيد الرحى	« مجموعة قصص »	بغداد	١٩٥٤
٢ ـــ مولود آخر	« مجموعة قصص »	بغداد	١٩٥٩
٣ ـــ النخلة والجيران	رواية	بيروت	١٩٦٦
٤ ـــ خمسة أصوات	رواية	بيروت	١٩٦٧
٥ ـــ المخاض	رواية	بغداد	١٩٧٤
٦ ـــ القربان	رواية	بغداد	١٩٧٥
٧ ـــ ظلال على النافذة	رواية	بيروت	١٩٧٩
٨ ـــ آلام السيد معروف	رواية قصيرة ومجموعة قصص	بيروت	١٩٨٢